
القافلة
العدد 700 | سبتمبر - أكتوبر 2023
القافلة
سبعون عامًا





مجلة ثقافية منوعة تصدر كل شهرين
المجلد 72 | العدد 700 | سبتمبر - أكتوبر 2023

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية
(أرامكو السعودية) - الظهران

رئيس أرامكو السعودية، كبير إدارييها التنفيذيين
أمين حسن الناصر

النائب التنفيذي للرئيس
للموارد البشرية والخدمات المساندة
نبيل عبدالله الجامع

نائب الرئيس للشؤون العامة
خالد عبدالوهاب الزامل

مدير إدارة المحتوى وقنوات الاتصال بالوكالة
سامر أسامة عبدالجبار

رئيس قسم قنوات الاتصال بالوكالة
أسامة محمد قروان

فريق القافلة

شؤون التحرير
ميثم الموسوي
بدور المحيطيب
حسام نصر

تحرير وإخراج



القنوات الرقمية
والتوزيع والمساندة
مشاعل الصالح
شذا العتيبي
سعود الدعيج
شروق الفردان

المراجعة والتدقيق
هنوف السليم
سعيد الغامدي
نورة العمودي
جنى آل خثلان

70 عامًا عبرتها القافلة لتصل إلى العدد 700. وفي هذه الرحلة الزمنية محطات كثيرة يصعب حصرها ويطول سردها. لكن ملخَّص الحكاية هو أن أعدادها كانت طوال سبعة عقود هدايا المعرفة من قطوف الثقافة المتنوعة لأجيال من القرّاء. إنها حكاية تستحق أن تُروى ويُحتفى بها، وتستحق أن تستمر في ألق دائم وشباب متجدِّد.

ردمد ISSN 0547-1319

طباعة



لطلبات الاشتراك الخاصة باستلام الأعداد المطبوعة من مجلة القافلة، ولإلغاء اشتراكك أو تحديث البيانات الخاصة به، يُرجى التواصل معنا عبر البريد الإلكتروني للمجلة: alqafilah@aramco.com

توزع مجانًا للمشتركين
العنوان: أرامكو السعودية ص.ب 1389 الظهران 31311 المملكة العربية السعودية

البريد الإلكتروني:
Alqafilah@aramco.com

الموقع الإلكتروني:
Qafilah.com

شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، شركة مؤسسة بموجب المرسوم الملكي رقم م/8 وتاريخ 04 / 04 / 1409هـ، وهي شركة مساهمة بسجل تجاري رقم 2052101150، وعنوانها الرئيس ص.ب. 5000، الظهران، الرمز البريدي 31311، المملكة العربية السعودية، ورأس مالها 90,000,000,000 ريال سعودي مدفوع بالكامل.

محتوى العدد

قبل السفر

أدب وفنون

طاقة وبناء

آفـــاق

الملف

تابعونا @QafilahMagazine مجلة القافلة بودكاست القافلة qafilah.com






كلمة القافلة

قافلة الـ70
طموحٌ متجدِّد لشباب دائم

فؤاد فهد الذرمان
رئيس الهيئة الاستشارية لمجلة القافلة

مع صدور هذا العدد رقم 700، تُكمل القافلة 70 عامًا من عمرها المديد. ولا بُد لنا هنا أن نستذكر بهذه المناسبة ما كتبه أول رئيس تحرير لها الأستاذ حافظ البارودي، رحمه الله، في مقدمة عددها الأول الصادر في أكتوبر 1953م (صفر 1373هـ)، حين قال: "بسم الله نصدر أول عدد من (قافلة الزيت) وبعونه نوالي إصدار أعدادنا المقبلة. وتأمل إدارة هذه النشرة أن تقدم إلى قرائها موظفي الشركة، كل طريف ممكن وكل شائق ميسور وكل مفيد وممتع، ونرجو أن يكون هذا المشروع كبير الفائدة، عظيم الأثر في نشر المعرفة والعلم، وسنبذل كل جهد ممكن في تقديم الزاد الفكري النافع، فترضى عنه الخاصة وتستسيغه العامة".

كما لا بُد من وقفة تحية واحترام وتقدير للمؤسسين الأوائل ضمن فريق أرامكو، الذين أطلقوا القافلة وواصلوا بجدهم وإخلاصهم ومثابرتهم مسيرتها عامًا بعد عام حتى قطعت 700 عدد تحفل بكنوز ثمينة من المعرفة وألوان من العلوم والآداب والفنون. ومن أبرز من نرفع لهم "عقال" الاحترام مديرو الشركة ومديرو العلاقات والشؤون العامة في أرامكو الذين ساندوا المجلة، وكذلك حُداة القافلة من رؤساء تحرير المجلة وأعضاء هيئة التحرير وسكرتاريته، فقد كانوا هم أبطالها. غير أن الشكر يصبح ناقصًا إن لم نذكر بعميق الفضل والعرفان الجهات التي تعاونت مع هيئة تحرير القافلة، وساهمت بجهد رائع في كتابة المقالات وتحريرها، وتصميم المجلة وطباعتها وتوزيعها حتى بلغت الآفاق وتحققت بها الريادة. ولا يكتمل الشكر أيضًا دون ذكر فضل مستحق لأجيال من الكتاب وآلاف من القراء الذين ساهموا في بلوغ القافلة ما بلغته من رفعة وتميز.

ومن يستهويه النظر والبحث في أعداد مجلة القافلة عبر السنوات سيجد أن المجلة اتسمت بالثبات والتحول في آن واحد، وأنها أثّرت في واقعها وأثْرته وتأثّرت به، وكانت شاهدة رائعة على عصرها، فهي إرث سعودي استثنائي عاصر تطور المملكة فوثّقه على مدى سبعة عقود. ويكفيها فخرًا أنها عاصرت جميع ملوك المملكة العربية السعودية منذ عهد الملك المؤسس عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود، طيّب الله ثراه، مرورًا بعهود أبنائه البررة الملوك سعود وفيصل وخالد وفهد وعبدالله، رحمهم الله جميعًا، ووصولًا إلى العهد الزاهر الذي نعيشه تحت قيادة الملك سلمان وولي عهده الأمير محمد بن سلمان، حفظهما الله.

ولعل بعض المقارنات السريعة تذكرنا بحجم الفارق في السياق الوطني وانطلاق التنمية عند بداية صدور القافلة مقارنة بوقتنا الحاضر، وقد كانت المجلة ولا تزال عنصرًا من عناصر التنمية الثقافية والمعرفية في الوطن. فحين بدأت القافلة في أكتوبر 1953م، تَواكَب ذلك مع تأسيس أول مجلس للوزراء في المملكة، وكان تعداد السكان في وطننا الحبيب يُقدر بـ3.5 مليون شخص، وهو عدد تضاعف 10 مرات تقريبًا فأصبح الآن أكثر من 35 مليون شخص. وبالنسبة إلى الاقتصاد السعودي، كان دخل المملكة نحو مليار ريال، فتضاعف ألف مرة ليتجاوز الآن تريليون ريال، بفضل الله. كانت المقالات المنشورة في أول عدد عن محاربة الأمية ومكافحة الملاريا والتعريف بصناعة الزيت وقطوف من الأدب، والآن هي عن الصناعات الثقافية والتغير المناخي والذكاء الاصطناعي وعوالم الميتافيرس.



وُلدت القافلة في أواسط القرن العشرين، وهو عصر ذهبي للثقافة العربية حيث عمالقة الشعر والأدب والتمثيل والموسيقى والفنون. وكان ذلك أيضًا عصرًا ذهبيًا للمجلات، إذ لم يكن التلفزيون منتشرًا وكان الراديو محدودًا، وكان للصحافة الورقية حضورها وبريقها وتأثيرها. ولو كانت القافلة فتاة، لوجدنا أن ملامحها نمت وتغيرت مع الوقت. ففي طفولتها وعمرها من 1 إلى 6 سنوات، لم تكن صفحات القافلة بالألوان، وكذلك كان غلافها يُطبع بالأسود ولون آخر.

وبعد ذلك دخلت القافلة مرحلة اليفاعة المبكرة والشباب، وهي في العمر من 7 إلى 22 سنة، وقد اتسمت بالنبوغ المبكر وكانت فاتنة رشيقة ممشوقة، فدخلت القلوب وتعلق بها القراء، وحققت ريادة وشهرة وطنية وعُرفت على نطاق جيد في العالم العربي. وكانت تستكتب أسماء مرموقة شملت طائفة من أرفع الكتاب والباحثين السعوديين والعرب شأنًا ممن فُتنوا بها وتفننوا في غرس ثمراتهم في بساتينها. وقد كان من ملامح تلك المرحلة أن المجلة اليافعة، التي كانت تحمل اسم "قافلة الزيت"، وضعت حملًا بنفس الاسم على شكل نشرة أسبوعية داخلية تُعنى بأخبار موظفي الشركة، فانفصلت النشرة عن المجلة الشهرية بما أتاح للمجلة قدرة أكبر على الرشاقة والمزيد من النشر للمحتوى الثقافي والعلمي والاستطلاعات المصورة. كما شهدت هذه المرحلة بداية إضافة مزيد من الألوان للغلاف بينما استمرت صور الداخل بالأسود والأبيض. وفي رأيي، كانت تلك المرحلة من أزهى المراحل الذهبية للقافلة، وهي أيضًا انعكاس لمرحلة ذهبية في الثقافة العربية.

وفي المرحلة التي أصبح فيها عمر القافلة الحسناء من 23 إلى 40 سنة، حدث تطور في الإعلام العربي الورقي، وصدرت مجموعة من المجلات الحديثة ذات الجاذبية والفتنة في شتى المواضيع، وقد اتخذ بعضها من لندن مقرًا، فلم تعد الساحة الإعلامية محدودة، بل ازداد خصبها بوجود منافسة أكبر على اهتمامات القراء. ومع ذلك شهدت مجلتنا الحسناء استمرارًا في تميزها وعنفوانًا في شبابها، فأصبحت صورها الداخلية ملونة وتزينت بالعديد من الاستطلاعات عن المدن السعودية والعربية، وتميزت بمسايرة المواضيع للطفرة الاقتصادية التي بدأت منذ أواسط السبعينيات. وفي عمر الأربعين تقريبًا، شهدت القافلة والصحافة الورقية تحديًا ببداية انتشار القنوات الفضائية وظهور الإنترنت، وكان ذلك بمنزلة أزمة منتصف العمر لمجلة القافلة على الرغم من أن تلك المرحلة للصحافة السعودية كانت مرحلة نمو وتطور. ومما يُذكر من تلك المرحلة للقافلة أنها ارتدت في تصميمها وخطوطها وألوانها حللًا زاهية من الهوية البصرية الجديدة لأرامكو التي أطلقتها في عام 2000م.

ولكن، بحمد الله، لم تستمر أزمة منتصف العمر في القافلة، إذ حصلت على دفعة سحرية ساعدتها على تجديد شبابها لعشرين سنة تالية. أتذكّر أن رئيس الشركة الأسبق، الأستاذ عبدالله جمعة، استقطع ساعات من وقته الثمين ليضع تصورًا جديدًا لتطوير المجلة صاغه في 4 أو 5 صفحات، فكانت تلك الأفكار بمنزلة الدفعة التي أعادت الشباب للمجلة، واستطاع فريق تحريرها بالتعاون مع فريق "المحترف السعودي" أن يعيدوا ابتكار المجلة بقدر ملحوظ من الإبداع، ويحققوا عصرًا ذهبيًا ثانيًا وخاصة في الفترة التي كان فيها عمر المجلة بين الخمسين والستين.

فلما بلغت المجلة 60 سنة، لاح في ذهنها التقاعد والراحة، خاصة أن الجوال الذكي و"السوشال ميديا" واتجاهات التحول الرقمي للإعلام أخذت تتشكل وتستهوي قلوب القراء وأبصارهم وأسماعهم، ومعها بدأ يتشكل تهديد حقيقي للمجلات والصحافة الورقية العربية والعالمية. كثير منها لم يصمد، ولكن مجلة القافلة صمدت وزادت على الصمود نموًا في منتجاتها المساندة، فعقدت ندوات وورش عمل في عدة مدن في المملكة لمناقشة مواضيع جديدة تثري محتواها وتربطها بشكل أكبر بالمجتمع الوطني، وأطلقت موقعها في الإنترنت وحساباتها في السوشال ميديا. كما تعاونت مع قناة العربية لنشر جزء من محتواها على هيئة مقالات ومقاطع قصيرة ملهمة، وأطلقت بودكاست القافلة الذي حقق نجاحًا ملحوظًا، وأسّست مشروعًا تعاونيًا مع مركز الملك عبدالعزيز الثقافي العالمي (إثراء) لترجمة المعلقات إلى الإنجليزية ترجمةً تناسب جيل الألفية. وقد تواكبت هذه المرحلة العمرية للقافلة مع إطلاق رؤية السعودية 2030، التي أسست لتحولات مباركة في الوطن ومنها إطلاق مارد الثقافة السعودي من القمقم.

ولطالما تساءل عشاق مجلة القافلة والمهتمون بها عن توجهاتها المستقبلية، خاصة أنها وصلت الـ70 سنة. للإجابة عن هذا السؤال بطريقة منهجية، شكّلت أرامكو خلال الربع الثالث من عام 2023م الهيئة الاستشارية لمجلة القافلة، بهدف تعزيز مسيرة المجلة العريقة وإعطائها دفعة جديدة من الزخم؛ كي تسير في أرض المستقبل بجمال وقوة ورشاقة. وقد انعقد الاجتماع الأول للهيئة الاستشارية، التي تشرّفت برئاستها، في شهر أغسطس الماضي، وأود أن أشارك القراء بأهم ما دار من نقاش.

أجمع أعضاء الهيئة على أن المجلة تُعد من الأصول الثقافية المهمة في الوطن، وأنه ينبغي البناء على اسم القافلة وعلامتها التجارية وريادتها بوصفها من أقدم المجلات ذات المكانة والتأثير في المملكة، ومن أطولها استمرارًا. كما اتفقوا أن من الضروري للقافلة أن تسلك مسار التحوّل الشامل، وليس التحسين فقط، وأن يكون لها حضور واضح وتأثير ملموس في البيئة الثقافية في المملكة وعلى الصعيد العربي، وريادة جديدة تواكب ريادتها في عصورها الذهبية وتسعى إلى تجاوزها، وذلك بتبني إستراتيجية مستقبلية شاملة تنطلق من معطيات المشهد الجديد في دوائره الأربع: تحولات أرامكو وتوسع نشاطاتها بما في ذلك التكامل مع مركز "إثراء"، والتحولات المنبثقة من رؤية المملكة الطموحة، والتغيرات التي يشهدها العالم في مجالات التقنية والفكر والسياسة والاقتصاد، وتحولات قطاع الإعلام الذي يتجه نحو الإعلام الرقمي والتواصل الاجتماعي. وقد أجمع الأعضاء أيضًا على أن المجلة العريقة لا بد أن تكون ملبّية لتوقعات الجمهور، بما في ذلك الجيل الجديد من القرّاء.

بالتالي، رأت الهيئة الاستشارية أن من المهم العمل على أن تكون المجلة مشروعًا ثقافيًا متكاملًا بقنواته المختلفة الورقية والرقمية، ومنتجاته الرئيسة والمساندة. ومن أبرز الملامح المستقبلية التي تتطلع إليها الهيئة الاستشارية للقافلة هو التحوّل الرقمي من مجلة ورقية بشكل أساس إلى منصة متكاملة للثقافة، بتوظيف أدوات التسويق المناسبة، والريادة في استخدام الذكاء الاصطناعي، والاستفادة من القدرات والتقنيات الإعلامية المتوفرة لدى الشريك الإعلامي للمجلة، وهي شركة روناء للإعلام المتخصص، مع تأكيد أن التحول الرقمي لا بُد أن تمشي بالتوازي معه الأعداد الورقية؛ لأنها مهمة في الحاضر والمستقبل المنظور. غير أن الإجابة عن التساؤلات حول قافلة المستقبل ليست محصورة في نقاشات الهيئة الاستشارية، فهيئة تحرير المجلة تسعد بالاستنارة بآراء كافة القرّاء بمختلف شرائحهم العمرية ومشاربهم الذوقية، ومن ذلك ما تضمّنه هذا العدد المميّز من بعض الاقتراحات والإشارات التي أدلى بها ضمنًا مجموعة من الكتاب الأعزاء في زاوية "بداية كلام".



لم ترَ هيئة التحرير تخصيص كامل العدد السبعيني لاستعراض المسيرة التاريخية للمجلة، فأجّلت ذلك لمناسبة مستقبلية أكبر حين الاحتفال بمرور 75 سنة على المجلة في عام 2028م، بإذن الله.

ومن المؤسف حقًا أن يصدر هذا العدد في وقت تتعرض فيه فلسطين، قضية العرب الأولى، لإحدى أكبر وأقسى محنها. ونضرع إلى الله العلي القدير أن يشيع الأمن والسلام فيها، وتعود الحقوق إلى أصحابها، وتُورق أغصان الزيتون، وترفرف حمائم السلام على زهرة المدائن وكامل الديار الفلسطينية. وعبر السنوات السبعين لمجلة القافلة، ازدان الغلاف ثلاث مرات بالقدس الشريف وفلسطين، كما تضمّنت صفحاتها مواضيع كثيرة عن تلك الأرض المباركة وتاريخها وثقافتها وفنونها ومكانتها في القلوب. ولعلّ هذه فرصة تغتنمها أسرة القافلة لتعبّر عن امتنانها الخالص لكل الكتاب والمبدعين الفلسطينيين، الأحياء منهم والراحلين، الذين أثرَوا القافلة بفكرهم العميق وأبحاثهم الرصينة وكلماتهم وإبداعاتهم الملهمة خلال مسيرتها عبر السنوات.

وبالنظر في محتوى العدد، سيجد القارئ أن هيئة التحرير انطلقت من كون مجلة القافلة إرثًا ثقافيًا عربيًا سعوديًا، فخصّصت قضية هذا العدد عن الثقافة السعودية كما يراها المثقف، وحرصت على تضمين مقالة شاملة عن الصور التي ظهرت بها المملكة في عيون القافلة؛ فلطالما اهتمت هذه المجلة، منذ أوائل صدورها، بتصوير جوانب المملكة الثقافية المادية وغير المادية، فأظهرت موروثها الثقافي والحرفي من خلال أزيائها وأطعمتها وأغانيها الشعبية ومنتجاتها التراثية الأخرى، وسلطت الضوء على أبرز مدنها ومواقعها الأثرية والطبيعية، فكانت بمنزلة مرجع ثقافي وسياحي عن المملكة. كما نشطت القافلة في التعريف بأبرز الأدباء والشعراء والفنانين والمصوّرين والأعمال السينمائية والإبداعية السعودية. وهكذا كانت القافلة، كما ذكر مسؤول تحريرها، الأستاذ ميثم الموسوي، منتجًا ثقافيًا عربيًا سعوديًا بامتياز فساهمت، وما زالت تساهم، في رسم المشهد الثقافي في المملكة والتعريف بنتاجها الثقافي المتنوع. والمأمول أن تكون هذه المادة باقة عبقة من بساتين القافلة ممزوجة بعطر ذكريات على مر السنوات السبعين الفائتة، لنقرأ صفحاتها، ونستعرض أبرز المحطات والمواضيع والملفات والصور، حول جوانب ثقافية في وطننا الحبيب.

ومن أبرز مقالات العدد التي يجدر التنويه بها هو مقال يشرح التحدي العالمي الذي تواجهه الدول والمؤسسات في التحول إلى طاقة منخفضة الكربون؛ إذ يتزامن صدور هذا المقال مع تصاعد زخم النقاشات الإقليمية والعالمية في الربع الرابع من 2023م، ومن بينها انعقاد مؤتمر أسبوع المناخ لمنطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا في الرياض، تمهيدًا لاستضافة الإمارات العربية المتحدة قمةَ المناخ "كوب 28". ولن أطيل في استعراض مقالات هذا العدد، ولكني سأتطرق إلى موضوع الملف وهو "القياس"، إذ يستعرض الملف هذا المفهوم وتاريخه ووحداته ومعاييره. وما منا من شخص إلا ويقيس الأشياء المهمة بالنسبة إليه، سواء ما يتعلق بالصحة أو المال أو الوقت أو الجمال أو التعلم. وأختم ببيت شعري يرتبط بذلك أتغزل من خلاله بالحسناء القافلة:

ولو أن الهوى في القلب يُحصى لسجَّل قلبيَ الرقمَ القياسي

ولكن لا تسألوني عن وحدات القياس في حب القافلة الحسناء، فهي أقرب لوحدات فيروز حين غنّت بصوتها العبقري: "شايف البحر شو كبير.. كبر البحر بحبك.. شايف السما شو بعيدة، بعد السما بحبك. كبر البحر وبعد السما، بحبك يا حبيبي .. يا حبيبي.. يا حبيبي بحبك".






رسالة رحلتي

تأليف: د. عبد الرب إدريس
الناشر: هيئة الأدب والنشر والترجمة السعودية، 2023م

"لما كانت الأغنية اليمنية تمثل جزءًا هامًا من التراث اليمني الحضاري، ولما كانت الأغنية قد تعرضت لما تعرض له اليمن من ظروف ومتغيرات أدت إلى طمس معالمها وجهل أصولها ومنابعها، كان حتمًا وقد تغيّرت الظروف وتطورت الحياة أن تمتد يد البحث العلمي للتنقيب في تلك الحضارة وهذا التراث، لتكشف جوانبه وتزيل عنه ما انتابه من عوامل ومؤثرات أعاقت كشفه وأوقفت مسيرته".

بهذا الاستهلال التمهيدي يدخل الموسيقار والفنان السعودي الدكتور عبد الرب إدريس (المولود في يوليو 1946م)، كتابه الأكاديمي "رسالة رحلتي" المحلق في فضاء الأغنية اليمنية بشقيها "الحضرمي" و"الصنعاني" وعبر ثلاثة أبواب احتوت ستة فصول بواقع فصلين لكل باب.

يضم هذا الكتاب البحثي، الذي أُنجز بإشراف هيئة الأدب والنشر والترجمة السعودية، مادة معرفية علمية حول خصوصيات الأغنية اليمنية: أصولها وجذورها التاريخية، والأشكال والأنواع والمقامات الإيقاعية المفتوحة على التعدد والتنوع الذي تميزت به الأغنية اليمنية، الصنعانية منها والحضرمية، والشروحات التفصيلية للآلات الموسيقية المستخدمة فيها، مثل العود ذي الأوتار الأربعة، وآلات الإيقاع المختلفة، والخصائص الصوتية الفيزيائية للمقامات المختلفة التي يغنيها اليمنيون، مع تدوين لدرجاتها والمسافات بين هذه الدرجات. وقد أهدى الباحث عبدالرب إدريس الكتاب، كما ذكر في مقدمته، إلى وزير الثقافة السعودي الأمير بدر بن عبدالله بن فرحان آل سعود، مرجعًا إليه فضل الدعم والتشجيع على إخراج هذه الرسالة العلمية إلى النور.

ومن خلال السير، قراءةً، مع جريان نهر الوجدان اليمني المنساب بين دفتي الكتاب، تتجلى للقارئ في سيرة الباحث والموسيقار عبد الرب الدريس قدراته في اللغة الأدبية والفنية والتحليلية، حيث استعرض علاقة الغناء بالشعر وأنواع الشعر الغنائي اليمني. كما أورد معلومات مختصرة عن بعض المغنّين اليمنيين البارزين أطلق عليهم: الحفظة الأمناء، الذين نقلوا التراث الموسيقي القديم إلى الأجيال الحديثة من خلال التسجيلات الصوتية والتلقي الشفهي، ومن بينهم الحفظة الباقون على قيد الحياة الذين عاشوا عصر التسجيل والشريط والفيديو.

في هذا العمل المعرفي والأكاديمي، يعيد إدريس تقديم جغرافية الأغنية اليمنية، ويعرّف القارئ على تنوعها الفني والإيقاعي والشعري والعروضي. ويقدم إدريس صورة شاملة للغناء اليمني، القديم والحديث، من الناحيتين العلمية والتاريخية.

يجمع هذا الكتاب بين الفضاء المذكراتي والدراسة الأكاديمية. فعنوان "رسالة رحلتي" يحيل العقل إلى معاني السرد المسترسل للتجربة الفنية الذاتية، حيث يروي عبد الرب إدريس تجربته الفنية وعلاقته بالموسيقى. أما المحتوى فهو دراسة أكاديمية تتناول الأغنية اليمنية في القرن العشرين من منظور علمي وتحليلي. وقد حصل إدريس على درجة الدكتوراه في الموسيقى من جامعة حلوان في القاهرة بناءً على هذه الدراسة.

البيانات الضخمة.. مقدمة قصيرة جدًا

تأليف: دون إي هولمز
ترجمة: أحمد عبدالمنعم
الناشر: هنداوي، 2023م

توضح الباحثة المتخصصة في الإحصاء التطبيقي بجامعة كاليفورنيا، دون إي هولمز، أن كتابها "البيانات الضخمة" يُعد مقدمة إلى آلية عمل هذه البيانات وكيفية تغييرها للعالم من حولنا وتأثيرها في الحياة اليومية وفي عالم الأعمال. وبهذا المعنى لا يُعتبر هذا العمل كتابًا دراسيًا متخصصًا في مجال الرياضيات لا يصلح إلا لطلاب الدراسات العليا، ولا عملًا مختزلًا لا يقدم تفسيرات واضحة عن هذا المجال الذي يشهد "انفجارًا" غير مسبوق من حيث الكم والكيف.

ينقسم الكتاب الذي صدر ضمن سلسلة "مقدمات قصيرة جدًا" التي تنشرها جامعة أكسفورد إلى ثمانية فصول تناقش ظاهرة انفجار البيانات وطرائق تخزينها وإدارتها وتحليلها، كما ترصد العلاقة بين البيانات الضخمة والطب وتستعرض تطبيقاتها في هذا المجال، وكذلك تحلل استخداماتها في ميدان الممارسات التجارية وعلاقتها بالمجتمع بشكل أعم. وتتناول أيضًا بعض مشكلات الأمان التي تحيط بالبيانات الضخمة وأهمية التشفير للحد من سرقتها وتسريبها، وتشرح كيف صارت جرائم الإنترنت من المشكلات المهمة التي يجب على البيانات الضخمة حلها. كما يبحث الكتاب في مفاهيم ترتبط بالبيانات الضخمة مثل المنازل الذكية والمدن الذكية المستقبلية.

وفي سعيها لوضع تعريف محدد لمصطلح "انفجار البيانات"، تصنف المؤلفة البيانات الرقمية التي تُستخرج من شبكة الويب إلى بيانات هيكلية، أو غير هيكلية، أو شبه هيكلية. وتوضح أن البيانات الهيكلية، المكتوبة يدويًا والمحفوظة في دفاتر الملفات أو خزانتها إلكترونيًا، تُخزن في قواعد بيانات تتكون من جداول منسقة تتضمن صفوفًا وأعمدة، فكل صف يمثل سجلًا وكل عمود يمثل حقلًا محددًا مثل الاسم والعنوان أو السن. وتُستخدم هذه البيانات، على سبيل المثال، لتوفير المعلومات اللازمة لطلب سلعة ما عبر الإنترنت، وهي بيانات من السهل نسبيًا إدارتها، وتكون قابلة للتحليل الإحصائي. أما البيانات غير الهيكلية، فهي على النقيض، يصعب تصنيفها، وتحتوي على صور ومقاطع فيديو وتغريدات ومستندات معالجة النصوص. وتوجد البيانات شبه الهيكلية في مواقع شبكات التواصل الاجتماعي التي تستخدم الوسوم لتحديد الرسائل عن موضوع بعينه.

واستنادًا إلى هذا التمييز، تقول "هولمز" إن مصطلح انفجار البيانات يشير إلى هذه الأنواع الثلاثة من البيانات التي تُنتج كل دقيقة، لذا فإن مفهوم "البيانات الضخمة" لم يعد يُستخدم حاليًا للإشارة إلى إجمالي كمية البيانات الناتجة والمخزنة إلكترونيًا فحسب، بل أصبح يشير أيضًا إلى مجموعة البيانات الكبيرة من حيث الحجم والتعقيد، التي تتطلب أساليب خوارزمية جديدة لاستخراج معلومات ذات فائدة منها.

وتؤكد المؤلفة في ختام كتابها أن البيانات التي ينتجها العالم ستزداد أكثر فأكثر، وأن أساليب التعامل معها بفاعلية وبطريقة مُجدية ستظل موضوعًا للبحث المستمر. فالبيانات الضخمة أحدثت بالفعل تغييرًا جذريًا في الطريقة التي يسير بها العالم، وأصبح الجميع، أفرادًا وعلماء وحكومات، يتحمّل مسؤولية أخلاقية لضمان استخدامها على النحو الصحيح، فكما توضح الكاتبة تظل "البيانات الضخمة قوة، وإمكاناتها للخير هائلة". أما تجنب إساءة استخدامها، فيبقى "أمرًا متروكًا لنا".



العقل الطفيلي

تأليف: جاد سعد
ترجمة: د. هناء خليف غني
الناشر: صفحة سبعة، 2023م

يدعو الأكاديمي ومدير كرسي أبحاث العلوم السلوكية التطورية بجامعة كونكورديا الكندية، جاد سعد، في كتابه "العقل الطفيلي" إلى ضرورة التفكير بعقلانية والسعي إلى فهم الحقيقة؛ حتى في أعقد المواقف الحياتية اليومية التي قد تثير ارتباكًا وحيرة في المجتمع الإنساني.
ويُطالب قراءه بأهمية التحلي بالشجاعة في التعبير عن آرائهم بواقعية مع الابتعاد عما أسماه "مُسمِّمات الأفكار" التي تدمر، حسب رأيه، فهمنا للواقع والفطرة السليمة، والتي تتسبب في استجابات انفعالية هستيرية تجعل العديد من البشر ينساق وراء أهوائه، فتنتابه مشاعر الاستياء والغضب بشكل مبالغ فيه وغير مبرر، كما هو الحال مع المناضلين من أجل العدالة الاجتماعية في وسائل الإعلام، والأساتذة في الجامعات النشطين في التنظير لما بعد الحداثة بمفاهيمها الغامضة، والنسوية الراديكالية التي لا تلتفت إلى الاختلافات بين الجنسين والنسبية الثقافية؛ إذ يحيد هؤلاء في نهاية المطاف عن جادة الصواب.
يشير المؤلف إلى أن المشكلات تنشأ عندما يُطبّق نظام خاطئ على موقف ما، مبيّنًا أنه ليس هناك ضرورة لخلق نوع من التوتر الدائم بين ملكة الإدراك والعواطف التي تخصنا كبشر. ويؤكد من خلال مضمون كتابه، الذي ينقسم إلى ثمانية فصول، أن الالتزام بحرية التعبير، والمنهج العلمي، والتنوع الفكري، والأخلاقيات والكرامة الفردية "تمثل جميعًا عناصر غير قابلة للتفاوض عليها في المجتمع المتنور حقًّا"؛ لذلك فهو يسعى بعمله إلى إضفاء إحساس متجدد بالتفاؤل، فوفقًا له "لم يفت الأوان بعد للإمساك بطرف حبل العقل، والعودة إلى رحاب الضوء الدافئ للمنطق والعلم".
ويحثّ الكاتب الأفراد على تبني نمط واعٍ من الإدراك والتبصر ضد فئة من الأفكار السيئة التي تهمين على حياتهم، والسعي بلا كلل نحو الحقيقة التي لا بد أن تكون أخلاقية، والتي لا ينبغي التضحية بها على مذبح أي قضية يتراءى لأصحابها أنها نبيلة. ويناقش الكاتب، من خلال أمثلة توضيحية، أحد أنواع اضطراب التفكير المرضي، وهو "متلازمة النعامة الطفيلية". تُجرد هذه المتلازمة الناس من قدرتهم على التمييز بين الحقيقة والزيف، فتجعلهم ينكرون الحقائق الجلية. بل إنهم يلجؤون إلى خداع أنفسهم من خلال مجموعة من الإستراتيجيات التي تجعلهم يَحتمون من الواقع ويصرّون على مواقفهم. ونتيجة لذلك، يصبحون مثل "المتفرج الخامل" العاجز عن التفكير بموضوعية.
ويُلِحّ، في هذا السياق، على أهمية التخلي عن هذا السلوك، ولا يعني ذلك أن يتجاوز المرء حدود التهذيب، ولكن المقصود أن يتحدى كل ما يقترحه الآخرون عليه من أشياء تبدو خاطئة له.
ولعل من أبرز ما يميز المنهج الذي تبناه جاد سعد في كتابه إدراكه الخاص بعدم إمكانية تعميمه على قضايا مجتمعية أخرى مهمة؛ لذا يعلّق على مجموعة من الانتقادات التي توجه له بشكل خاص لتصديه لعقليات "المُحاربين" من أجل القضايا ذات النزعة الإنسانية، بالإشارة إلى ما يواجه نوعًا مُحدّدًا من فيروسات العقل وطفيلياته؛ "لذلك لن يكون بوسعه التصدي لكافة القضايا الراهنة بالقدر نفسه من الحماس والاندفاع".

علم الحياة الكمومي

تأليف: فياض محمد شريف
الناشر: هنداوي، 2023م

لا يتوجه كتاب "علم الحياة الكمومي"، وفقًا لمؤلفه الأكاديمي العراقي فياض محمد شريف، إلى الباحثين والطلاب في كليات العلوم والكليات الطبية والهندسية فقط، لكنه يخاطب كذلك عامة القراء "الذين يتوقون إلى معرفة كيف تتشكل الأشياء من الفوضى، وماذا تعني الحياة، وكيف نشأت الأرض، وكيف تعمل الظواهر الحياتية، وكيف يتكون الوعي الذي نعرف به كل ذلك".
يدرُس "علم الحياة الكمومي"، كما في كلمة الناشر، الظواهر الحيوية مثل التمثيل الضوئي في النباتات، والرؤية عند الحيوان وشعور بعضها مع الطيور بالمجال المغناطيسي للأرض، كما أن له عديدًا من التطبيقات المستقبلية المتوقعة في مجال الطب وتحسين حياة البشر.
في مقدمة كتابه، يؤكد المؤلف أن تطور علوم الحياة، التي تدرس الكائنات الحية في تفاعلاتها المستمرة مع المواد غير الحية، ارتبط ارتباطًا وثيقًا بتطور مجموعة من العلوم الطبيعية مثل الفيزياء والكيمياء وعلم الأرض، بالإضافة إلى الرياضيات التي وفرت الوسائل لضبط القياس وصارت اللغة الدقيقة للعلوم من خلال قدرتها على التعبير التجريدي للعلاقة بين المتغيرات.
ينقسم الكتاب إلى ستة عشر فصلًا تناقش كافة المفاهيم المرتبطة بعلم الحياة الكمومي، الذي يُعنى بالمستوى الذري ودون الذري في المواد، تبدأ بمدخل شامل عن عمل الطبيعة وكيف تنتظم جميع الأشياء في الكون في منظومات متصاعدة التعقيد، مختلفة لكنها مترابطة في الوقت نفسه. ثم يناقش الكتاب نشأة هذا العلم الجديد نسبيًّا، ودوره في تعميق فهم الظواهر البيولوجية، وإبراز الخصوصية المميزة للكائنات الحية وعلاقته بالعلوم الأخرى، وكيف أنه يقدم نموذجًا مختلفًا من شأنه المساهمة في فهم تقنيات البحث العلمي وتطويرها في علوم الحياة وفي الفيزياء والكيمياء وغيرها من الميادين العلمية شديدة التخصص.
وفي إطار سعيه للتعريف بعلم الحياة الكمومي، يوضح الكاتب عبر استخدام لغة موجزة وسلسة أساسيات علم الحياة بمعناه الأشمل، وتتضمن تركيب المادة والعناصر الطبيعية والتفاعلات الكيميائية وتركيب الخلية وانقسامها وتكاثرها من خلال فهم آليات عمل الحمض النووي الريبوزي منقوص الأكسجين (DNA) الذي يحتوي على المعلومات الوراثية داخل خلايا جسم الإنسان. كما يستعرض دور ميكانيكا الكم، التي تدرس المواد وهي في حالتها الجسيمية أو الذرية أو الجزيئية، وهي الحالات التي لا يمكن تحسسها كما نفعل مع الأجسام الكبيرة في الفيزياء التقليدية، فيبيّن أن لميكانيكا الكم دورًا في نشوء الطفرات في جزيئات هذا الحمض. ويناقش أيضًا مسألة الوعي في الإنسان والكائنات الحية، ويشير في هذا الصدد إلى أن "بذرة" الوعي نبعَت من الذرة، وكبرَت عبر الجُزيئات وتعقدَت وتنوعَت مع الأحياء البدائية، لتتطور بتصاعُد في الأحياء المعقدة وصولًا إلى الحيوان، وبلغَت قمتها في الإنسان حيث نتجَت عنها أنماطٌ غاية في التعقيد.
كما يشرح الكتاب مسألة نشوء الحياة على الأرض وكيف طوَّرَت الأحياء على مدى ملايين السنين جُزيئات وتراكيبَ جزيئيةً معقدة، تتمكن من استغلال الطاقة بكافة مستوياتها، وكذلك المواد وتحويلها لتحقيق أقصى استفادة منها عبر عمليات فيزيائية كيميائية شديدة التنوع.

الثقافة.. قصتنا من فن الكهف إلى موسيقى البوب الكورية

Culture: The Story of Us, From Cave Art to K-Pop by Martin Puchner

تأليف: مارتن بوشنر

الناشر: 2023م، W. W. Norton & Company

في هذا الكتاب يأخذنا أستاذ الأدب المقارن في جامعة هارفارد الأمريكية، مارتن بوشنر، في جولة سريعة عبر لحظات محورية من تاريخ العالم، ويضع مقدمة شاملة للفنون والعلوم الإنسانية من خلال التركيز على المنتجات والممارسات الثقافية التي تشكل تراثنا البشري المشترك. فيقول إن الهدف من الكتاب تحديد معنى لمجال تخصصه العلمي نفسه، وهو العلوم الإنسانية، الذي يفهمه على أنه ارتباط بالماضي الثقافي "بغرض إعادة تعريف الحاضر". وفي كل فصل من الفصول الخمسة عشر، يبحث بوشنر في الطرق التي أعادت بها الثقافات تعريف نفسها، غالبًا من خلال التلاقح المتبادل. فعلى مدار آلاف السنين، سعت البشرية إلى فهم "المعرفة" بأمور الحياة وتوريثها، وأيضًا معرفة أسباب وجودنا على الأرض والغرض منه ومعانيه كما يُعبَّر عنه في الفن والهندسة المعمارية والفلسفة. فمن رسومات الكهوف القديمة وألغاز الملكة نفرتيتي إلى مسرحيات الكاتب النيجيري وولي سوينكا، ومن مسارح اليونان القديمة إلى أدب الرحلات الصينية والمكتبات العربية والأزتكية، ومن تمثال صغير في جنوب آسيا عُثر عليه في مدينة مومباي إلى كبسولة زمنية تُركت على سطح القمر، ومن موسيقى البوب الكورية إلى تطبيق تيك توك؛ يروي بوشنر قصة الإنجازات البشرية من خلال خسائرنا الجماعية وإعادة الاكتشافات التي قمنا بها، وألعاب القوة والرحلات البطولية، والابتكارات، والتقاليد، والموروثات الثقافية. فيقول إن الثقافة هي أكثر من مجرد عمل تاريخي؛ إذ هي أرشيف لأهم المراحل الإنسانية ودليل لمستقبل البشر ككائنات مبدعة. كما أن التاريخ البشري ليس تاريخًا من القواعد والتسلسلات الهرمية المحددة بدقة التي تحترم الحدود الجغرافية.

ومن ناحية أخرى، كتب بوشنر في مقدمة كتابه: "في مناقشاتنا حول الأصالة والنزاهة والاستملاك والاختلاط، نسى أحيانًا أن الثقافة ليست مسألة ملكية"، مشبهًا إنتاج المعرفة بـ"مشروع إعادة التدوير الضخم الذي يتم فيه استرجاع أجزاء صغيرة من الماضي لتوليد طرق جديدة ومدهشة لصنع المعنى". ومن هذا المنطلق يشبه الثقافة بلعبة الهاتف الممتدة على مدى قرون، حيث يتردد صدى الأفكار عبر الزمن، وتنتشر عبر القارات. ومن ثَمَّ، يصف القلق المحيط باستيراد أو تبني التأثيرات الثقافية الأجنبية بأنه "في غير محله". فيقول إن الجهود المبذولة لبناء جدران حول أي ثقافة لإبقائها نقية أو أصيلة تسيء فهم ما يبقي الثقافات حيوية حقًا. ومن هنا، قارن الكاتب انفتاح الخليفة العباسي المأمون الذي سعى إلى جمع المعرفة من كل مكان، وسمح لها بالتفاعل فيما بينها، مع عزلة البيزنطيين، فكتب بوشنر يقول إن: "التحول إلى الداخل وإغلاق الإمكانات الفكرية يصاحب الانحدار ويعجل به".

الرواية: من يحتاجها؟

The Novel, Who Needs It? by Joseph Epstein

تأليف: جوزيف إبشتاين

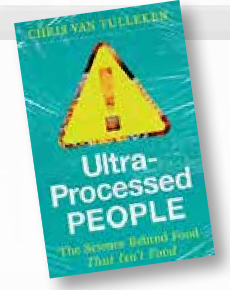
الناشر: 2023م، Encounter Books

يناقش الكاتب الأمريكي جوزيف إبشتاين في هذا الكتاب أهمية أدب الخيال، وتحديدًا الرواية، التي تهتم بوصف السلوك البشري من بين جميع المساعي الفكرية الأخرى. وهو يرى أن قراءة الروايات "الجادة" تحفز الذهن بطريقة لا يمكن أن تفعلها أي كتابة أخرى، فتجعلنا نعيش تجربة عقول أخرى، غالبًا من خلال لقاءاتنا مع شخصياتها. يقول إبشتاين: "ما تفعله الرواية بشكل أفضل من أي شكل آخر هو السماح لقرّائها بالتحقيق، في الباطن أو السر، في حياة شخصياتها". وهذه القدرة تجعلها أداة قوية لتحسين الذات؛ لأنها "توسع آفاق الفرد من خلال اطلاعه على ثراء التجربة البشرية".

ومن جهة أخرى، تحلّق الروايات "الجادة" فوق مستوى الأفكار لصالح تبنِّي حقائق القلب، وتتمحور حول الصراع الأخلاقي، فيما تطرح ضمنيًا الأسئلة الصحيحة، حتى لو لم توفر إجابات كاملة أو مرضية تمامًا. فتعتبر هذه الروايات الطبيعة البشرية أنها اللغز الأعظم، وتهدف إلى إيجاد الروابط بين عناصرها المتناثرة، وتستلزم في روحها التشكيك في الكثير مما يعتبره الآخرون حقائق ثابتة. ومن هنا يقول إبشتاين إن "الرواية هي الأقدر على استيعاب فوضى التفاصيل التي تقدمها الحياة". ولأنها كذلك، نجد أن العديد من الفلاسفة وعلماء الاجتماع والفقهاء وغيرهم من المفكرين المهمين، قد كرسوا وقتًا كبيرًا لقراءة الروايات الخيالية، ومن بينهم أوليفر ويندل هولمز جونيور، ومايكل أوكشوت، وإدوارد شيلز، وكليفورد غيرتز.

إضافة إلى ذلك، يلاحظ إبشتاين كيف نقرأ الروايات بشكل مختلف عن أي شيء آخر، ويوضح كيف تعمل الذاكرة بطريقة مختلفة عند قراءة الأعمال الروائية عنها في الأعمال الأخرى. كما يشير إلى أنه من الأفضل قراءة بعض الروايات في أعمار معينة، وإلى أن الروايات مثل الأفلام قد يكون من الأفضل لها أن تحمل تصنيفات معينة، بحيث يكون من المفضل قراءة روايات معينة مثلًا في موعد لا يتجاوز أوائل العشرينيات من العمر، والبعض الآخر لا يُقرأ قبل سن الأربعين.

يشير الكتاب إلى العناصر الموجودة في الثقافة الحالية التي تحارب إنتاج الروايات "الجادة"، من أبرزها ظهور القراءة على الإنترنت، والتوسع في برامج الكتابة الإبداعية. أمَّا بالنسبة إلى العنوان، الذي يسأل فيه إبشتاين: "الرواية، من يحتاجها؟" فهو يجيب، وببساطة، بأننا جميعًا بحاجة إليها.



الأشخاص فائقو المعالجة.. العلم وراء الغذاء الذي ليس طعامًا

Ultra-Processed People: The Science Behind Food That Isn't Food by Chris van Tulleken

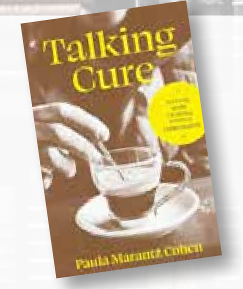
تأليف: كريس فان تولكين

الناشر: 2023م، W. W. Norton & Company

نعيش اليوم في عصر جديد من حيث نوعية الطعام، فلأول مرة في تاريخ البشرية أصبحت معظم السعرات الحرارية التي نتناولها مستمدة من مجموعة جديدة تمامًا من الأطعمة التي تسمَّى "الأطعمة فائقة المعالجة". وهناك تعريف علمي رسمي معقد لهذه الأطعمة، ولكن، بحسب مؤلف هذا الكتاب طبيب الأمراض المعدية، كريس فان تولكين، يمكن تلخيصه كالتالي: إذا كان المنتج الغذائي مغلفًا بالبلاستيك ويحتوي على مكوِّن واحد في الأقل لن تجده في مطبخك، فهو طعام فائق المعالجة. تُصمَّم هذه المنتجات خصوصًا لتكون بمنزلة مواد مسببة للإدمان، مما يؤدي إلى زيادة استهلاكها، وقد أصبحت اليوم المسبب الرئيس للوفاة المبكرة على الصعيد العالمي والمسبب الأول للدمار البيئي. ومع ذلك، فإن جميع أغذيتنا الأساسية تقريبًا تُعالج بإفراط، فالأطعمة فائقة المعالجة هي التي تهيمن على الثقافة الغذائية السائدة في العالم، وهي بالنسبة إلى كثير من الناس الغذاء الوحيد المتاح وبأسعار معقولة.

في هذا الكتاب، يقدم كريس فان تولكين الدلائل حول كيف سمحت الحكومات والعلماء والأطباء لشركات الأغذية بإحداث جائحة من الأمراض المرتبطة بالنظام الغذائي، ويدعو إلى ضرورة إيجاد الحلول لتجنب الأمراض التي تتسبب فيها. فيقول إن الحلول لا تكون في قوة الإرادة ولا المسؤولية الشخصية ولا ممارسة الرياضة، ولكن في القيام بخطوات جريئة على الصعيد العالمي للقضاء على هذا "الشر"، الذي يغزو العالم.

باختصار، أراد تولكين أن يلفت الانتباه إلى أنه على الرغم من أن هناك الكثير مما يدعو إلى الابتهاج بشأن كون المواد الغذائية رخيصة ومتوفرة بكثرة في عصرنا الحديث، في حين أنها لم تكن كذلك في معظم تاريخ البشرية، فإن الرخص والوفرة يأتيان بتكلفة عالية. ويخلص إلى تقديم حلول حقيقية للأطباء وصانعي السياسات ولشركات الأغذية على صعيد العالم لتغيير المشهد الغذائي العالمي بشكل جذري.



العلاج بالحديث.. مقال عن القوة الحضارية للمحادثة

Talking Cure: An Essay on the Civilizing Power of Conversation by Paula Marantz Cohen

تأليف: بولا مارانتز كوهين
الناشر: Princeton University Press ،2023م

في هذا الكتاب، تستكشف أستاذة اللغة الإنجليزية في جامعة دريكسيل الأمريكية، بولا كوهين، أهمية فن المحادثة الجيدة، لتؤكد كيف أن المحادثة تربطنا بطرق لا تستطيع وسائل التواصل الاجتماعي أن تفعلها أبدًا. كما تشرح السبب الذي يجعل من مجرد التحدث بعضنا إلى بعض بحرية وبنيَّات حسنة علاجًا لما تعانيه مجتمعاتنا الحديثة المضطربة.

وفي الواقع، فإن عنوان الكتاب مستمد من مصطلح كانت قد صاغته مريضة سيغموند فرويد الشهيرة، آنا أو (اسمها الحقيقي: بيرثا بابنهايم)، واستخدمته للإشارة إلى عادتها في تأليف القصص والروايات الخيالية لتهدئة أعراض الهستيريا لديها. وبالطبع، كان فرويد من أوائل من دعوا إلى عدم التقليل من أهمية استخدام المحادثة في العلاج النفسي.

وبالاعتماد على انغماسها المستمر في الأدب والثقافة وعقود خبرتها كمدرسة وناقدة، تجادل كوهين بأننا في البداية نتعلم التحدث ضمن عائلاتنا، ثم ننقل تلك المعرفة إلى عالم أوسع حيث نواجه آراء وحساسيات متنوعة. وتناقش المؤلفة دور الطعام في تشجيع المحادثة، وتحديات كتابة الحوارات في الروايات الخيالية، وإيجابيات وسلبيات المحادثات من خلال تطبيق زووم، وعلاقة المحادثة بفن "الفودفيل"، والقيمة التعليمية للندوات الجامعية الجيدة حيث يتعلم الطلاب التعبير عن أفكارهم. كما تلقي نظرة على مجموعة من أشهر الكتَّاب والفنانين في التاريخ الذين أسهمت محادثاتهم في تغذية نتاجهم الإبداعي، مثل محادثات الفيلسوف الوجودي الفرنسي جان بول سارتر، والكاتبة والمفكرة الفرنسية سيمون دي بوفوار، والشاعرين الأمريكيين إليزابيث بيشوب وروبرت لويل، والفيلسوفة والمنظرة السياسية الألمانية هانا آرندت، والفيلسوف الألماني مارتن هايدغر.

فالمحادثة الجيدة تمزج بين الآراء والمشاعر والحقائق والأفكار في تبادل ارتجالي مع شخص أو أكثر، في جو من الاحترام المتبادل، فتكون ملهمة للبصيرة ومدعاة للسعادة. كما أنها طريقة لتهدئة العقل، وفتح القلب، والتواصل بشكل حقيقي مع الآخرين. التحدث بشكل جيد، بحسب كوهين، هو أمر مثير للدهشة وإنساني وممتع في آنٍ واحد.

مقارنة بين كتابين

لإعادة تقويم علاقتنا بالمياه

(1) العصور الثلاثة للمياه.. عصور ما قبل التاريخ، وحاضر متعثر، وأمل للمستقبل

The Three Ages of Water: Prehistoric Past, Imperiled Present, and a Hope for the Future by Peter Gleick

تأليف: بيتر غليك
ترجمة: مات باغالي
الناشر: PublicAffairs ،2023م

(2) الآلة الزرقاء.. كيف يشكل المحيط عالمنا؟

Blue Machine: How the Ocean Shapes Our World by Helen Czerski

تأليف: هيلين تشيرسكي
الناشر: Penguin Audio ،2023م



تتعامل البشرية اليوم بطرق كارثية مع إدارتها للمياه. ففي أنحاء عديدة من العالم تُستخرج المياه العذبة بأساليب غير مستدامة، كما أن المحيطات ملوثة بدرجة عالية والصيد الجائر للأسماك يجري في كل مكان بوتيرة لم يسبق لها مثيل. وعبر الكوكب، قد يؤدي تغير المناخ من صنع الإنسان إلى تغيّرات جذرية في الدورة الهيدرولوجية التي تؤثر في أنماط هطول الأمطار، وإلى حدوث فيضانات مدمرة وحالات جفاف شديدة على الأرض، وكذلك موجات حر تزيد من شدة العواصف وتغيّر شبكة الغذاء العالمي بشكل جذري. أمَّا السؤال فهو: ما الذي يجب فعله حيال كل ذلك؟

يسعى كتابان صدرا مؤخرًا في المساعدة على ضبط علاقتنا بالمياه. ففي كتاب "العصور الثلاثة للمياه"، يقدم عالم البيئة، بيتر غليك، رؤية متفائلة للمستقبل شرط أن تُظهر البشرية وعيًا كافيًا وتتخذ الخطوات الصحيحة بدءًا من الآن. أمَّا عالمة الفيزياء، هيلين تشيرسكي، في كتابها "الآلة الزرقاء"، فتهدف إلى توسيع فهمنا لطبيعة المحيطات التي هي "القلب النابض لهذا الكوكب".

بالنسبة إلى غليك، يمتد "العصر الأول" للمياه من بداية الكون إلى نهاية القرون الوسطى، حيث استخدمت البشرية ببساطة ما كان متوفرًا أمامها من المياه السطحية ومن مياه الأمطار. في حين يعتبر "العصر الثاني"، الذي يشمل عصرنا الحالي، ذلك الذي بدأ مع تعلم المجتمعات كيفية إدارة المياه واستغلالها من خلال إنشاء بنى تحتية مثل قنوات المياه والسدود وأنظمة الصرف الصحي. ولكن، كما يقول غليك، مع وصول عدد سكان العالم إلى ما يزيد على 8 مليارات نسمة، ومع وجود كميات محدودة من المياه العذبة، لم تعد هذه المشاريع تفي بالغرض.

أمَّا "العصر الثالث"، بحسب غليك، فهو العصر المستقبلي الذي سيكون إمَّا عصر "الانهيار البيئي والمجاعة والمرض وعدم الاستقرار السياسي"، أو عصرًا "تسوده سياسات حديثة لإدارة الطاقة والمياه يمكنها أن تقلل من انبعاثات الغازات التي تؤدي إلى تغير المناخ مع جعل أنظمة المياه لدينا أكثر مرونة تجاه تأثيرات تغير المناخ التي لم يعد بإمكاننا تجنبها".

تحدد العصور الثلاثة للمياه مستقبلًا يدرك فيه الناس بشكل متزايد أن الهندسة "المعقدة" للعصر الثاني لم تعد كافية، وأن هناك ضرورة لكي يقوم الاقتصاديون على مستوى العالم بعمليات منهجية لتحليل التكلفة والفوائد التي تشمل خسارة مياه الأنهار، ووجود المجتمعات المضطربة وغير المستقرة، والفيضانات، وتكاليف اعتلال صحة الإنسان من التلوث والأوبئة، وفقدان الحياة البرية، والاستخدام المفيد للنظم البيئية الطبيعية.

من جهة أخرى، يدعونا كتاب تشيرسكي "الآلة الزرقاء" إلى فهم طبيعة المحيطات وكيفية تغيرها، لا سيما في الوقت الحالي مع وجود أزمة المياه العالمية التي تلوح في الأفق، كما أنه يعتبر مكملًا لعمل "غليك" في فهمه للجزء الأكبر من مشكلة المياه العالمية.

تقول تشيرسكي إن المياه الموجودة على سطح الأرض وداخلها لا تمثل سوى 2.5% فقط من إجمالي المياه على كوكب الأرض، أمَّا الباقي فهو موجود في المحيطات. وبالتالي، فإن مستقبل المياه على الأرض مرتبط بهذا النظام الأكبر للمحيطات. وبحسب الكاتبة، فإن كلمة "آلة" في عنوان الكتاب يجب أن تؤخذ حرفيًا؛ وذلك لأن "الآلة أو المحرك هو شيء يحول أشكالًا أخرى من الطاقة (عادةً الحرارة) إلى حركة". وهذا بالضبط ما يحدث في البحار طوال الوقت، حيث يكون النمط السائد هو التحويل الكلي للطاقة من خط الاستواء إلى القطبين الشمالي والجنوبي، بحيث يمتص المحيط أشعة الشمس ويحولها إلى تيارات وشلالات عملاقة تحت الماء، وينقل من خلالها المغذيات والأكسجين والمعادن مثل البوتاسيوم والحديد، ويسهم في تشكيل السواحل وينقل الحرارة.

وبحسب تشيرسكي لا يزال الكثير غير معروف عن الحياة داخل المحيطات، ولكنها تدحض الادعاء الشائع بأن ما نعرفه عن المحيطات العميقة أقل جدًا مما نعرفه عن سطح القمر؛ لأننا، كما كتبت، نعرف قدرًا كبيرًا عن أعماق المحيطات، ولكن نظرًا لغناها وضخامتها وحركتها الدائمة فنحن لم نصل بعد إلا إلى سطح ما يمكن معرفته عنها. غير أنها تضيف أن المعرفة وحدها ليست كافية، فهناك أهمية كبرى للاتصال بهذه المساحات المائية الهائلة وخوض أعماقها لاستكشافها بشكل أفضل. في النهاية، هناك خيار بسيط: "علينا أن نختار كيفية الاتصال بالآلة الزرقاء ومقداره، لأن الشيء الوحيد الذي لا يمكننا فعله هو تجاهلها. يمكن للمحيطات أن تعانقنا، ويمكنها أن تحطمنا. يمكننا العمل معها أو ضدها".

المحور التفاعلي بين القارئ والكتاب

أتصور أن العلاقة بين الشخصيات الروائية والمكتبات المتخيلة في الرواية، تحفزنا إلى خيال أكثر صخبًا في العلاقة بين القارئ والشخصيات، أو بين القارئ ومكتبته المنزلية.

عندما قرأت المادة المنشورة في مجلة القافلة لعدد مايو - يونيو 2023م، تحت عنوان "مكتبات الشخصيات الروائية.. تتبدل النظرة إليها بتبدل الأبطال"، تبادر إلى ذهني عندئذٍ هذا السؤال: هل ينعكس تأثير القراءة في القارئ؟ وهل يعبر مفهوم المكتبة المنزلية عن شخصية مالكها؟

من الصعوبة بمكان أن تكون الإجابة قطعية حول التساؤل الثاني، أقصد المكتبة، في حين أستطيع أن أجزم بأن تأثير القراءة في القارئ واضح وجلي، سواء أكان تأثيرًا فوريًا أم تأثيرًا بعيد المدى. على كل حال، تتفاوت ردة الفعل من القراءة بين قارئ وآخر بوجه عام، فضلًا عن الدور الكبير الذي يؤديه احترام القارئ للكتب وللكاتب في تشكيل المفاهيم العامة ممّا يقرؤه، وكذلك نظرة القارئ وبيئته الثقافية تؤثران في تفاعله مع الشخصيات الروائية.

وعن تجربة شخصية، فقد كانت بداياتي داخل أروقة دار الكتب الوطنية في شارع الخزان بمدينة الرياض، حيث كنت أرافق أخي إلى هناك. في البداية كان أمين المكتبة يرفض دخولي؛ لأن المكتبة كانت مخصصة للكبار فقط، وكان يوجهني إلى مكتبة الأطفال في الطابق الأرضي. ولكن أخي ألحّ عليه، فسمح لي أخيرًا بالدخول، وفتح لي باب جنة الدنيا على مصراعيه.

كانت بداياتي في القراءة مع روايات عنترة بن شداد وحمزة البهلوان وسيف بن ذي يزن، وأتذكر جيدًا أنني كنت أنتظر أخي الأكبر ليشتري مجلدًا جديدًا فيعيرني إياه بعد أن ينتهي من قراءته. كنت عندما آخذ مثل هذه الكتب أقرؤها بمنتهى الشغف والنهم، وكأنما هي وجبة لذيذة لا تتحقق لك إلا لمامًا.

في رواية عنترة، يوجد بطل صغير يُدعى ربيعة بن مكدم. وبعيدًا عن المبالغة في الرواية، إلا أن تعاطفنا معه بلغ أقصاه، ولا سيما عندما غدر به الأشرار وقتلوه. كان التأثير بالغًا لدرجة أن أحد إخوتي بكى بمرارة بعد أن قرأ نهايته المفجعة.

لا تخرج روايات "إلكسندر دوماس" و"ميشال زيفاكو" عن نمط عنترة وأصحابه من حيث الشجاعة والرومانسية ومثالية شخصيات الروايات، طبعًا مع فارق الزمان والمكان واختلاف الأسلوب.

لكن واقعية نجيب محفوظ شيء آخر، فهو مرآة الشعب المصري، فقد عبّر عن طبقاته الثلاث أفضل تعبير، وجعلنا نحن القراء نتفاعل مع شخصياته الروائية ونعشقها ونتفاعل معها ونسعد لفرحها ونبكي لحزنها.

في العقود الأخيرة، طغت الروايات الأجنبية على المكتبات، لكن الروايات العظيمة الكلاسيكية القديمة منها أثّرت كثيرًا في وجداننا، فقد لخصت "ذهب مع الريح" لمرغريت ميتشل بجدارة الحرب الأهلية الأمريكية من خلال شخصياتها المميزة مثل "سكارليت" و"ريت بتلر".

لا ننسى تحفة فيكتور هيجو "البؤساء"، التي كانت محور الثورة الفرنسية ومأساة "مادلين" وتضحيات "جان فالجان". وكذلك "آنا كارنينا" و"الحرب والسلام" لليو تولستوي، و"آمال عظيمة" لتشارلز ديكنز، و"جين أير" لشارلوت برونتي، و"وداعًا أيها السلاح" لإرنست هيمنغواي، ومجموعة دوستويفسكي.

في يقيني أن هذه الروائع ستشكل شخصية قارئها. ومع أن هذا يبدو مبالغًا فيه، فإن القارئ النهم لا بد أن "يتلاقح" مع الرواية ويعيش مع أبطالها، ويتفاعل معهم، وإلا فلا يمكن أن نصنفه قارئًا.

بالطبع، هناك هواة الاستعراض والمباهاة الذين قد يملكون مكتبات آية في الفخامة، لكنهم لا يعرفون حقيقة محتواها، ومثلهم من يحفظ العناوين كي يستعرض بها في ليالي الترف. لكن المكتبات من وجهة نظر عاشقها هدية، تمنحنا وقودًا نستمد منه آمالنا وتطلعاتنا، ونثري من خلالها خيالنا.

أحمد الحناكي



التربية بالكلمات الراقصة

يقول أبو العلاء المعري في واحدة من قراءاته لمستقبل الطفولة:

لا تَزدَرُنَّ صِغـارًا في ملاعبِـهِم
فجائـزٌ أن يُـرَوا سـاداتِ أقـوامِ
وأكرِموا الطِّفلَ عن نُكرٍ يُقالُ له
فإن يَعِـشْ يُدعَ كَهلًا بعـدَ أعـوامِ

المعري وهو الذي لم يُنجبْ أطفالًا؛ لأنَّه امتنع عن الزواج طوال عمره، يؤكد من خلال خبرة معرفية أهمية التربية في البناء النفسي للأطفال، ويحذِّر من سلوكين في التعامل معهم، الأول ازدراؤهم وتحقير لهوهم بعدم اللعب معهم، والثاني التلفُّظ عليهم بألفاظ منكرة. ولهذا التحذير أسبابه، لما لذلك من أثر كبير في أن يعرقل مسيرتهم في الوصول إلى مراكز قيادية. حين "يشبُّ عَمرو عن الطَّوق"، فلا بدَّ لنا من ألَّا نُعكِّرَ نقاء الطفولة بنفوسنا المصابة بأمراض الزمن. لذلك فإن علماء التربية يعدُّون التهميش والقبح اللفظي من أكبر مدمِّرات الطفل، وأن مشاركتهم في الألعاب وتعويدهم الألفاظ المهذَّبة والعبارات المحبَّبة يحافظ على فطرتهم وبراءتهم.

ينقل لنا صاحب "العقد الفريد" ترقيصة طريفة لأحد الأعراب، وهو يدلِّل ابنته، فيقول:

كَريمَةٌ يُحبُّها أبُوها
مَليحةَ العَينَينِ، عَذبًا فُوها
لا تُحسِنُ السَّبَّ، وإن سَبُّوها

هذه أوصاف خرجت عن المألوف العربي، إذ الاحتفاء بالبنت قليل ونادر، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ النحل: 58.

عمد هذا الأعرابي إلى ملاعبة هذه الأنثى والابتهاج بها خلافًا للسائد، فهناك مقطوعات تثير الكراهية إزاء البنت بأوصاف تنمُّ عن حالة تطرف في الغيرة والشعور بالعار، كأن يقول أحدهم: "سمَّيتها إذ وُلِدتْ تموتُ"، أو يقول آخر: "أحبُّ أصهاري إليَّ القبرُ".

يُعدّ شعر الترقيص شعرًا موجَّهًا للأطفال في مرحلة عمرية مبكرة جدًّا، ممَّا يعني أن العرب خصَّصوا قطعًا شعريَّة للأطفال في معانٍ محدَّدة، وبلغةٍ مُنقادة، فلم يكن شعر الطفولة طارئًا علينا في العصر الحديث. والأمثلة من هذا النوع تكاد تشكِّل ديوانًا كبيرًا لو تتبَّعناها عند الأوائل في كتب الأدب والأخبار وكتب النحو والمعاجم، فهناك كتاب "الترقيص" لمحمد بن المعلَّى الأزدي في القرن الرابع الهجري، الذي جمَّع فيه أغاني المهد، ونقلت شيئًا منه كتب الأدب والأخبار، إلَّا أن الكتاب نفسه مفقود. وعلى كلٍّ، فإن هذه الشواهد مؤشرات إلى أن وجود التربية بالفن قديم في تراثنا العربي، فليست التنشئة قائمة فقط على العناية بالطعام واللباس والصحة، بل كانت هناك التفاتة مبكرة للعناية بالحس الجمالي لدى الطفل وتنمية قدراته الذوقية الأخرى.

المتأمل في القطعة السابقة سيلاحظ أنها تحتوي على كلمات قليلة، وتبدو بإيقاع يثير الانتباه ويحفز على الرقص (مُستَفعِلنْ). فالطفل قد لا يفهم معنى هذه الكلمات، ولكنه يتفاعل مع الصوت وحركة الإيقاع وملامح الوجه، من حيث تجتمع الإثارة السمعية والحركية والبصرية، فالصوت والإيقاع ركيزتان أساسيتان في إيصال متعة الطفل بالشعر في مراحله الأولى، وهذا ما يؤكده اليوم المشتغلون بأدب الطفل.

تقوم هذه القطعة القصيرة على مجموعة من الصفات الحسنة لهذه البنت:
فهي كريمة محبوبة، ومليحة العينين عذبة المقبَّل، إنها صفات جمال ودلال.

ثم يضيف صفة أخرى تختلف عن الباقي، ولكنها تتفق معها بأنها من الصفات الحسنة، وهي صفة في الطباع وحسن التعامل (لا تُحسِن السَّبَّ، وإن سبُّوها)، فهي لا تحسن السب، لأن الطفل بفطرته لا يقابل الألفاظ البذيئة بمثلها هكذا. والأطفال طيور موكَّلة بإشاعة البهجة والتغاريد العذبة ما داموا في منأى عمَّا يلوِّث فطرتهم. ومن جهة أخرى فإن كلمة "لا تُحسن" تُعرَف بلاغيًّا بـ"المُشاكَلة اللفظية"، فكأنَّ الجملة: تُحسن الكلام الجميل، ولا تُحسن السب.

اللافت في هذه القطعة أنها صدرت من الأب وليس من الأم. فمعظم شعر الترقيص، إذا لم يكن كله، يصدر عن الأمَّهات، فهنَّ سيِّدات هذا الفنّ، وهذا جانب يعكس رقَّة هذا الأعرابي مع الأنثى، وإحساسه العميق بالطفولة.

إن شعر الترقيص يرسِّخ القيم الفاضلة، فهو مليء بما يثير في الأطفال حسَّهم الجمالي والشعور بالمتعة النفسية فنراهم قادةَ المستقبل، وهو ليس شعر تسلية وإلهاء فقط، إنه عواطف أمومة وأبوَّة تبتهج، فتنسكب كلمات راقصة.

حسن الربيح

بداية كلام

قافلة المستقبل ومستقبل القافلة

مع هذا العدد الذي بين يديك، عزيزي القارئ، تكون "القافلة" قد أكملت سبعين عامًا، ظلّت خلالها فاعلًا ثقافيًا وديوانًا يرصد تاريخ الثقافة في المملكة والعالم.
في رحلة عمرها، المديد بإذن الله، لم تسأم "القافلة" العيش بل ظلّت تُعنى بشبابها ونضارتها، وتتوسع في رسالتها لتشمل قرّاء العربية من المحيط إلى الخليج، مع حرصها على تجديد موضوعاتها وطرق معالجتها وأساليب وصولها إلى الجمهور.
وبعد خمس سنوات تكون القافلة قد وصلت إلى يوبيلها الماسي، الذي ترجو أن تحتفي به مع قرّائها، بمشيئة الله، وهم وهي في خير وعافية وسرور. وبهذه المناسبة، فقد توجّهت "القافلة" إلى أربعة من المتخصصين في مجالات معرفية مختلفة بأسئلة حول ما يحلمون به لـ"القافلة" وما يتوقعونه منها، وشكل الواقع العلمي والثقافي المحيط بها عام 2028م.



رائدة السبع
إعلامية وصانعة محتوى

سألناها عن أحلامها وتوقعاتها لما يمكن أن تقدمه القافلة في المستقبل لجمهورها والجيل الجديد من القرّاء، فكانت لديها عدة اقتراحات تجعل القافلة في كل بيت، ليستمر عطاء المجلة.

كتاب وتطبيق عصري وجائزة

"كتبوا لنقرأ، ونكتب ليقرؤوا". هذا ما اختاره الأستاذ عبدالله الغامدي شعارًا للمرحلة التي نهض فيها بمسؤولية رئاسة تحرير القافلة، كما جاء في العدد الذهبي الذي احتفى بمناسبة مرور 50 عامًا على صدور القافلة. لكنني سأستعيره أيضًا للمرحلة المقبلة من عمر المجلة.

وبعد 20 عامًا من يوبيلها الذهبي، أعتقد أن القافلة لا تزال تمتاز بالبهاء والرصانة، وتحتفظ برونقها ومكانتها البارزة بين المجلات العربية، وتمثّل صوتًا معبّرًا عن الثقافة السعودية في شتى المجالات. وفي ركن ما من فضاء الخيال، تخيّلتها ماثلة أمامي لأطرح عليها بعض الأسئلة.

بادرتُها بالتحية والإجلال، وسألتها: لا تزالين أنيقة وبديعة ورصينة ورشيقة وخلاقة، فما هو سرك؟ وكيف استطعتِ أن تحافظي على بهائك ورونقك بعد 70 عامًا؟ أوضحت أن إدارة المجلة قطعت في أول إصدار وعدًا مفاده أن تقدم لقرائها كلّ مفيد ممتع، وأن يكون هذا المشروع كبير الفائدة عظيم الأثر في نشر المعرفة والعلم. وكأنني سمعتها أيضًا بصوتها الواضح على لسان الشركة الأم: "نحن لا نصدّر النفط فقط في هذه الشركة، بل الثقافة أيضًا".

صَمتُّ لحظةً، وفكرت أن أطرح عليها أسئلة خارج الصندوق. لمَ لا وهي التي كان ديدنها التطوير والتغيير دائمًا. سألتها بشجاعة: ألا تعتقدين أن الوقت قد حان لتحلّ القافلة ضيفًا خفيفًا لطيفًا على كل منزل في المملكة كما هي

الهواتف الذكية؟ أجابت: "ولمَ تعتقدين أن جميع المواطنين سيكونون مهتمين بكل ما يُنشر في القافلة؟".

قلتُ لها: لأنكِ قادرة على الإمتاع والتثقيف في آنٍ معًا، وهذا ما يبحث عنه الجميع، بالإضافة إلى الوثاقة التي تميزتِ بها. لقد عوّدتِنا تقديم ألوان رائعة من الثقافة، إلى جانب اهتمامكِ بالإنجازات العلمية، وهذا مدعاة للفخر لكل مواطن على هذه الأرض. وأزعم أنكِ قادرة على المواكبة والتجدد. ستخلقين جسورًا بينك وبين القارئ الجديد، وستتقمّصين روح ثقافة أرامكو السعودية الحريصة على التطوير؛ ليكون عمل اليوم أفضل مما عليه بالأمس، وعمل الغد أفضل مما هو عليه اليوم.

نظرت إليّ بارتياح، وبدا لي أنها تطلب المزيد من التوضيح. ظهر ذلك جليًّا في سؤالها: "هل لك أن تقترحي علي كيف لي أن أتسلل إلى الأجهزة الذكية وأنا بهذه الرصانة؟".

أجبتها بابتسامة ممزوجة بمشاعر دافئة: نحن في القرن الحادي والعشرين وعصر التكنولوجيا والسرعة والتنقّل الدائم. فماذا لو كانت مقالات القافلة مسموعة؟ ليستطيع الموظف والطالب ورجل الأعمال والمفكر بضغطة زر أن يصل إليها.

ماذا لو كان هناك تطبيق عصري للقافلة يستدرج الجيل الجديد إلى الثقافة والوعي؟ ماذا لو كانت هناك جائزة ربع سنوية لأفضل مقالة علمية أو ثقافية أو اجتماعية للطلاب على مستوى المملكة؟ لتُنشر مقالة الفائز في أحد أعداد المجلة تشجيعًا للطلاب على الاطلاع والتعلم.

ماذا لو جُمعت المقالات وصُنفت بحسب موضوعاتها العلمية والأدبية؟ لتصدر في كُتب تحت اسم "القافلة"، وتُوزَّع في معارض الكتب والمكتبات. ماذا لو واصلت القافلة وتوسّعت في نشر مواضيعها عبر البودكاست؟

لا تنتهي المقترحات، ولا ينتهي الحديث الشائق مع القافلة؛ وأخشى أن تشكّل مقترحاتي الكثيرة عبئًا إضافيًا. لكن متطلبات ثقافة هذا الجيل اختلفت، والساحة ممتلئة بالمنافسين، وقد تحول التركيز إلى الجوانب التقنية الحديثة، ويجب التكيّف ومواكبة عالم الثقافة الإلكترونية.

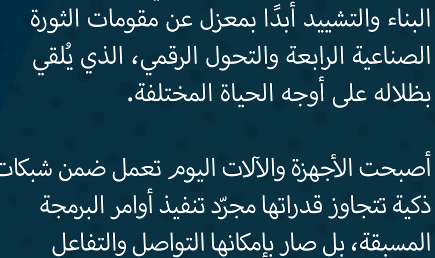
سألناه عن شكل البيت الجديد الذي يأمل أن يقرأ فيه "القافلة" عام 2028م، فتحدَّث عن آفاق الثورة الصناعية الرابعة وتقنيات المواد في مجال البناء.



علي القضيب
بروفيسور مشارك
وأخصائي تقنيات البناء

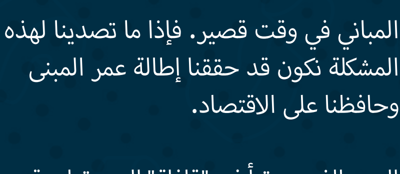
بيت ذكي ومريح!

حين تبلغ القافلة يوبيلها الماسي، لن تكون صناعة البناء والتشييد أبدًا بمعزل عن مقومات الثورة الصناعية الرابعة والتحول الرقمي، الذي يُلقي بظلاله على أوجه الحياة المختلفة.



أصبحت الأجهزة والآلات اليوم تعمل ضمن شبكات ذكية تتجاوز قدراتها مجرّد تنفيذ أوامر البرمجة المسبقة، بل صار بإمكانها التواصل والتفاعل بعضها مع بعض لتتكيّف وتصحّح ذاتها. والمتوقع أن تدخل تقنية إنترنت الأشياء واستخدامات الذكاء الاصطناعي في جميع مراحل البناء والتشييد، بداية بالتصميم من خلال البرامج المتطورة ومرورًا بمواد البناء وانتهاءً بطرق التنفيذ المختلفة وفقًا للنظم الإنشائية المخطط لها، بل ستؤثر حتى في صيانة المباني نفسها.

أضعف هذه الحلقات في الوقت الراهن هي مرحلة التنفيذ؛ إذ قد تغيب بعض المعايير والمواصفات، وقد تنخفض جودة العمل في أجواء الحر القاسية أو البرد القارس، فضلًا عن عدم ضمان وجود العامل المؤهل في الموقع. وهذه الحلقة هي التي تتسبب واقعًا في تدهور المباني في وقت قصير. فإذا ما تصدينا لهذه المشكلة نكون قد حققنا إطالة عمر المبنى وحافظنا على الاقتصاد.



البيت الذي سنقرأ فيه "قافلة" المستقبل، قد يتصدّى لهذه المشكلة بأتمتة التشييد، ومواكبة التحول الرقمي، وتحسين البصمة الكربونية، وتعزيز أداء المبنى في استهلاك الطاقة. وربما نقرأ في القافلة قريبًا عن حلول مهمة وإنجازات رائعة في هذا المضمار. هذه المنظومة المتشابكة يمكن أن تتجسد في بيت المستقبل، وأتوقع أن يتّجه البناء في السنوات الخمس القادمة إلى الوحدات مُسبقة الصنع (Modular).

حاليًا، هناك عدة أصناف لهذه الوحدات الجاهزة. فهناك الألواح الخرسانية المعزولة، التي يمكن أن تختلف في أسماكها وأبعادها بحسب التصميم. وهناك أيضًا الوحدات الخرسانية الخلوية خفيفة الوزن، والمصنوعة من مادة تحتوي على فراغات (فقاعات هواء). والنوع الثالث هو الخرسانة المعزولة التي تأتي في هيئة قوالب مصنوعة من ألواح البوليسترين المرن عالي الكثافة. أما النوع

الرابع، فعبارة عن الوحدات الخرسانية الجاهزة ثلاثية الأبعاد مسبقة الصنع التي تُجمع.

فهل تكتب القافلة قبل يوبيلها الماسي عن نجاح أحد هذه الأصناف في اكتساح صناعة البناء؟

مستقبلًا، ستُنقل جميع هذه الوحدات من خارج المدينة إلى الموقع، وقد تُستخدم الروبوتات في عملية التركيب والتحكم في الإحداثيات والمراقبة عن طريق الطائرات المسيرة، التي قد تُستخدم أيضًا في رش الخرسانة. وهذا سيوفر الجودة والسرعة، كما قد يحسن الاستدامة ويقلّل من التلوث البيئي داخل المدينة.

هناك أيضًا نقلة نوعية منتظرة في مواد البناء، حيث أُنتجت مادة إسمنتية عالية الجودة على هيئة سائلة، يمكن لتقنية الطباعة ثلاثية الأبعاد استخدامها في البناء على طراز الحيطان الحاملة.

ولن أنسى أن أذكر أن خرسانة المستقبل ستكون خرسانة خضراء، وقد تُحقن بثاني أكسيد الكربون المنبعث من مصانع الإسمنت، مما سيساعد على تقوية الخرسانة، ويُسهم في الحد من التهديد الناتج عن البصمة الكربونية.

في ذلك البيت المُستقبلي المبني بسواعد التقنية، هل نتصور رفًا تنتظم عليه أعداد مجلة القافلة، أم تغيب المطبوعات ويتراجع دورها في منازلنا؟

نجـــوى العتـــيبي
أكـــاديمية وروائيـــة

تحدّثنا مع صاحبة رواية "رف اليوم"، وهي رواية متشائمة عن مستقبل يمكن أن نشتري فيه الصديق والابن من رفوف السوبر ماركت، وسألناها عن رواية تتوقّع أن تصدر في عام احتفال القافلة بيوبيلها الماسي. فتنبأت بروايتين متشائمتين للمستقبل، من دون أن تغلق باب الأمل تمامًا!

المستقبل يُصنع الآن

إلى أي مدى يمكن تخيل كواليس المشهد الثقافي خلال خمس سنوات قادمة؟ لنضع خلفية مؤلمة من الجائحة والعزلة في الحسبان، لأنها وجَّهت النظر نحو روايتين مربكتين؛ تتعلّقان بانتهاء الموارد من ناحية، وانفجار التكنولوجيا على طاقات متعددة من ناحية أخرى. ويمكن القول إن كلتا الروايتين صارت واقعًا محسوسًا اليوم.

لو أمعنّا النظر بالعدسة التقنيّة المستقبلية، لأمكننا رؤية منصات ثقافية وإبداعية مشغّلة آليًّا. ستعمل تلك العقول اللامرئية مؤقتًا تحت إشراف بشري، ولن تلبث حتى تستقل بنفسها كما حدث في أكثر من تجربة! ستسيطر تلك العقول على الإعلام بلا رحمة، ومن ثم التواصل، وسيكون الفكاك منها مستحيلًا، حتى نستمع في مرحلة ما إلى إعلام يخص الآلات لا البشر.

كل المشاريع التي يجري العمل عليها ستتوقف، فبدلًا من تأليف كتاب عن موضوع ما في عام أو عامين أو ترجمته وخسارة الورق عليه، سيُكتب ويُترجَم في دقائق وسيُتاح مجانًا. وبدلًا من تحرير مقالات وصفّها وتدقيقها في أسبوع وأكثر، سينتهي الأمر في دقيقة وتُنشر بلا حقوق أو مصداقية. وسيُصرف النظر عن الأعمال الأصيلة بمنطق القوة. ستستبعد الآلاتُ الجهودَ البشرية لتبرز وحدها، وستوفّر بالدقيقة الواحدة ما يُراد الحصول عليه من معلومات وأعمال. سيُصاب العاملون في المجال بالذهول والإحباط، والمتلقي سيرتبك إلى ما لا نهاية. ستكون العودة إلى القافلة خيارًا ممتازًا، فباعتبار دعمها المؤسسي يمكنها ضمان الاستمرار والجودة، ومحاولة المقاومة للبقاء والمنافسة بقوة.

هذا من زاوية رواية واحدة! توجد رواية أخرى تتعلق بأزمات المناخ، إذ يدور لغط كبير حول تغيُّر الأرض أو اصطناع التغيير؛ وأيًّا كان السبب، فإنّ قلة الموارد نتيجة حتمية حينئذٍ، وستغيّر وجه الصناعات حتمًا؛ وسيؤدي ذلك إلى تقنين استعمال التكنولوجيا بسبب الانبعاثات التي يحتاج إليها التشغيل. سيُشدَّدُ على التجمعات وما تتطلّبها من سفر وتنقّل، وعلى الورق وصناعته وطباعته، وكذلك تداول المال نقدًا. سينقلب الدور ليتحوّل الإنسان العادي إلى متلقٍّ ومنتظر بعد أن كان صانعًا للخبر عبر المنصات والوسائط.. أمور كثيرة ستتغير بما يدمّر المجال الثقافي وأهله تمامًا.

مرة أخرى، لن يكون في وسع أحد إلا التراجع نحو الصحافة القديمة. والقافلة هنا ستكون خيارًا بارزًا لاعتبارات تتعلق بالدعم المؤسسي والجودة أيضًا.

أما لو سار الوضع على ما هو عليه، يتقدم ببطء، ويتشكّل بما يناسب المرحلة، يكتب المختصون، ويبدع الكُتّاب والموهوبون، يتلقّى القراء من مصادر الثقافة ما يميلون إليه،

ويشاركون بما يحبونه وما يتقنونه؛ فستكون القافلة أيضًا خيارًا ممتازًا.

وفي كل الاحتمالات التي قد تشكّلها روايةٌ ما؛ الأصالة ليست خيارًا مطروحًا على الرفّ، بل متوفرة دائمًا إن جرت رعايتها، وهذا ما حرصت القافلة على تقديمه منذ سبعين عامًا.

لم تقدّم القافلة نفسها إلا رافدًا ثقافيًّا حقيقيًّا بلا مقابِل ماديّ، وظلّت تستقطب الأقلام المميزة من النخب والموهوبين، وتفتح باب المشاركة لمن يرغب. تقدّم تحقيقات وملفّات عميقة تمسّ اللحظة، وفي الوقت نفسه تناسب المتلقي العادي ولا تستغني عنها النخب.

وأيًّا كانت الروايات التي يمكنها تشكيل المستقبل حقًّا؛ فسيكون محكّ البقاء دائمًا لمن عمل جاهدًا في الأمس القريب والبعيد واللحظة الراهنة. فجزء من المستقبل يتشكل في تلك اللحظات، وهذا ما عملت عليه القافلة.



علـــي سعيـــد
مؤلف ومخرج سينمائي

سألناه عن شكل السينما السعودية بعد خمس سنوات، في اليوم الذي ستشرق فيه شمس عدد الاحتفال باليوبيل الماسي لـ"القافلة". فتفاءل أن ذلك اليوم سيشهد تعاظم رأس المال الحقيقي للسينما السعودية، وهم مبدعو هذه السينما أنفسهم.

سينما ذلك اليوم

لطالما واكبت مجلة القافلة تحولات العالم العربي منذ منتصف القرن العشرين، ودأبت على إقامة عُرس المعرفة عبر مقالات وتحقيقات استقصائية متنوعة، يثق القارئ بمصداقيتها وجودتها المعرفية. هذه المواكبة كانت تتجدَّد مرحلة بعد مرحلة، وقد شملت، ضمن ما شملته، رصد صناعة السينما السعودية الصاعدة وتسليط الضوء عليها منذ أيامها المبكرة.

والسينما السعودية في تطور مستمر يبشّر بمستقبل واعد، منذ عودة عروض الأفلام الجماهيرية في أبريل 2018م مع فتح صالات السينما التجارية. افتُتحت حتى هذا العام 620 صالة عرض سينمائية في 69 دارًا بين 20 مدينة سعودية، وعُرِضت عشرات الأفلام بينها 33 فِلمًا سعوديًا. وهذه الحصة تنمو عامًا بعد عام ضمن فضاء صناعة سينمائية واعدة، تقوم بالعمل والتخطيط لسياساتها الإستراتيجية هيئة الأفلام السعودية، التي تأسست عام 2020م.

وفي نوفمبر 2021م، أطلقت هيئة الأفلام إستراتيجية تهدف إلى ترسيخ مكانة المملكة كمركز عالمي لصناعة الأفلام في قلب الشرق الأوسط، معتمدة على عدة ركائز من أهمها تحفيز الإنتاج الدولي في المملكة وتطوير المواهب وتحفيز الإنتاج المحلي. وهذا يحدث بخلق بيئة تنظيمية مناسبة تعزز قطاع الأفلام.

ومن إطلاق الإستراتيجية حتى إصدار هذا العدد، يتصاعد هذا الحراك بإنتاج أفلام سعودية حققت أرقامًا قياسية في شباك التذاكر، كفِلم "سطار" بوصوله إلى بيع 900 ألف تذكرة، ووصول ثلاثة أفلام سعودية إلى مهرجان تورنتو السينمائي، وهي: "هجّان" من إخراج أبو بكر شوقي ومن إنتاج "إثراء"، و"مندوب الليل" من إخراج علي الكلثمي، و"ناقة" من إخراج مشعل الجاسر. كما أُنتجت عدة أفلام هوليودية من أبرزها فِلم "قندهار".

أمّا على مستوى حيوية المشهد السينمائي، فنشهد تزايدًا ملحوظًا في عدد السعوديين المشتغلين في كتابة السيناريو وبقية التخصصات الأخرى، كالصوت والمكياج والإضاءة. ولا ننسى أن أحد أهم أهداف إستراتيجية صناعة الأفلام في السعودية هو "التفرغ"، لذا من المرجح أن يرتفع العدد خلال الأعوام القليلة القادمة إلى 10 آلاف فني سعودي متفرغ في صناعة الأفلام. وعلى مستوى مهرجانات السينما في المملكة، ستظهر بلا شك مهرجانات جديدة متخصصة، وستغطي مدنًا جديدة لم تُقم فيها مهرجانات من قبل.

الجمهور من جهته سيعتاد تذوق الأفلام السعودية خلال السنوات الخمس القادمة، وسيساهم في ذلك ارتفاع جودة الأفلام المنتجة، والروح التي يتحلى بها الجمهور المحلي من حيث دعمه لكل ما هو سعودي. كما سيشهد النقد السينمائي تطورًا بولادة نقاد جدد، ومن المؤكد أن خطابه سيتطور من مجرد انطباعات إلى تحليل فني بعد امتلاك أدوات النقد السينمائي، وأولها المعرفة بوسائل الصناعة وأدواتها.

ويمكن اعتبار إقامة منتدى الأفلام السعودي، مطلع أكتوبر 2023م، بمنزلة قراءة محسوسة وملموسة للمستقبل، وذلك بإعلان عدد من الاتفاقيات الإنتاجية الضخمة بين قطاع السينما السعودي وقطاعات سينمائية عالمية. كما يمكن اعتبار زخم المشاركة العالمية والإقليمية والمحلية في المنتدى دليلًا على اهتمام قطاع الإنتاج بالسوق السعودية الجديدة والمتنامية عامًا بعد عام.

أخيرًا، الفيصل في تطور صناعة الأفلام السعودية خلال العقد الحالي، سيكون في رأس المال الإبداعي السعودي، وهم الفنانون والمخرجون والمؤلفون السعوديون. وهؤلاء، بكل ما يقدمه هذا الفضاء المحرض على الإبداع، سيبدعون ويرسمون المستقبل؛ لأن الموهبة تتوهج في المناخات المحفزة، كمناخ زمننا، زمن نهضة الثقافة والسينما السعودية.

قول في مقال

نظرة يا عدوي

د. عبدالله العقيبي
كاتب وناقد سعودي

لاحظت، مبكرًا، زوجتي وهي تتمتم بكلام أثناء بحثها عن مفقودات البيت، من مفاتيح وأقلام وأقراط وخلافها، ولم أسألها عمّا كانت تتمتم به يومًا، فلم يكن الموضوع يشغلني.

وحينما قرأت ملف "المتروكات" في عدد مجلة القافلة 699 يوليو - أغسطس 2023م، الذي كتبه بعناية وجمال منقطع النظير، الروائي والكاتب المصري محمد عبدالنبي، وبمشاركة من فريق التحرير، وجدت فيه حديثًا ماتعًا عن المفقودات، وسألت زوجتي أخيرًا، فأخبرتني أنها كانت تردد سورة الضحى؛ لأن جدتها كانت تعثر على مفقوداتها بفضل هذه السورة الشريفة، وقد أخذَت ذلك عنها. فسألتها: وهل كان لها مفعول ملاحظ؟ لكنها تركتني وأشاحت بيدها؛ كأنها خافت من مواجهة سؤال المنطق، أو لعلها لا تود أن أعبث بمسلماتها الموروثة، كما أفعل دائمًا.

موضوع "المتروكات" من الموضوعات التي يرتبط مجرد التفكير فيه بشيء جوهري داخلنا، وربما يكون بداخل كل الأرواح، البشرية وغير البشرية. ما زلت أذكر ذلك الغراب الذي ظل يهاجمنا في الطفولة، والذي عبثنا بعشه وأخرجنا منه فرخه الصغير، فظل يتابعنا لأيام حتى خشينا على رؤوسنا من منقاره الحاد. وكذلك الكلاب التي كنا نتسلط على جرائها في مزرعة جدي، كانت لا تكف عن ملاحقتنا.

وقد تنبّه الكاتب إلى هذا النوع من الفقد الروحي، في الجزء الذي تحدث فيه عن الشيخ محمد العدوي، الذي يتبعه أصحاب في هذه المهنة، جماعة المنادين، والذي ذكر فيه مفارقة كونهم من المكفوفين، وهذا من العجب. ليتني كنت أعرف هذه الأسطورة حينما اتصلت بي زوجتي من داخل عالم "والت ديزني" في مدينة أورلاندو الأمريكية. كنت حينها في القاهرة أتمتع بإجازتي السنوية، حين أخبرتني: "لقد أضعتُ ابنك الصغير!". لو كنت وقتها أعرف هؤلاء المنادين لوقفت في صفوفهم، وقلت: "نظرة يا عدوي". لكنها، وبعد أقل من نصف ساعة، اتصلت مرة أخرى لتخبرني أنهم وجدوه يجري خلف دمية ميكي ماوس. ولا أظن أنني شعرت بفقد شيء في حياتي مثل فقد ولدي في نصف الساعة تلك.

لفت انتباهي في الملف عنونته بـ"متروكات"، بينما أدخل الكاتب ببراعة فيه المفقودات. والفرق بين المفردتين واضح، فعلى أن الصفة يصح إطلاقها على الشيء نفسه، إلا أن في مفردة المتروكات إيحاء بالتخلي، فالذي يجد الشيء يصح له أن يسميه متروكًا، بينما الذي فقده الأصح أن يسميه مفقودًا، فلا وجاهة في أن يبحث الشخص عمًّا تركه. وهذا البعد اللغوي جعلني أعيد قراءة الملف بحثًا عن لبس متوقع، لكنني لم أجد لبسًا، بل وجدت روعة وإتقانًا وانتباهَ عارف بدهاليز اللغة. ووجدت أيضًا رشاقة في انتقالات الكاتب من مفردة إلى أخرى، وهذا دليل على تمكن الكاتب، وإيمانه بالفكرة، واندماجه في حالة إبداعية، ما جعلني أنظر إلى أدبية الكتابة، واشتباكها مع الجزء الصحافي، وهذه مزية أن يكتب الأديب في الصحافة الجديدة.

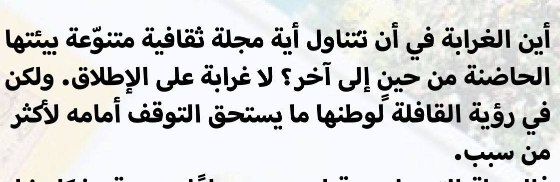
فالصحفي يكتب وفي عينيه النظرة الاستقصائية، التي قد توقعه في فخ لذة المعلومات الجديدة. والأديب قد يذهب إلى الوجدانيات ويهمل جوهر الصحافة، القائم على تقديم المعلومة. والكاتب الذي يمتلك الموهبة والجدية في البحث، يمكنه وحده أن يجمع الاثنين معًا، وهذا ما وجدته في هذا الملف الفريد من نوعه، والذي جمع فيه الكاتب بين الذاتي والموضوعي، وبين الفني والواقعي، فيما يشبه الكولاج الذي تحدّث عنه داخل الملف، وربطه بذكاء مع موضوع المتروكات. وهذا الفعل ذكرني بمقولة كنت قد قرأتها في مكان لا أتذكره الآن، عن أحد فناني الكولاج، إذ قال: "أنا لا أخترع، أنا أجد فقط"، في إحالة إلى تكوين هذا الفن القائم على نبشٍ في قمامة العالم، بحثًا عن إمكانية وجود جمال متروك أو مهمل أو غير مقدر. وقد وجدت بنفسي شيئًا من هذا الجمال في ملف المتروكات. ولعل أبرز ما فعله الكاتب في هذا الملف هو انتباهه لشكل من أشكال البلاغة الجديدة، التي تضع الأمور المتساوقة بعضُها بالقرب من البعض الآخر؛ ليظهر جمالها.

وإذا ما حاولنا استنطاق الملف بشكل أكثر دقة، سنجده رغم تذرّعه بالأدبية، لم يتخلّ عن شوارد الموضوع، ولا عن أضداده، فقد استوفى فيه الجوانب النظامية، التي كوّنت في العصر الحديث هيئات ومؤسسات لرعاية هذه المتروكات، والتي كان أبرزها وأكثرها ثراءً متروكات باريس. ومن التنظيمات إلى الأساطير الشعبية، والجمال الكامن في سرديتها، ومن ثم إلى المتروكات في الفن والشعر والرواية، وحتى في الغناء العربي. ومن أثر الحنين إلى أثر جنون التمسك والحيازة، المضاد للترك والتخلي، والذي صُنف هوسًا مَرضيًا، تحت مصطلح اضطراب الاكتناز القهري. وبهذه السياحة في موضوع المتروكات عبر الزمان والمكان والذاكرة، قدَّم لنا محمد عبدالنبي وفريق التحرير تحفة فنية، وقطعة أدبية، لا تخلى عن الشق المعرفي، ولا عن البعد الاستقصائي، في تجانس فني ولغوي قلما نجد مثله.



بتراثها الوطني والثقافي ومنجزاتها ومجتمعها

المملكة بعيون القافلة في سبعين عامًا



أين الغرابة في أن تتناول أية مجلة ثقافية متنوّعة بيئتها الحاضنة من حينٍ إلى آخر؟ لا غرابة على الإطلاق. ولكن في رؤية القافلة لوطنها ما يستحق التوقف أمامه لأكثر من سبب.
فالمجلة التي وِلِدت قبل سبعين عامًا موجهة بشكل خاص إلى عدد من موظفي أرامكو العرب بغية تزويدهم بألف باء ثقافة الصناعة البترولية، وتحولت لاحقًا إلى أحد أعلى المنابر الثقافية العربية، لم يغمض لها جفن عن هويتها الوطنية وانتمائها، مع كل ما ينطوي عليه ذلك من عناوين عريضة وتفاصيل صغيرة، بدءًا من تسليط الضوء باعتزاز على معلم بارز من معالم التراث العمراني الوطني، وانتهاءً بوضع صفحاتها في خدمة مواطن موهوب في مجال ما، أملًا في أن يصبح نتاجه جزءًا أصيلًا من المخزون الثقافي الوطني.
ولمناسبة مرور سبعين سنة على صدور العدد الأول من القافلة، تعتز هيئة التحرير بإعداد هذا التقرير حول الصورة التي ظهرت بها المملكة على صفحاتها. وقد يكون من الأصحّ القول "الصور"، لأن تعامل القافلة مع وطنها وأخباره وإنجازاته، كان يتطوّر ويتبدّل بتطوّر إمكاناتها، وأيضًا بتطور العمل الإعلامي والصحافي، فضلًا عن مسيرة الألف ميل التي اجتازتها المملكة خلال هذه السنوات السبعين.
ونظرًا لاستحالة إجراء مسح شامل لكافة أوجه حضور المملكة على صفحات القافلة، نكتفي بعيّنة محدودة تُعبِّر باختصار عن ولاء المجلة لوطنها واعتزازها به وببنيه، وبالتميّز المهني في تناول الشأن الوطني.

ملاحظة لا بدّ منها

يبلغ عدد الذين أسهموا في القافلة خلال هذه السنوات السبعين أكثر من 3000 شخص. ولأن الاسم الواحد يتألف عادة من كلمتين، يكون مجموع أسمائهم أكثر من 6000 كلمة، أي أكثر من كل المجال المتاح لهذا التقرير.

سقنا هذه الملاحظة لتفسير تعمّدنا إغفال معظم أسماء الأعلام، إلا من توفاهم الله، أو حيث كان لا مفر من ذلك، تلافيًا لإثارة أي حساسيات، أو اتهام بإغفال الحقوق الأدبية لأي أحد، فاقتضى التنويه.

تصوير: حسن المبارك.
بالاستفادة من مكتبة: فؤاد حسين.

بدءًا من أواخر المطاف، نشير إلى أن العدد الخاص الذي أصدرته القافلة لمناسبة اليوم الوطني خلال العام الماضي 2022م، لم يكن غير اختزال مكثّف لما كان عليه تعامل هذه المجلة مع وطنها منذ صدور عددها الأول قبل سبعين عامًا وحتى اليوم. فرغم أن صفحات كثيرة، كالتي خُصِصت لمواضيع مثل تعداد المواقع التراثية السعودية المدرجة على قائمة اليونيسكو للتراث العالمي والأزياء الوطنية السعودية وقصة الراية السعودية وغيرها، كُتبت من خلال سرد لحقائق مجرّدة، فإنها لم تُخفِ أبدًا الشحنة العاطفية ومشاعر الاعتزاز التي تقف وراءها. ولكن، لنعد إلى البداية...

لا نعرف على وجه الدقة والجزم ما كانت عليه طموحات فريق العمل لـ "قافلة الزيت" قبل 70 عامًا، بقيادة رئيس تحريرها الأول الأستاذ حافظ البارودي، رحمه الله. فالمعروف والشائع أن الشركة قررت إنتاج هذه المجلة لتثقيف موظفيها السعوديين والعرب في مجال صناعة الزيت الوليدة والجديدة عليهم. وهذا صحيح، تؤكده محتويات الأعداد الأولى من المجلة، التي غلبت عليها المواضيع المتعلقة بصناعة الزيت وأخبار الموظفين، وبعض صفحات التسلية للترغيب في القراءة. ولكن ثمة ما تضمنه العدد الأول من "قافلة الزيت"، ويشي بوجود طموحات مستترة تنتظر توفّر الإمكانات لتنفيذها. فمباشرة بعد افتتاحية رئيس التحرير، كان هناك مقال صغير حول التعليم وأهمية برنامج لمحو الأمية، ومقالة أخرى عن مرض الملاريا، وثالثة حول النجارة في منطقة الأحساء. وفي هذا ما يُشير إلى وجود تطلعات خجولة للخروج بصفحات هذه المجلة إلى رحاب أوسع من تلك التي كانت تتيحها الإمكانات البشرية والمادية التي كانت في حدّها الأدنى آنذاك. وهذا ما حصل بالفعل.





من نطاق الشركة إلى رحاب المملكة
عصر الاستطلاعات المصوّرة الكبرى



في عدد شعبان 1376هـ، ولم يكن قد مرّ على صدور "قافلة الزيت" أكثر من أربع سنوات، نشر رئيس التحرير، الأستاذ شكيب الأموي، مقالة من صفحتين تتضمنان صورة واحدة لخريطة المملكة، وعرضًا عامًا جمع فيه جغرافية المملكة ومساحتها وحدودها وأحوال السكان والمناخ... واعدًا بالعودة إلى تناول هذه المواضيع بإسهاب أكبر في الأعداد اللاحقة.

قبل ذلك، وخلال السنة التالية للصدور، كانت "قافلة الزيت" قد تناولت على صفحاتها الأولى أخبار العمران الجديد في بعض المدن، وأولها الخُبر ومن ثم جدة. فتحتَ عناوين بسيطة مثل "النشاط العمراني في الخُبر" أو "ماذا يجري على الساحل الآخر"، عرضت المجلة مجموعة صور لأبنية جديدة أو قيد الإنشاء مكتفية بالتعليق عليها. وفي عدد يوليو من العام التالي، جاء دور النشاط العمراني في الرياض تحت عنوان "حركة وبركة" فقط.

ولكن مقالة الأموي رغم بساطتها الشديدة، كانت فاتحة صغيرة لعصر الاستطلاعات الوطنية الكبرى في تاريخ القافلة، التي بدأت باستطلاعات قصيرة كانت أقرب إلى المقالات، ولكن بأقلام كبيرة، مثل الشيخ حمد الجاسر الذي كتب عن "الرياض قديمًا وحديثًا" (محرم 1376هـ)، وعبدالقدوس الأنصاري الذي كتب عن عسير (جمادى الأولى 1385هـ)، ومن ثم بلغت ذروة نضوجها المهني في العقد الثاني من عمر القافلة، واستمرت نحو أربعة عقود لاحقة.

لم يترك محررو القافلة ناحية من نواحي المملكة إلا وزاروها: مكة المكرمة والمدينة المنوّرة طبعًا، مرّات ومرّات، ونجران كما حائل، والقطيف كما جدة والرياض، والأحساء كما جزر فَرَسان... وغالبًا ما كانت القافلة خلال هذه السنوات تعود إلى المكان نفسه مرة بعد أخرى لمواكبة ما طرأ عليه من تطور، ولتتناوله بمزيد من التوسع والتفاصيل. فبعدما كتب الأنصاري أربع صفحات عن عسير، على سبيل المثال، تناول محمد بن هيف بن سليم المنطقة نفسها بعد 20 سنة تقريبًا باستطلاع من 50 صفحة نُشر على أربع حلقات، وتضمن 107 صور فوتوغرافية لما في عسير من معالم تاريخية وجغرافية والحياة الحديثة فيها.

ومن المرجّح أن توفّر المزيد من الإمكانات والكفاءات العاملة في المجلة أتاح التوسّع في تناول المناطق السعودية بجغرافيتها وتاريخها وأعلامها والحياة المعاصرة فيها على الصعيدين التربوي والاقتصادي، حتى أصبح ذلك سمة شبه ثابتة في معظمها. والملاحظة الواردة آنفًا حول استطلاعات عسير، تنطبق أيضًا على مجموعة الاستطلاعات التي أُجريت حول المدينة المنوّرة. فقد بلغ حجم الاستطلاع المنشور حول المدينة المنوّرة في محرم 1396هـ خمسة أضعاف ذلك الذي ظهر قبله بأربعة عشر عامًا حول المدينة نفسها. أما الرياض، فتبدو في الاستطلاع المنشور في أكتوبر 1999م، مدينة لا تمتّ بصلة للرياض التي تحدث عنها الشيخ حمد الجاسر قبل أقل من نصف قرن، بفعل النهضة التي غيّرت البلاد من حال إلى حال.

أين تكمن أهمية هذه الاستطلاعات؟

ظهرت هذه الاستطلاعات المصوّرة خلال زمن لم يكن فيه مفهوم السياحة الداخلية معروفًا بعد، ولا كانت وسائل تحقيقها من مواصلات متوفرة بسهولة. كما أن وسائل الاتصال المرئية كانت محدودة جدًا، ولا تفي بحاجة المواطنين إلى التعرّف على ربوع بلادهم. وبسبب اتساع رقعة المملكة جغرافيًا، كان من شبه المؤكد أن كثيرًا من مناطق المملكة كانت مجهولة تمامًا عند كثيرين من أبناء مناطق أخرى. فأدّت هذه الاستطلاعات دورًا بارزًا في تعريف قرّائها على أرجاء وطنهم التي لم يزوروها؛ لا بل حثّتهم بشكل غير مباشر على زيارتها.

وبالإضافة إلى ما حوته هذه الاستطلاعات من حقائق وأرقام ووصف أمين للواقع، فإن التدقيق في أي منها يُظهر أنه كُتِب بحب وشغف، حتى إن معظمها، كي لا نقول كلها، كان يتضمن أبياتًا من الشعر تتغنى بمحاسن هذه المنطقة أو تلك. وكان الطابع العاطفي يطغى على كل ما عداه في بعض الاستطلاعات، وخاصة تلك التي تتسم بطابع وطني كبير، كما ظهر على سبيل المثال في الاستطلاع الذي كتبه سليمان نصر الله حول الدرعية في عام 1972م، وتضمن فيضًا من الحقائق التاريخية والوثائق؛ إذ بدأ التعريف بالدرعية من خلال ديباجة أدبية ذات شحنة عاطفية كبيرة، وخصص القسم الأول من الاستطلاع لما قيل شعرًا في الدرعية عبر التاريخ. ولذا لم يكن مستغربًا أن يقتصر عنوان هذا الاستطلاع على "الدرعية.. قلعة الأمجاد".

ووفقًا لتقديرات أُطلقت خلال احتفال القافلة بيوبيلها الذهبي قبل عشرين سنة، فإن مجموع الاستطلاعات المصوّرة التي تناولت مناطق المملكة وأبرز معالمها الحضارية آنذاك، بلغ ما بين ثمانية آلاف وتسعة آلاف صفحة!

ورغم أن تلك الاستطلاعات كانت تظهر تحت عناوين تؤطرها جغرافيًا، فقد أتت متميزة بطابع ثقافي متغلغل في متنها، إذ حرص كثير منها على ذكر أعلام المنطقة في الأدب والشعر والفكر والتراث المادي للمنطقة.



من الإضاءة على التراث الروحي والمادي إلى رسم الخط البياني للنهضة الوطنية

لم ترتبك القافلة يومًا في التعامل مع التاريخ الروحي والمادي والمعنوي رغم اتساع فضائه في المملكة والجزيرة العربية عمومًا، وامتداده من العصر الحجري القديم إلى القرن العشرين. فحفلت صفحاتها بتقارير واستطلاعات ومقالات تتناول هذا التراث بجوانبه المادية والإنسانية، مع تركيز بارز على عصر الدعوة الإسلامية وما قبله وبعده بقليل، مثل مجموعة المقالات التي كتبها عبدالقدوس الأنصاري في ستينيات القرن الماضي حول تلك الفترة.

وفي هذا المجال، تجدر الإشارة إلى أن أحد أطول التقاليد عمرًا في المجلة الصادرة في بلاد الحرمين الشريفين كان وقوفها الموسمي المتكرّر أمام مناسبتي صوم شهر رمضان المبارك وموسم الحج، لتخص المناسبة بموضوع يحتل غلافها، أو بمقالات ذات مضامين مختلفة تتراوح بين ما هو ديني بحت بأقلام علماء ومفكرين بارزين، ومنها ما هو صحافي الطابع أقرب إلى أن يكون تحية إلى المدينتين المقدستين، سواءً أكان استطلاعًا مصورًا مثل "صفحات مشرقة من تاريخ المساجد وعمارتها في مكة والمدينة" (رمضان 1396هـ)، أم ملفًا فوتوغرافيًا حول الحج كما هو الحال في عدد يناير- فبراير 2004م.

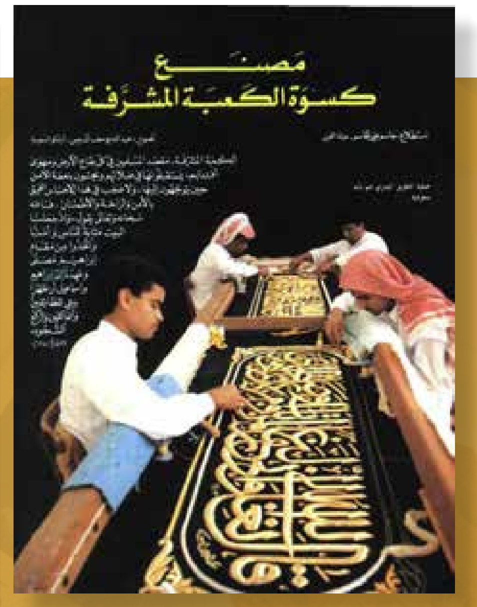
أما بخصوص التراث المادي والمعنوي، فيمكن للقارئ أن يجد على صفحات المجلة ما يتراوح بين مقالة عامة عن الثموديين واللحيانيين تحت عنوان "الآثار في شمال المملكة العربية السعودية" (محرم 1386هـ)، واستطلاع حول قصر المصمك في الرياض، وصولًا إلى التاريخ المصوّر للطوابع البريدية والعملات السعودية حتى النصف الأول من القرن العشرين. فضلًا عن مقالات الفنون الحرفية والصناعات التقليدية الدالة على الانتماء الوطني مثل "المجوهرات السعودية.. كنوز عريقة تحرّك الحنين إلى الماضي" (مايو – يونيو 2019م)، و"السدو، أسلوب تفكير وهندسة وعمارة" (مارس – أبريل 2021م) وغير ذلك الكثير.

وما بين هذا وذاك، كانت تطل على صفحات المجلة في أحيان كثيرة شخصيات سعودية قامت بأدوار تاريخية لا تُنسى، وأسهمت في إيصال الوطن إلى ما هو عليه، مثل سلسلة المقالات التي ظهرت في أواخر ثمانينيات القرن الميلادي الماضي، وعرضت سير عدد من مشاهير القادة العسكريين السعوديين، تحت عنوان "نماذج من القيادة العسكرية في بلادنا".

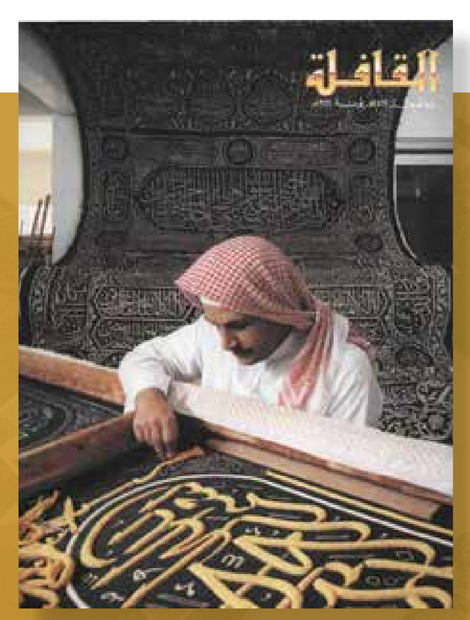
ولكن استطلاعات القافلة لم تنحصر في تلك الفترة على مناطق المملكة وآثارها، بل تعدتها إلى مواضيع حيوية وآنية، فتوقفت المجلة أمام ثمار النهضة الوطنية، ولم تترك شاردة ولا واردة إلا وثقتها بكثير من مشاعر الاعتزاز، من إنعاش الحرف التقليدية الصغيرة إلى المدينتين الصناعيتين العملاقتين في الجبيل وينبع. وبتسلسل مضامين هذه الفئة من التقارير والاستطلاعات، يمكن للقارئ أن يرسم الخط البياني للنهضة الوطنية السعودية خلال هذه العقود السبعة. وتكفي لذلك، على سبيل الاستشهاد، مقارنة الاستطلاع حول افتتاح مبنى مطار الظهران في عدد محرم 1382هـ، بذلك الذي يغطي افتتاح مطار الملك فهد الدولي في الدمّام في عدد شعبان 1420هـ.

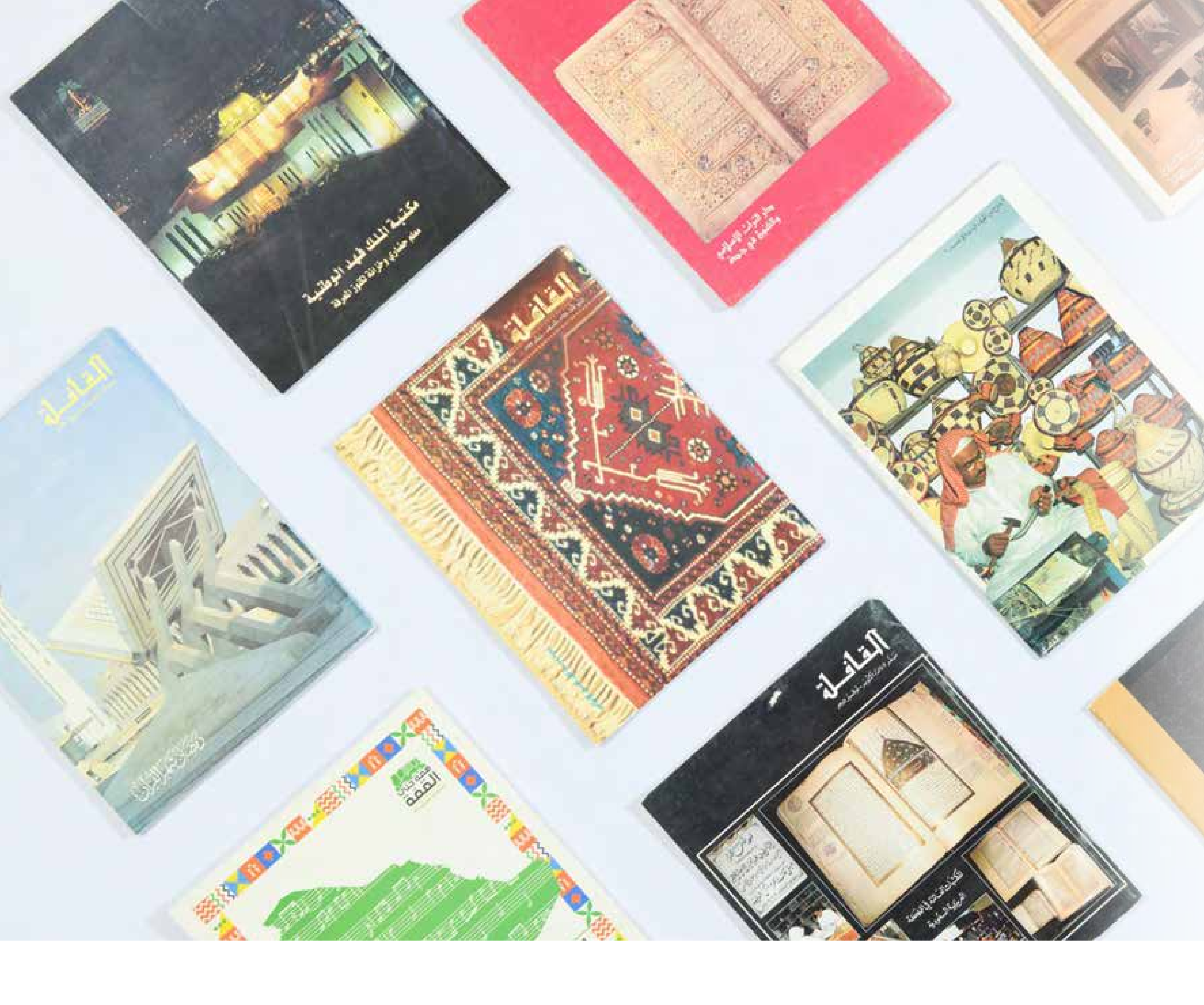
وتتضح الصورة أكثر في تناول المجلة للتعليم والصروح التعليمية الكبرى. فبعد المقالة التي لم تشغل أكثر من نصف صفحة حول برنامج محو الأمية في العدد الأول من "قافلة الزيت"، ومن خلال مرافقة المجلة لقطاع التعليم الجامعي في المملكة، استوقفنا عدد محرم 1378هـ بصورة لجامعة الملك سعود تتصدر مقالة عن "النهضة التعليمية في الرياض". وكانت الجامعة لا تشغل آنذاك أكثر من مبنى متواضع تابع لبلدية الرياض.

وبعد عدد من الاستطلاعات حول كل الجامعات السعودية ذات الأبنية الفخمة التي بُنيت لاحقًا،









مثل جامعة أم القرى وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، نصل إلى القافلة في عدد سبتمبر-أكتوبر 2009م، لنرى أن جامعة الملك عبدالله للعلوم والتقنية (كاوست) كانت موضوع ملف العدد في خروج عن المألوف في ملفات القافلة التي تقع دائمًا في 16 صفحة؛ إذ جاء الملف هذه المرة في 32 صفحة ليحيط بأكبر قدر ممكن من المعلومات حول هذا الصرح الجامعي الجديد. وفي قراءة متأنية لأغلفة الاستطلاعات الثلاثة المذكورة آنفًا، نلاحظ أن الأبنية الفخمة والحديثة غابت عنها لتحل محلها صور الطلّاب. فالأبنية على أهميتها، تبقى في نظر القافلة أقل شأنًا من الوعد والمستقبل، الذي يمثّله الطالب هنا، والمواطن السعودي بشكل عام.

أما على مستوى ما شهدته المملكة من صروح ثقافية وبحثية كبرى، فيمكن لمن يراجع أرشيف القافلة أن يجد على صفحاتها، عددًا ومضمونًا، ما يصلح لرسم خط بياني لهذا القطاع، انطلاقًا من مقالة بعنوان "أضواء على المكتبات العامة في المملكة" (أكتوبر 1961م)، الذي تألف من 4 صفحات احتل التذمر والشكوى أكثر من نصفها، ومرورًا بتقرير من 10 صفحات (أغسطس 1988م) حول "مركز أبحاث الحج لخدمة الحجيج والحفاظ على التراث الحضاري في مكة المكرمة والمدينة المنوّرة"، وصولًا إلى عدد يناير–فبراير 2017م، الذي تضمن تغطية شاملة في ملف من 16 صفحة لأحدث ما شُيّد من صروح ثقافية وأضخمها ليس على مستوى المنطقة الشرقية أو المملكة فحسب، بل على مستوى العالم العربي، ألا وهو مركز الملك عبدالعزيز الثقافي العالمي (إثراء).

ولماذا لم تستمر هذه الاستطلاعات الكلاسيكية المصوّرة حول المناطق السعودية حتى يومنا هذا؟ لماذا بدأت تتقطع في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، ومن ثم اختفت ليحلّ محلها شكل أو عدة أشكال أخرى من التعامل مع المملكة وشؤونها ومنجزاتها وتطورها وحتى أعلامها؟ ستضطرنا الإجابة عن هذا السؤال هنا إلى القفز فوق بعض أوجه حضور المملكة في القافلة، على أن نعود إليها لاحقًا.



احتضان المواطن المبدع

ظاهريًا، قد يبدو تناول ما زخرت به صفحات القافلة من أدب وشعر وقصص قصيرة ودراسات نقدية خروجًا عن الإطار المحدد لهذه المقالة. ولكن التمعّن فيما ضمته تلك الصفحات، وما كانت عليه قيمته وقت ظهوره، يمكن أن نستنتج منه أن هذه المجلة كان لها فهم عميق لقيمة "المواطَنة". فقد فتحت القافلة صفحاتها باكرًا جدًا للمبدعين من المواطنين، خاصة أن النهضة الأدبية الحديثة كانت قد انطلقت، ومجالات ظهورها وانتزاع الاعتراف بقيمتها ضيقة جدًا. صحيح أنها استضافت على صفحاتها عددًا من ألمع الأسماء العربية، ولكن أكثرهم حضورًا كانوا من السعوديين. حتى يمكن القول إن معظم الشعراء الذين ظهروا بشكل شبه دائم على صفحات المجلة عدة سنوات كانوا من السعوديين، مثل: أحمد قنديل وحسن عبدالله القرشي وطاهر زمخشري. والأخير هو صاحب أول ديوان شعر سعودي معاصر صدر عام 1946م. فحتى أواسط القرن الماضي، لم يجد الشعر السعودي سبيلًا إلى الظهور والذيوع إلا من خلال مجاميع الاختيارات. فأخذت "قافلة الزيت" على عاتقها مهمة سد النقص في هذا المجال.

وإضافة إلى الأسماء اللامعة آنذاك، فتحت قافلة الزيت صفحاتها لأصحاب المواهب الشابة. ومن الأسماء التي ظهرت عدة مرّات كان هناك الشاب غازي القصيبي، الذي نشر قصائده على صفحات المجلة ما بين عامي 1964م و1967م، وكان ذلك من بواكير إنتاج الشاعر والروائي والسفير والوزير، الذي لمع اسمه لاحقًا في دنيا الأدب والوطن. فكان للمجلة سبق التنبؤ بموهبته الأدبية الفذة.

وفي أواخر الثمانينيات من القرن الماضي، خصصت القافلة بابًا ثابتًا لتعريف العالم العربي بأدباء المملكة. ورغم أن هذا الباب الذي حمل اسم "أدباء من المملكة العربية السعودية" لم يدم طويلًا، فقد تمكن من خلال بعض الأعداد من التعريف على نطاق واسع بـ"محمد ماليباري قصاصًا"، و"حمد الحجي شاعر العذاب والرفض"، و"محمد سعيد العامودي شيخ الصحافة الإسلامية"، بعد التعريف في شعبان 1408هـ بالإمام عبدالله بن سعود في باب "نماذج من القيادات الفكرية في بلادنا".

وفي مجال القصة القصيرة التي عاشت عقودًا على صفحاتها، أبرزت القافلة مواهب عدد كبير من الأدباء السعوديين من أمثال: محمود عيسى المشهدي، ولقمان يونس المتمكن من فن القصة القصيرة، والناقد الاجتماعي الساخر غالب حمزة أبو الفرج وغيرهم.



تحوّلات تاريخية فرضت نفسها فتغيّرت القوالب ولم يتغيّر المضمون

خلال السنوات الخمسين الأولى من عمر القافلة، كانت المجلة تتطور ببطء، فزادت عددَ صفحاتها شيئًا فشيئًا، وحلّت الصور الملوّنة محل الصور بالأسود والأبيض. حتى اسمها تغيّر من "قافلة الزيت" إلى "القافلة" فقط. ولكن لم تكن القافلة وحدها ما تغيّر في المملكة والعالم خلال تلك الفترة. فبعدما كانت المجلة الثقافية الأولى التي تصدر في الجزيرة العربية، ولم يكن هناك منابر مشابهة تشاركها حمل أعباء مهماتها الضخمة، باتت هناك مجلات ثقافية عديدة في المملكة ودول الجوار الخليجي، وكثُرت الاستطلاعات المصوّرة على غرار ما كانت القافلة رائدة فيه. كما أن نهضة كافة أوجه الحياة في المملكة، وتسارع المنجزات الحضارية الكبرى، مضافة إلى تطور متطلبات القارئ في الألفية الجديدة عما كانت عليه في النصف الثاني من القرن الماضي؛ حتّم على أرامكو السعودية أن تعيد تجديد شباب القافلة، من خلال إعادة صياغة شخصيتها التحريرية وتجديد أبوابها وإخراجها، لتواكب التحولات التاريخية التي طرأت والمستمرة بتسارع يحبس الأنفاس. وفي مارس-أبريل عام 2003م، صدر العدد الأول من القافلة في حلّتها الجديدة.





رحلة في عالم بناء
ناقلات النفط العملاقة

جديد حلّتها في الألفية الجديدة

أبسط التحولات التي طرأت على القافلة في عملية تطويرها هذه كان القرار بالاستغناء عما هو موجود أو شائع أو يمكن تناوله بإسهاب تقليدي في الدوريات والمنابر الثقافية الأخرى، وذلك لصالح شكل جديد من التناول تنفرد به عن غيرها من المجلات في التعامل مع الموضوع الواحد. أما أكثر هذه التحوّلات تعقيدًا، فتمثّل في الموازنة بين الحفاظ على ما منح هذه المجلة مكانتها وشخصيتها التاريخية، وبين احتياجات القارئ الجديد الذي صار يعرف الكثير، ولكنه بات يطرح أسئلة أكثر، ويحتاج إلى سماع خطاب مختلف شكلًا ومضمونًا عن ذاك الذي كان والده أو جده يسمعه. فكيف تمكنت القافلة من متابعة المهمة نفسها في نطاق مهني مختلف؟

من أبرز ما صنع شخصية القافلة التاريخية وتقاسم صفحاتها كان هناك: صناعة الزيت، الالتزام بالقيم والتقاليد الإسلامية والاجتماعية، الانفتاح على أصحاب المواهب الشابة واحتضانهم، الاحتفاء بالمناسبات الدينية والوطنية، وتغذية الثقافة العامة عند القارئ في شتى مجالات الحياة. وهذا ما استمرت القافلة في الأخذ به، وإن كان ذلك وفق معالجات مختلفة.

أما التحوّلات والمستجدات التي فرضت على القافلة الأخذ بها، فكان التطور الكبير الذي طرأ على المستوى الاجتماعي، ومن أبرز ملامحه: ارتفاع المستوى العلمي والثقافي عند المواطن إلى أضعاف ما كان عليه قبل نصف قرن، وظهور قضايا مستجدة تتطلب وضعها موضع البحث، وانتشار وسائل نقل المعارف الحديثة.

صناعة الزيت: من تثقيف أفراد إلى نسيج الثقافة الوطنية العامة

مع تقديرنا لكل الصناعات، صغيرها وكبيرها، تتميّز صناعة الزيت في المملكة بوزن وطني يكاد يكون وجوديًا. ومَن يدقق في تاريخ القافلة، يلاحظ أن الهدف التثقيفي خدمةً لموظفي الشركة، والذي كان أقرب إلى التعليم الابتدائي-النفطي في أعداد الأشهر الأولى، لم يعش طويلًا. فقد أصبحت الاستطلاعات والتقارير حول صناعة الزيت منذ السبعينيات على مستوى من العمق يخاطب حتى المحترفين من أصحاب المهنة، ويثير اعتزاز المواطن العادي غير المعني مباشرة بهذه الصناعة. وإلى جانب ذلك، كانت أرامكو السعودية قد أصدرت أكثر من دورية متخصصة موجهة إلى أصحاب المهنة. وهذا ما حتّم على القافلة أن تعمل وفق رؤية جديدة لأهمية صناعة الزيت بحيث تخاطب المجتمع بأسره، وليس فقط العاملين فيها.

ولأن المجتمع ككل كان قد وسّع اهتمامه من دائرة صناعة الزيت إلى الغاز الطبيعي ثم مصادر الطاقة المختلفة، التي تعاظم حضورها والحديث عنها في العالم كما في المملكة، وجدنا القافلة في حلّتها الجديدة تتعامل مع قطاعات الطاقة ككل في القسم المخصص لذلك، والذي أضافت إليه الاقتصاد. ومقياسها في ذلك هو اختيار ما هو جديد ووازن على مستوى المملكة واقتصادها ومكانتها العالمية في هذه الصناعة، وأيضًا ما يثير اهتمام القارئ العام.

"مشاريع الطاقة العملاقة وكيف تُبنى" (انطلاقًا من بناء معمل حرض)، و"نماذج ناجحة للتكامل بين مصافي البترول وإنتاج البتروكيماويات" (مارس-أبريل 2013م)، و"ناقلات النفط العملاقة" (سبتمبر-أكتوبر 2012م)، وما شابه ذلك من عناوين... هذا هو ما طغى على مواضيع الزيت في القافلة خلال الألفية الجديدة. وأيضًا، لأن جيل الشباب فاته الكثير من معارف الآباء، لم تجد القافلة حرجًا في إطلاعه على الأساسيات فيها مع التركيز على ما استجد من معطيات بشأنها.





وماذا لو أخذنا مهرجان الجنادرية مثلًا آخر؟

في عدد شهر صفر من عام 1408هـ (أكتوبر 1987م)، احتل مهرجان الجنادرية غلاف العدد، وتصدّر مواضيعها من خلال مقالة من ثلاث صفحات، ومجموعة كبيرة من صور المسؤولين الرسميين وبعض جوانب المهرجان. ولأن هذا ما صار لاحقًا متبعًا في معظم وسائل الإعلام المكتوبة بما في ذلك الصحف اليومية العديدة، ارتأت القافلة في صيغتها المحدّثة أن تتناول هذا المهرجان في شكل مختلف. وفي العدد الأول من هذه الصيغة الذي صدر في مارس-أبريل 2003م، خصصت "الملف المصوّر" الذي يتوسط العدد لهذا المهرجان، واكتفت بنشر مجموعة من 14 لقطة من مهرجان الجنادرية بعدسة أحد روّاد فن التصوير الفوتوغرافي في المملكة، ألا وهو صالح العزّاز رحمه الله. فضربت عصفورين بحجر واحد: استحضار المهرجان على صفحاتها بشكل تكريمي، والتعريف بفنان سعودي كرّمه المهرجان.

و"الملف المصوّر" هذا هو ابتكار "قافلي" حقق الغاية من إنشائه. ولإدراك جدواه، علينا أن نعود إلى تاريخ إطلاقه قبل عشرين عامًا، عندما كان التصوير الفوتوغرافي أسير عقبات كثيرة، والسعوديون المحترفون فيه يُعدّون على أصابع اليد. وقد أسهم هذا الباب في إطلاق عدد ملحوظ منهم إلى دنيا الاحتراف، وحفّز أكثر منهم على ذلك.

بالعين والعدسة
من هنا وهناك في ربوع المملكة


عين وعدسة

حديقة العرعر والأساطير

غابة رغدان في الباحة

بالنسبة للقارئ السعودي الشاب في الألفية الجديدة، لم يعد من الضروري استحضار ما قاله الشعراء في هذه المنطقة أو تلك كي تربطه القافلة عاطفيًا بها. فقد صار يعرفها، وكل ما يتعلق بهذه المناطق من معلومات وبيانات صار متوفرًا له على جهاز الهاتف المحمول. وهذا ما دفع القافلة إلى التخلي عن استطلاع المناطق بالأسلوب الكلاسيكي، لصالح استطلاع جانبٍ ضيق (غالبًا بيئي الطابع)، بشكل يركز على إبراز جمالاته بالصورة المصاحبة لنبذة عنه، وذلك في باب أسمته "عين وعدسة" استضاف موهوبين في التصوير عرّفوا القراء على ما في ربوع المملكة من معالم طبيعية وحياة برية تستحق الزيارة والمشاهدة، من غابة رغدان في الباحة حيث العرعر والأساطير (نوفمبر-ديسمبر 2017م)، إلى طيور منطقة تبوك حيث التنوع الحيوي بين البحر والصحراء والجبل (سبتمبر-أكتوبر 2020م)، مرورًا بما تحت الماء في جزيرة جبل الليث (يناير-فبراير 2019م).

العاطفة لا تشلّ العقل
قضايا.. قضايا.. قضايا

ولأن عاطفة القافلة تجاه وطنها لم تشلّ عقلها، بقيت تتطلع بعين فاحصة إلى مجتمعها وما يواجه من قضايا تستدعي طرحها على بساط البحث. ولذا، وإن تناولت في العقود الأولى من عمرها بعض هذه القضايا من حين إلى آخر، فإنها عززت طرح هذه القضايا على اختلاف مضامينها في باب ثابت كثيرًا ما فاض بطابعه على الأبواب الأخرى.

بعض هذه القضايا كان محليًا مثل: "المسكن السعودي وكيف يُصبح ميسرًا للأسر الشابة"، فقد كانت قضية مطروحة اجتماعيًا، وطرحتها القافلة على صفحاتها في عام 2006م. ولأن التغني بحسنات التعليم تجاوزه الزمن، تطلّعت القافلة صوب بعض المشاكل التي تواجه هذا القطاع، فتناولت "التقصير الدراسي من ثلاثة جوانب"، وتحدث في هذا الشأن ثلاثة اختصاصيين في التربية (سبتمبر-أكتوبر 2004م). كما عرضت "مؤشرات البحث العلمي في المملكة" من خلال تقرير من سبع صفحات (يوليو-أغسطس 2016م. وقس على ذلك ما أشبهه من مواضيع وشؤون متعدِّدة. وبعض هذه القضايا كان عالمي الأبعاد ولكن على تماس واضح مع المجتمع السعودي، مثل ظاهرة القيادات الشابة في العالم (يناير-فبراير 2006م)، أو "التعليم عن بُعد" وما شابه ذلك.

وفي بعض الأحيان، كانت القضية المطروحة من الضخامة بحيث لا تتسع لها صفحات هذ القسم، فكان عرضها مرحبًا به في ملف العدد، كما هو حال "رؤية المملكة 2030"، التي تطلب عرضها باختصار 16 صفحة (يناير-فبراير 2018م)، شملت أبرز ما في هذه الرؤية الوطنية الكبرى من عناوين فرعية، مثل: قطاع السياحة والترفيه، ومشروع مدينة نيوم، ومشروع مدينة القدية الترفيهية، ومسك والإبحار إلى المستقبل، والاقتصاد الإبداعي، والطاقة، ومستقبل الاقتصاد، وبرامج التحوّل الوطني، وغير ذلك الكثير مما بات معروفًا اليوم للجميع.



العاطفة الوطنية شعرًا

أحيانًا، يقول بيت أو بيتان من الشعر ما يفيض من عاطفة الكاتب ويقصّر السرد في التعبير عنه. ولذا، حفلت الاستطلاعات الكلاسيكية حول مناطق المملكة بالكثير من المقتطفات الشعرية الدالّة على هذه العاطفة.

ففي استطلاع عنيزة، لم يتمكن الكاتب من تلافي استحضار بيت لامرئ القيس يقول:

تراءت لنا يومًا بسفح عنيزة ... وقد حان منها رحلةٌ وقلوصُ

وأيضًا ذكرُ جرير للمنطقة نفسها في البيت القائل:

إن الفؤاد مع الذين تحملوا ... لم ينظروا بعنيزة إشراقًا

ومن استطلاع حول الجبيل، ردد المستطلع مع الشاعر منصور علي منصور وصفه لهذه المدينة:

يُحيط بها النخيل وقد تعالى ... تلوح قُطوفه رُطبًا جنيًّا
يلطّفها نسيمُ البحر صيفًا ... وتلبسُ من لآلئه حُليًّا
أفاض كنوزَه فيها وألقى ... لها من صيده لحمًا طريًّا

ومباشرة تحت عنوان تحقيق عن يُنبع، نقرأ بيتين يقولان:

سقى الله الحجازَ ويُنبعَيهِ ... وما حويَا من الخير المَهولِ
فيُنبع بحرِهم نفعُ البرايا ... ويُنبع نخلِهم مثوى القُفولِ

وكذلك الأمر بالنسبة لنجران:

هل زرتَ نجرانَ حيّا الله نجرانَا ... وجادها الغيث هطّالًا وهتّانَا
ترى بها الحسنَ يبدو أينما وقعت ... عيناكَ والزهرَ نمّامًا وفتّانَا

أما حائل، حاضرة شمّر، فكان من نصيبها بيتان على لسان أهلها من شعر ابنها حاتم الطائي:

أوقِد فإن الليلَ ليلٌ قرُّ ... والريحُ يا موقدِ ريحٌ صِرُّ
علَّ يرى نارك من يمرُّ ... إن جَلبَت ضيفًا فأنت حرُّ

وقِس على المنوال نفسه معظم ما ورد حول مناطق المملكة في تلك الاستطلاعات.



"أجل نحن الحجاز ونحن نجدُ"

ختامًا، علينا أن نعترف بحقيقة أننا بدأنا هذا التقرير ليكون حول التراث الوطني السعودي بعيون القافلة، فإذا بنا "نشطح" نحو رسم صورة المملكة ككل كما رأتها القافلة. وهل نُلام على ذلك؟ ثم، أين تقع الحدود الفاصلة ما بين التراث والحاضر إن كان هذا التراث لا يزال حيًا؟ وأيهما أهمّ من الآخر: الموقع الأثري أم الصرح الجامعي؟ فن العمارة التقليدية، أم ما يخرج من مختبرات الأبحاث اليوم؟ الأمر ليس مهمًا، المهم هو أن القافلة لم ترَ يومًا فرقًا بين هذا وذاك، بل تكاملًا يصوغ هوية وطنها. وفي التعامل مع وطنها، وتحت كل عنوان وبين كل سطر وآخر، ومع الحفاظ على أعلى درجات الأمانة للحقيقة والواقع، ثمة عاطفة معلنة تارة ومستترة تارة أخرى، عاطفة تُشع اعتزازًا وفخرًا بهذا الانتماء، ولسان حالها يردد ما قاله لاحقًا ذلك الشاعر الشاب الذي استضافته قبل أكثر من ستين سنة.



حركة الثقافة السعــــوديــة
كيف يراها المثقّف؟





للثقافة وجوه متعددة، فهي طيف ملوّن يجمع الفلسفة إلى الطهو، ويشمل ما بينهما من فنون الكتابة والفنون الجميلة وفنون الأداء، وما لا حصر له من الإرث الثقافي والاجتماعي. وكل هذه الأشكال الثقافية هي وسائل تتضافر من أجل الارتقاء بالفرد والمجتمع وتعميق الإحساس بالحياة وطرق عيشها. وقد واكب الحراك الثقافي المتجدّد في المملكة هذا الطيف المتنوِّع، حيث يمكن تلمُّس ذلك بوضوح في التنظيم الهيكلي لوزارة الثقافة السعودية التي تضمّ تحتها 11 هيئة تُغطِّي 16 قطاعًا ثقافيًا مختلفًا. لكن، كيف يرى المثقَّف هذا الحراك الجديد في مشهد الثقافة في المملكة؟ وهل نجحت الجهود في ملامسته بأثرها المباشر وغير المباشر؟ بطبيعة الحال، يمكن للآراء أن تتفق أو تختلف بالنظر إلى تنوّع مسالك الثقافة وتعدّد مشارب المثقفين والزوايا التي يختارون أن ينظروا من خلالها إلى المشهد. لذلك، اختار فريق "القافلة" الثقافة السعودية في انطلاقتها الجديدة قضية لهذا العدد، منطلقًا من زوايا مختلفة لمناقشة كيف تبدو بعيون المثقف، سعوديًا كان أم خليجيًا أم عربيًا أم عالميًا. في البداية، كتب د. عبدالله السفياني عن رؤية المملكة الطموحة، التي جعلت من الثقافة قلبًا للبناء الحضاري وأساسًا لبناء الهوية، فاستطلع وجه الحراك الثقافي العام وطبيعة التحولات في المشهد. بينما كتب الإسباني إغناطيوس غوتيريث، من وجهة نظره، عن واقع الأدب السعودي وحال حركة ترجمته إلى الإسبانية، فأوضح أن حضور هذا الأدب في تلك اللغة أقل من المطلوب، مقترحًا أن القارئ الإسباني سيجد في هذه الكتابات عوالم تجذبه. من جانبه، استقرأ أحمد عبداللطيف نشاط الترجمة في المملكة، منوهًا بجهات وأسماء سعودية ساهمت في إثراء مشهد الترجمة العربية. أما د. عصام الجودر، فتوقف أمام النشاط الموسيقي في المملكة، الذي يشمل العروض والتدريب وتوثيق التراث الموسيقيّ.



1

ثقافةٌ للجميع.. لا نخبوية ولا منزوية

د. عبدالله السفياني
أكاديمي وكاتب سعودي

عدد المقاهي المنضوية تحت مظلة "الشريك الأدبي" وصل إلى 80 مقهى هذا العام، بينما كان عددها 45 مقهى في العام المنصرم.

النظرة القديمة والسائدة للعمل الثقافي في كثير من دول العالم النامية قاصرة، ترى في العمل الثقافي نشاطًا زائدًا تمارسه نخبة معينة أو مؤسسات متخصصة، ولا يُشكِّل وجوده مرتكزًا أساسيًا في حياة الإنسان اليومية.

المملكة العربية السعودية، برؤيتها الطموحة، جعلت الثقافة في قلب البناء الحضاري وتشكيل الأمة وبناء الهوية، باعتبارها المكون البارز لكل أمة وليست مجرد نشاط يُمارس لسد أوقات الفراغ.

أول ما تطالعنا به رؤية السعودية 2030 هو مرتكزاتها الثلاثة، وأولها المجتمع الحيوي، وهو كما تقول عنه الرؤية: "المجتمع المتماسك السعيد هو أهم أسس الازدهار الاقتصادي، مجتمع مواطنه مسؤول، وجذوره راسخة تستند على قيم الإسلام السمحة والفخر بالوطن، يعتز بالتراث والثقافة السعودية". وهذه لبنة أساسية ومتينة، فلا يمكن أن يكون لديك اقتصاد مزدهر ومجتمع حيوي ووطن طموح، دون أن تكون ثقافتك مواكبة ومتطلعة وقوية، يمكن الاعتماد عليها في تربية هذا المجتمع وبنائه.

الثقافة الهشة والمنزوية، والتي لا يعرفها ولا يؤمن بها إلا نخب محدودة ومتصارعة، لا يمكن أن تبني حياة فاعلة ومزدهرة. والمجتمعات التي تُكرِّس للحضارة المادية فحسب، تقع فيما يُسمى بالتخلف الثقافي. ووفقًا لعالم الاجتماع الأمريكي ويليام أوغبورن: "التخلف الثقافي ظاهرة مجتمعية أصبحت شائعة في المجتمعات الصناعية والتقليدية. في المجتمعات المادية المتطورة والمتغيرة بسرعة تُهدر قيمة الثقافة، وأما المجتمعات التقليدية فتميل إلى مقاومة التغيير والبقاء كما هي لفترة أطول من الزمن". وهذا الركود الثقافي لا يواكب ما يسميه بعضهم بالحتمية التكنولوجية، ويوقع المجتمع في مشكلات اجتماعية لا حصر لها.
في ضوء هذين النوعين من المخاطر، يجب على أي ثقافة أن تعيد تمركزها وأن تطور أدواتها وأن تجدد مبادئها وإرثها، وتعتز بقيمها وتعيد وجودها في النسيج الاجتماعي، بحيث لا يتحول المجتمع إلى مجتمع تكثر فيه الأدوات التكنولوجية المتطورة والمتنوعة، بينما تختل قيمه وسلوكياته وتعامله وثقافته بشكل عام.

الشريك الأدبي

والمتابع للحراك الثقافي الكبير الذي تقوده وزارة الثقافة السعودية منذ إنشائها عام 2018م، يعرف أن الهدف الجديد للرؤية هو ضخ الدماء الحية والنشيطة في أوردة المجتمع. وكان لإنشاء 11 هيئة تحت مظلة وزارة الثقافة دلالة أكيدة على أن هذه المجالات الثقافية المتنوعة يجب أن تحظى بالاهتمام نفسه، وأن تتعاضد فيما بينها لمواكبة الازدهار الاقتصادي وتكوين أرض صلبة يقف عليها المجتمع بكامل مؤسساته.

وإذا نظرنا إلى الحراك الأدبي بكافة مجالاته المتنوعة وفضاءاته، فسنجد تغيرات جذرية طرأت على المشهد برمّته. فالوزارة، عبر هيئة الأدب والنشر والترجمة، تحاول أن تفتح المساحات للجمعيات والمؤسسات الخاصة لتقوم بممارسة الأنشطة الثقافية، وتتولى هي دور الإشراف والتنظيم والتحفيز. ولو أخذنا مبادرة واحدة من مبادرات الهيئة، وهي مبادرة "الشريك الأدبي"، التي تسعى لتفعيل دور المقاهي وتحويلها إلى منصات لإقامة الفعاليات الثقافية المتنوعة من أمسيات وندوات وحوارات، لوجدنا أن عدد المقاهي المنضوية تحت مظلة المبادرة في تزايد مستمر، وكذلك عدد الأنشطة التي مورست فيها؛ إذ زاد عدد المقاهي ليصل إلى 80 مقهى هذا العام مقارنة بـ45 مقهى للعام المنصرم.

هذه المقاهي هي أماكن عامة يرتادها الصغار والكبار والرجال والنساء من كافة أطياف المجتمع، وتأتي المبادرة لتقدم لهم الثقافة في أماكن وجودهم بطريقة عصرية جميلة ومحببة، وهذه

الشريك الأدبي
Literary Partner

محاولة ناجحة في زرع الثقافة في كل مكان لتصبح الثقافة للجميع وليست للنخبة.

الثقافة حياة

وقد قدّمت الهيئة العديد من المبادرات التي خرجت فيها من الأماكن المسورة والضيقة، فأقامت أمسيات شعرية في المتنزهات والهواء الطلق في الطائف وأبها والأحساء وغيرها من المناطق، وشهدت حضورًا جماهيريًا لافتًا. هذا، بالإضافة إلى العديد من البرامج الجديدة، من معتزلات ومعسكرات ولقاءات حرّكت المياه الراكدة فدبّت روح الحياة في نبض الثقافة.

هذه النجاحات في نظري تعود في كثير منها إلى الاتكاء على الرؤية التي أرادت للحياة أن تكون ثقافة، وللثقافة أن تكون حياة، وأن تساهم القطاعات المختلفة، أهلية وخاصة وربحية وغير ربحية، في هذا الحراك. وبطبيعة الحال رؤية طموحة مثل هذه قد يعتريها شيء من القصور والخلل خصوصًا في بدايتها، وهذا أمر طبيعي جدًا. وهنا يأتي الدور الثقافي الحقيقي النقدي، ولكنه النقد القائم على تتبع منابع الأخطاء والبحث في الإستراتيجيات والأهداف، والمحتوى الثقافي وكيفية إدارته وتمحيصه وتوضيح جوانب القصور فيه، وليس النقد الشخصي القائم على المصالح والأخطاء الفردية التي لا يخلو منها أي بشر.

في تصوري، إن المرحلة القادمة ستضع على عاتق الوزارة، بجميع هيئاتها، بذل المزيد من الجهد في سبيل دعم هذا الحراك، والدفع بالقطاع الخاص للمزيد من المشاركة فيه؛ ليس عبر الدفع المادي، ولكن من باب ما يمكن أن أسميه بالمسؤولية الثقافية. فالمسؤولية الاجتماعية، التي تعمل على تحقيقها الشركات والبنوك والمؤسسات الكبرى، يجب أن يندرج ضمنها وفي إطارها البرامج الثقافية، فهي لا تقل أهمية عن غيرها من الجوانب التعليمية والاجتماعية.

وأدعو هنا إلى ملتقى كبير يجمع هذه الشركات وقيادات الوزارة والمهتمين في القطاع الثقافي؛ لتوضيح الدور المنتظر من القطاع الخاص في دعم الأنشطة الثقافية المستدامة من تأليف ونشر ولقاءات وندوات ومؤتمرات وحوارات وترجمة واهتمام بالمواهب الإبداعية، وغيرها من مجالات الوعي الثقافي.



مبادرة الشريك الأدبي



مدينة



زائر

2021م
انطلقت بمشاركة 20 مقهى بحصيلة 539 نشاطًا

2022م
41 مقهى شارك في المبادرة بحصيلة 1400 نشاط

2023م
80 مقهى شارك في المبادرة حتى الآن

2 أدبٌ معطاء..
لم تُنصفه الترجمة إلى الإسبانية

إغناطيوس غوتيريث

مستعرب إسباني، وأستاذ في جامعة أوتونوما مدريد

يظل الأدب السعودي المعاصر مجهولًا بالنسبة إلى القرّاء الناطقين باللغة الإسبانية، على الرغم من إنجازاته الإبداعية المشهود لها أثناء العقود القليلة الماضية، لا سيما على صعيد الرواية والشعر، إذ يتعذر علينا أن ندعي أن الأدب العربي بشكل عام له حضور وتصور يُعتد بهما في فضاء الآداب العالمية المترجمة بالإسبانية.

بل هناك تراجع ملحوظ لحركة الترجمة الأدبية من العربية إلى الإسبانية منذ بداية القرن الحادي والعشرين. وقد أشارت دراسة رعتها مؤخرًا مؤسسة "آنا ليند" الثقافية الأورومتوسطية، إلى أن عدد الأعمال الأدبية (الروائية والشعرية والمقالات البحثية) المنقولة من العربية إلى الإسبانية دون المائتين خلال الفترة الممتدة من 2010م إلى 2020م، وهي عمليًا قليلة جدًا بالنظر إلى الروابط التاريخية المستديمة بين الحضارتين العربية والإسبانية وأهمية الآداب العربية القديمة والحديثة. وإذا كان الأمر على هذا المنوال فيما يخصّ الآداب العربية بصورة عامة، فما بالك بالمنتج النثري والشعري السعودي الذي نُقِلَ منه النزر اليسير، وذلك على أيدي دور نشر محدودة الانتشار والتوزيع وعن طريق إصدارات متواضعة جدًا ليست دائمًا في متناول الجمهور المهتم بالآداب العربية.

وهناك مبادرات تسعى إلى ردم هذه الثغرة والنهوض بترجمة الأدب السعودي المعاصر ومنحه ما يستحقه من عناية وتقدير، مثل إصدارات الملحقة الثقافية في إسبانيا، التي أشرفت على ترجمة عدد من الروايات السعودية الحديثة، من ضمنها رواية "ستر" لرجاء عالم في 2016م. ويجب كذلك أن نذكر هنا العدد الخاص الذي أفردته مؤخرًا مجلة "بانيبال" بالإسبانية لمشهد الرواية والقصة والشعر في المملكة في الوقت الحاضر، حيث أوردت عينات متنوعة مترجمة إلى الإسبانية من ذلك الإنتاج الوفير. إلا أننا لا نكاد نجد، في الأوساط الناطقة بالإسبانية، أي صدى يُذكر لما جاد به الواقع الأدبي السعودي أثناء السنوات الماضية، باستثناءات قليلة لا ترتبط دائمًا بجودة الكتاب الأصلي أو أهميته الفنية، وإنما بسبب ردود الفعل الاجتماعية، كما حدث مع "بنات الرياض" للكاتبة رجاء الصانع، التي رأت ترجمتها الإسبانية النور في عام 2007م، وذلك بعد الجدل الواسع الذي أثاره صدور الطبعة العربية في بيروت والتي حققت مبيعات قياسية في عام 2005م.

غياب غير مبرر

ويمثل هذا الغياب، من دون شك، نوعًا من الإجحاف بحق الإنتاج الأدبي السعودي وحيوية التيارات والاتجاهات والأصوات الأدبية الناشطة داخل المملكة، أو لدى الأدباء السعوديين المقيمين في الخارج. ونحسب أن غياب الأدب السعودي عن المشهد الثقافي الناطق بالإسبانية أمر غريب وغير مبرر ويجب إصلاحه، خاصة أن إنتاجه الراهن ينفرد بعدد من المميزات سيجد فيها القارئ الناطق بالإسبانية ما يشد انتباهه ويجعله ينسجم مع أجواء السرديات والأحداث المصورة فيها. ونتحدث هنا عن مجموعة بشرية تفوق خمسمائة مليون نسمة، يُضاف إليهم مائة مليون تُعتبر الإسبانية لغتهم الثانية.

ومما قد يساعد في ترويج الأدب السعودي الحديث، أن عددًا ملحوظًا من الروائيين السعوديين قد فازوا بجوائز عالمية معروفة، شأن رجاء عالم مع "طوق الحمام" التي حازت الجائزة العالمية للرواية العربية، وأيضا محمد حسن علوان الفائز بالجائزة نفسها عن "موت



صغير"، وقد سبقهما في تاريخ البوكر الروائي والقاص عبده خال مع "ترمي بشرر". وهناك كذلك أميمة الخميس مع "مسرى الغرانيق في مدن العقيق"، التي نالت بها جائزة نجيب محفوظ للرواية.

تشهد هذه الجوائز على حضور الرواية السعودية واندفاعها، في حين يبرهن ممثلوها على نزعة إبداعية مميزة، كما لدى يوسف المحيميد في "رجل تتعقبه الغربان"، وهي أول رواية سعودية تتطرق إلى وباء كورونا من خلال حبكة سردية خلاقة. وبالنسبة إلى القرّاء الناطقين بالإسبانية فإن موضوع الأندلس له تأثير خاص، ونشهد بعض الأدباء السعوديين، مثل محمد حسن علوان وأميمة الخميس، قد تطرقوا إليه عبر مقاربات تاريخية تسقط إسقاطًا على حاضرنا، في عملية سردية مستدامة تسعى لاستعادة مفهوم الأندلس وتوظيفه بأساليب معرفية وجمالية متجددة.

مما قد يساعد في الترويج للآداب السعودية الحديثة، أن عددًا ملحوظًا من الروائيين السعوديين قد فازوا بجوائز عالمية معروفة.

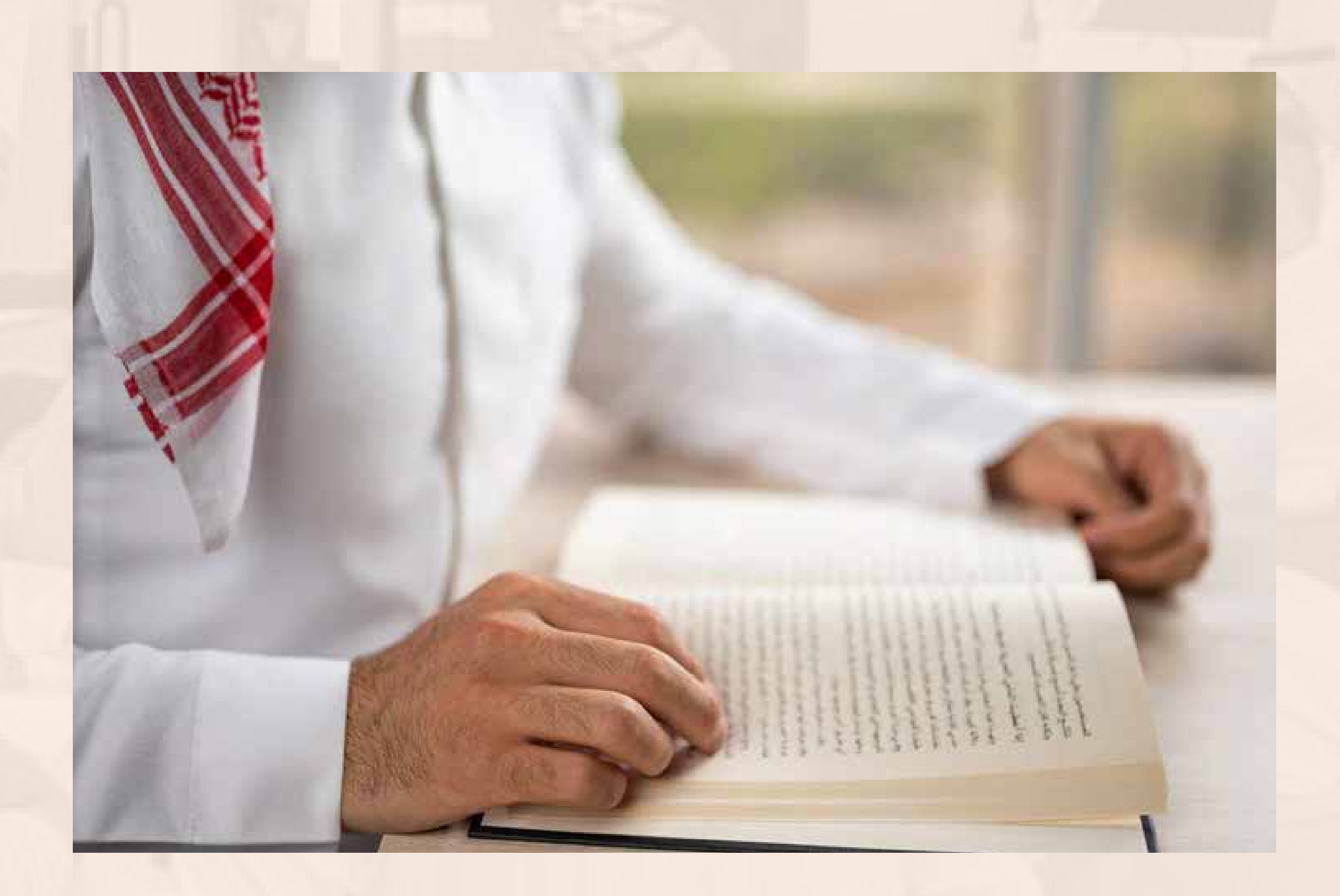
طفرة نوعية في الرواية

وأكثر ما يلفت النظر في الأدب السعودي الراهن الطفرة النوعية التي حققها مع انطلاق القرن الحادي والعشرين، بحيث تجاوزت الأجناس التعبيرية المختلفة الحدود الاجتماعية الضيقة التي كانت قد حُصرت فيها، لتصبح الرواية بالمرتبة الأولى ظاهرة ثقافية تجذب اهتمام جميع القطاعات الاجتماعية. ولا مناص من أن يثير إعجاب المتابع للمشهد الروائي السعودي التطور النوعي والكمي السريع للأدب السعودي المعاصر بالقياس إلى الركود النسبي الذي شهدناه في مراحل سابقة ليست بالبعيدة. الحق يُقال، إن هذه الآداب قطعت شوطًا بعيدًا جدًا يفصلها عن بداياتها مع بواكير مثل "التوأمان" لعبدالقدوس الأنصاري في ثلاثينيات القرن الماضي، الموصوفة في الدراسات النقدية بـ"الرواية السعودية الأولى"، لدرجة أن اللغة الروائية غدت الآلة التعبيرية الأفضل لمسايرة التغييرات الكبيرة الجارية اليوم في المملكة.

ومما لا شك فيه كذلك أن هذه النهضة الأدبية المتجددة يجب ربطها، بشكل أو بآخر، بالإقبال المتزايد للقارئ السعودي على الأدب العربي الحديث؛ إذ إن الأرقام والإحصاءات وكذلك شهادات الأدباء العرب أنفسهم تؤكد تلهف القراء السعوديين للاطلاع على الأدب العربي، لا سيما فن الرواية. فمتابعة الجمهور السعودي للمستجدات الأدبية العربية، توفّر جوًا إبداعيًا مناسبًا للكتاب السعوديين، وتشجعهم على مواصلة الكتابة والبحث عن طرق تعبيرية جديدة تلبي تطلعات القراء السعوديين والعرب الراغبين في الاطلاع على أعمال أدبية قيمة تمتعهم جماليًا وتفيدهم معرفيًا؛ وذلك لأنها تواكب بشكل صريح التغيرات والتطورات التي يشهدها المجتمع السعودي اليوم.

وسوف يجد القارئ الإسباني والأمريكي اللاتيني في هذا الأدب مواضيع ومقاربات وأساليب

الإنتاج الأدبي السعودي الراهن ينفرد بعدد من المميزات، التي سيجد القارئ الناطق بالإسبانية فيها ما يشد انتباهه ويجعله ينسجم مع أجوائها.



تعبيرية تخالف الأقوال والقوالب النمطية المعهودة السائدة عن المجتمع السعودي. وسيُفاجأ من دون شك بما يعتمر فيها من حيوية وتنوع وانفتاح. وسيجد إلى جانب الروائيين والقاصين المعترف بهم، نخبة من المبدعين والمبدعات ممن يثيرون الانتباه. ومن المفيد أن نشير هنا إلى أسماء لنساء مبدعات كفاطمة عبدالحميد وولاء الحربي وأمينة الحسن وسمية السيد ووفاء الراجح؛ إذ يسير هؤلاء في ركاب المجددين في تسعينيات القرن الماضي. كما يحسن بنا أن نشير، على صعيد الأصوات النسائية الرائدة، إلى ليلى الجهني وروايتها "الفردوس اليباب"، التي نرى فيها موقفًا معارضًا لما قاسته المرأة السعودية من تهميش وإقصاء في المجتمع المحلي التقليدي. وظاهرة "تهميش المرأة" بدورها بدأت بالتحول التدريجي، وإن لم تكن بالوتيرة المرجوة لدى الإصلاحيين الأكثر حماسة، كما نستشفّه من خلال قراءتنا لأعمال كاتبات متمكنات، مثل بدرية البشر في "هند والعسكري"، وقماشة العليان في "أنثى العنكبوت"، وعائشة الحشر في "سَقَر"، وكذلك أمل الفاران في "غواصو الأحقاف"، التي وصلت للقائمة القصيرة في جائزة الشيخ زايد للكتاب 2019م. تمسّك هؤلاء بنهجهم التجديدي في الشكل والمضمون، وانضم إليهم مثقفون ومثقفات من أمثال سعد الدوسري في "الرياض - نوفمبر 90"، وصبا الحرز في "الآخرون"، ومقبول العلوي في "البدوي الصغير"، وعبدالعزيز الصقعبي في "حالة كذب"، وأيضًا عبدالله ثابت في معالجته لآفة التطرف الديني المدمر في "الإرهابي 20"، إذ طرح عدة أسئلة واستفسارات تختزل حالة الحيرة والتذبذب التي أدت ببعض الناس إلى حضيض الكراهية والعنف.

المشهد الشعري

أما المشهد الشعري التجديدي في المملكة، فلا بد من إعارته ما يستأهله من الاهتمام، وهو الزاخر بأسماء مثل إبراهيم الحسين ومحمد الدميني وأحمد الملا وعلي العمري ومحمد عبيد الحربي، ولعلهم أكثر تأثرًا بتركة محمد العلي منهم بنموذج غازي القصيبي. ومرة أخرى نجد في الفضاء الشعري نشاطًا نسائيًا قويًا، بعد أن اقتفت شاعرات كثيرات آثار الرائدة فوزية أبو خالد، من أمثال هدى الدغفق، وقد تُرجمت بعض قصائدها من مجموعة "سهرت إلى قدري 2006م" إلى الإسبانية، وقُرئت أشعارها في مهرجانات عدة في إسبانيا وأمريكا اللاتينية، إلى جانب خديجة العمري وغيداء المنفي وثريا العريض وأشجان هندي وغيرهن الكثيرات.

تتراءى لنا هنا فرصة ثمينة للتعرف على هذا الأدب المعطاء الذي قد يغري القراء الناطقين بالإسبانية إذا وجدنا طريقًا إليه، ونأمل ألا نتأخر كثيرًا. فإن كانت أول رواية سعودية تشهد النور بالإسبانية هي "خاتم" لرجاء عالم في عام 2007م، فإننا لا ينبغي أن ندع هذا القطار السريع يمر من أمامنا دون ركوبه، مثلما حدث لنا مع الأدب العربي، الحديث منه والقديم على حد سواء، تكرارًا ومرارًا وفي مناسبات عديدة.

مشروع ترجمة الكتب

عدد المنح المقدمة



عدد اللغات (المترجم منها)

2022-2021	2023-2022
11	13

- إنجليزية
- إسبانية
- إيطالية
- نرويجية
- فارسية
- هندية
- فرنسية
- ألمانية
- كرواتية
- روسية
- ماندرينية
- تركية
- كمبودية

عدد الكتب السعودية المترجمة (اللغات المترجم إليها)

2022-2021	2023-2022
44	98

- إنجليزية
- فرنسية
- إيطالية
- إسبانية

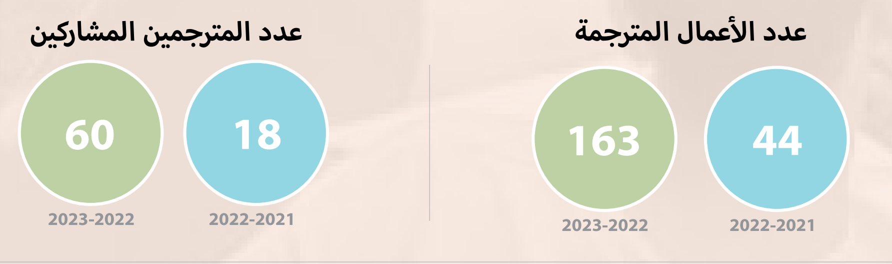
عدد المترجمين المشاركين

2022-2021	2023-2022
204	251

عدد دور النشر المشاركة



مشروع ترجمة الدوريات الأكاديمية والمجلات والمقالات الثقافية



المصدر: هيئة الأدب والنشر والترجمة.

3 الترجمة السعودية معادلة متوازنة

أحمد عبداللطيف
كاتب ومترجم مصري

منذ العصور القديمة، كانت الترجمة علامة على نهضة عصر وانحطاط عصر آخر، ونهضة مدينة وتراجع أخرى، كما كانت منتجًا ثقافيًا يفتح الأفق في بلد، ويغيب مطلقًا في بلد آخر. هكذا كان الأمر في عصر الخلافة العباسية، وتحديدًا في مدينة بغداد لدى هارون الرشيد وابنه المأمون. وهكذا كان مفهوم الترجمة في دولة الموحدين، وفي مدينة قرطبة ومراكش، ولدى أبي يعقوب يوسف وابنه المنصور.

لقد أدرك الحكام المثقفون ما قاله أفلاطون عن أن "المدينة المثالية هي المدينة التي يحكمها الفلاسفة"، فإذا لم يكن بوسع الفلاسفة أن يبلغوا الحكم، إما لأنهم لم يستطيعوا أو لم يطمحوا إليه، فواجب الحاكم السياسي أن يكون فيلسوفًا، أو محاطًا بالفلاسفة. وهو وصف اتسع ليشمل الحكماء والمفكرين. لذلك اتسمت عصور النهضة في الحضارة الإسلامية بقرب الفلاسفة من الحكام، ليس بغرض تحسين صورة السلطة، وإنما للاستفادة الحقيقية منهم. هذا ما حدث مع ابن رشد في دولة الموحدين، وابن طفيل في دولة المرابطين.

الإسهام السعودي

تاريخيًا، بدأت المملكة أولًا في خوض تجربة الترجمة الصحافية، منذ أربعينيات القرن الماضي. وبحسب مكتبة الملك فهد الوطنية، وفق ما أوردته أماني العطاس في مقال لها بجريدة الوطن بتاريخ 18 يونيو 2022م: "صدر في المملكة 2200 كتابًا مترجمًا" منذ عام 1966م حتى 2007م. ومع العقد الثاني من الألفية الجديدة، كان الالتفات أكبر لأهمية الترجمة، والانفتاح أوسع على عالم الأدب والنقد والفكر.

> **في الحالة السعودية، ساهمت جهات مختلفة في إثراء المكتبة العربية بالعديد من الترجمات المهمة.**



مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض.

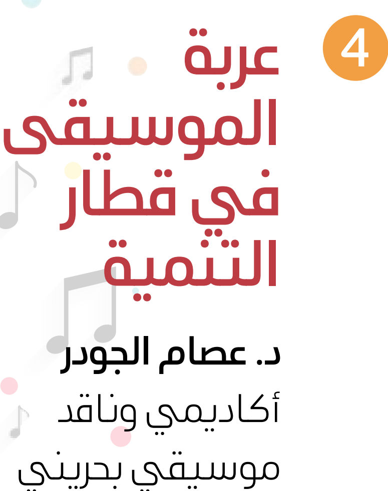
لقد ساهمت هيئات ودور نشر، مثل الفيصل ومكتبة العبيكان ودارة الملك عبدالعزيز وغيرها، في إثراء المكتبة العربية بالعديد من الترجمات الهامة. كما ساهم مترجمون سعوديون أكفاء، مؤخرًا، في اختيار وترجمة أعمال لافتة، أمثال خالد الغامدي الذي ترجم لراسل وكريستي براون وإليوت كوهين، وأحمد العلي الذي ترجم لبول أوستر ومارجريت أتوود وآيان مكيوان، وسعد البازعي وترجمته لزيغمونت باومان ووا ثيونغو، وأبو بكر بن أحمد باقادر الذي ترجم لفلاديمير بروب ويورغن أوستر هامل، ومحمد البقاعي الذي ترجم لرولان بارت وجان بروفو وجاك روسو وميشال أريفيه، بالإضافة إلى علي المجنوني الذي ترجم لكارسن ماكالرز ودكترو، وكذلك راضي النماصي، الذي يساهم بترجمات صحفية بالإضافة إلى ترجمة الكتب. هذه الأسماء نماذج قليلة من بين مترجمين تنوّعوا في منتجهم الترجمي بين الأدبي والفكري والفلسفي.

ربما حققت الترجمة السعودية معادلة متوازنة في اختيار الكتب المترجمة، ورغم انتصار الرواية المترجمة في أغلب دور النشر العربية، خاصةً الدور الخاصة، فإن حضور الكتب الفكرية والفلسفية، علاوة على الكتب التي تتناول الحضارة الإسلامية في لغات أخرى، تُعد إضافة لافتة وثراءً معرفيًا للقارئ ساهمت به الدور السعودية، تكاملًا مع دور عربية أخرى.
علاوة على إسهام دور النشر والمترجمين، ثمة إسهام آخر في مجال الترجمة. أشير بالتحديد إلى مجلة "الفيصل"، وهي مجلة ثقافية مفتوحة على العالمين العربي والغربي، وتسلط الضوء على الأدب الأجنبي والكُتّاب الغربيين؛ لتعطي صورة عن المنتج الثقافي الحالي في أرجاء العالم. وهناك منصة "معنى"، وهي منصة ثرية بموادها الثقافية التي لا تغيب عنها المواد المترجمة. وأعتقد أنها إحدى أهم المنصات العربية التي تقدم المحتوى سواء عربيًا أم مترجمًا.

في النهاية، أود الإشارة إلى هيئة الأدب والنشر والترجمة، التي تأسست عام 2020م. ففي فترة وجيزة ظهر نشاطها ملحوظًا، وتضمَّن دعم مشروعات الترجمة المقدمة إلى دور النشر الخاصة والمترجمين. وثمرة هذا الجهد كان ترجمة لـ336 كتابًا في العام الماضي 2022م؛ إذ بتخفيف عبء تكلفة طباعة الكتب وأجور المترجمين عن دور النشر، تمهدت الأرض لمزيد من التوسع الثقافي واستغلال كفاءة المترجمين. بهذه الوتيرة، سيكون مشروع الهيئة أحد أهم المشروعات الثقافية العربية المعاصرة.

أخيرًا، كل هذا النهر المعرفي سيصب في بحر الثقافة العربية ككل. هذا ما يمكن أن نسميه بالتكامل بين الأقطار العربية ومد الجسور الثقافية، ليس فقط مع الغرب، وإنما أيضًا مع دول الجوار. بشكل مباشر، الترجمة علامة النهضة. وبشكل غير مباشر، هي الرابط الثقافي بين مواطنين يعيشون في أقطار مختلفة.





4 عربة الموسيقى في قطار التنمية

د. عصام الجودر
أكاديمي وناقد موسيقي بحريني

شهدت دول منطقة الخليج في العقود الثلاثة الأخيرة طفرة ثقافية، وقد توجتها المملكة العربية السعودية خلال العقد المنصرم بقفزة كبيرة، ليست ثقافية فحسب، بل علمية ورياضية واجتماعية واقتصادية، وهو ما يعكس الوعي السياسي في المنطقة بأهمية الثقافة في الدول لما تشكّله من هوية وطنية.

وسنركّز هنا على الجانب الموسيقي في المملكة كتجربة حديثة وثرية. فالمناخ الموسيقي الحضاري لا يقتصر على تقديم فعاليات موسيقية أو غنائية إلّا بضمان الأداء الاحترافي. ومن هنا حرصت الهيئة العامة للترفيه على الاستعانة بكبار الموسيقيين والمغنين لتقديم عروضهم على مسارح المملكة الحديثة والمزودة بآخر ما توصلت إليه التكنولوجيا من أجهزة صوتية وضوئية، وبإشراف فنيين على قدر كافٍ من القدرة والاحتراف. ومن الملاحظ أن حجم هذه الطفرة الموسيقية في المملكة كبير نسبةً إلى الزمن الذي قدمت فيه الفعاليات الموسيقية. الأمر الآخر هو التنوع في البرامج الذي يشتمل على الفنون الشعبية والأغاني المحلية والعربية. واللافت أن كثيرًا من الحفلات التي يُحييها النجوم العرب لا تخلو من مشاركة فناني المملكة، وهو توجه واعٍ وناضج يحرص فيه القائمون على هذه الفعاليّات على جذب الجمهور وإحياء الفنون العربية دون أن يكون ذلك على حساب الفنان الوطني.



حجم الطفرة الموسيقية في المملكة كبير نسبةً إلى الزمن الذي انطلقت فيه الفعاليات الموسيقية.

لا شكَّ أن المملكة العربية السعودية تعمل ضمن خطّة إستراتيجية للنهوض بالثقافة والفنون، وبالتوازي مع المشاريع التنموية الأخرى الاقتصادية والسياسية والعلمية والفكرية والرياضية وفق رؤية 2030. فعلى الصعيد الموسيقيّ، خطّطت ونفذت مشاريع تنموية موسيقية في وقت قياسي وبشكل متسارع لكنه مدروس. ومنها برنامج "طروق السعودية"، الذي يتبع هيئة الموسيقى وبالتعاون مع هيئة المسرح والفنون الأدائية بهدف حفظ الموروث الموسيقي والأدائي وصونه؛ ما يعكس الفخر بالتراث الوطني والحرص على استمراره عبر الأجيال. إذًا، فالجانب المستجد في الجزيرة العربية ليس هو الاكتفاء بتقديم العروض الفنية، بل السعي لتوثيق التراث الشعبي وحفظه كهوية وطنية ومادة للاستلهام من قبل الفنانين السعوديين.

ولا تقتصر النهضة الموسيقية على الأنشطة والفعاليات الرسمية، بل تتجلّى في حجم مشاركة الجمهور ضمن هذه البرامج وإقباله عليها بنهم مهما بعدت المسافة أو ارتفعت التكلفة، ما يعكس حب الموسيقى والشغف بها لدى شريحة كبيرة من المجتمع. ومن أبرز الحفلات الموسيقية والغنائية هو حفل الملحن الراحل محمد الموجي، الذي قُدِّم بشكل حضاري ومميَّز شارك فيه أهم المغنين العرب والسعوديين، وأبرز العازفين المحترفين، كما حضره جمع غفير من الجمهور، وتابعه فضائيًا محبو الموسيقى العربية في المملكة والوطن العربي.

ومن أجمل شواهد حب السعوديين للموسيقى والغناء أن ارتباطهم بهما لا يقتصر على الحضور، بل يشمل المشاركة بالعزف والأداء. فمنذ صدور قرار الهيئة العامة للترفيه في يناير 2019م بإصدار تصاريح لإقامة العروض الحيّة وعزف الموسيقى والأغاني، خرجت إلى الساحة الكثير من المواهب السعودية في العزف والغناء لتمارس شغفها في العزف في المقاهي والمطاعم المنتشرة في أنحاء المملكة، ما أتاح للجمهور الاستمتاع بفنهم وإبداعهم.

ولا يمكن أن تنهض أي حركة موسيقية في بلاد ما من دون تأسيس معاهد موسيقية علمية ورسمية تستقطب المواهب منذ سن مبكرة، لتتمرس بالعزف على الآلات الموسيقية المختلفة إلى مستوى احترافي قد يصل بها في يومٍ ما إلى المنافسة العالمية. وهذا ما حقّقه قرار وزارة الثقافة بإنشاء أكاديميتين للفنون، تختص الأولى بالتراث الشعبي والفنون التقليدية، بينما تهتم الثانية بتعليم الموسيقى متمثلةً في المركز السعودي للموسيقى. وجديرٌ بالذكر أنّ المعهد لم يُفتتح في مدينة واحدة في العاصمة، كما دأبت على ذلك كثير من الدول العربية مهملة باقي المدن، بل الجميل في هذا المشروع العلمي الموسيقي الطموح هو افتتاحه في عدّة مدن تغطي أنحاء المملكة هي الرياض وجدّة والخُبر. مرة أخرى، نلحظ العمل المتوازي الذي يعكس الروح الحضارية للمملكة والرؤية الإستراتيجية التي ترسم خطاها للتنمية، تتجسد في افتتاح عدة فروع للمعهد في فترة واحدة.

وممّا يُحسب لحراك الوعي الثقافي والفني لدى المجتمع السعودي هو محاكاته للحركة الثقافية الموسيقية، بالشروع في تأسيس المعاهد الخاصة لفتح المجال لتعلم الموسيقى، ليس بالضرورة للمحترفين ولكن للهواة أيضًا، مثل معهد البيت الموسيقي العالي للتدريب، وأكاديمية جدّة لتعليم البيانو والباليه، وبيت الموسيقى في الرياض. والرائع أن تدريس الموسيقى لا يقتصر على الرجال، بل يشمل النساء أيضًا، وهو ما نلاحظه في دور العازفة عُلا الدوسري التي تقوم بتعليم العزف على آلة العود.

إن الطفرة الموسيقية في المملكة مثال كبير يكشف كيف أن الإرادة السياسية تستطيع أن تعجّل النهضة الثقافية وتضعها في المكانة اللائقة في سماء الفن والموسيقى على المستوى العربي، بل تتعداه أيضًا للمستوى الدولي.



مجموعة "دامسة" مثالًا

جدلية الإنسان والمكان عند محمد علوان

قبل أسابيع، غيّب الموت الأديب محمد علي علوان، هذا الرمز البارز من بين رموز القصة القصيرة في المملكة العربية السعودية. فهو من جيل الوسط الأدبي الذي يقف على الحد الفاصل بين تجربة القصة التقليدية، والقصة الجديدة. وهو أحد بناة القصة الحديثة منذ منتصف السبعينيات الميلادية مع رفاقه من كتّاب القصة أمثال سباعي عثمان وحسين علي حسين وجار الله الحميد. وفي وقفة تحية للقاص الراحل، نتناول هنا جانبًا من منظوره الإبداعي انطلاقًا من إحدى مجموعاته القصصية على سبيل المثال لا الحصر.

د. حسن النعمي

للقاص محمد علي علوان تجارب عديدة، نوّع فيها بين موضوعين أثيرين هما المكان والمرأة. بدءًا من مجموعته الأولى "الخبز والصمت"، ومرورًا بسلسلة أعماله الأخرى "الحكاية تبدأ هكذا"، و"دامسة"، و"تهلل"، وغيرها. واللافت للانتباه في تجربته القصصية أنه ظل مواكبًا للأجيال التي جاءت بعده، متطورًا، ومستشرفًا لآفاق فنية متجددة. فمن تجاربه الأخيرة قصة طويلة بعنوان "موز ريدة"، وفيها نفس روائي ممتد، وكأنه يرتاد تجربة جديدة يعبر فيها عن فضاء أوسع وحركة ممتدة من الأحداث والشخوص. ولمراجعة أدق لتجربة محمد علوان القصصية، اخترنا تركيز الضوء هنا على مجموعته القصصية الثالثة "دامسة"، وهي تجربة تحتفي بالمكان بوصفه مكونًا سرديًا يوحي بعمق العلاقة بين الإنسان والأمكنة من حوله.

المكان هو ما يكوّن شخصيات قصصه

تمثّل مجموعة "دامسة" تطورًا نوعيًا في مسيرة محمد علوان السردية. ففي معظم قصص هذه المجموعة تتكون شخصياتها وفقًا لقانون المكان، وكأن المكان في هذا السياق له سلطة وجودية تلوّن وجود الإنسان بمشاعر متباينة من القلق والتطلع، ومن الخوف والأمل في الخلاص.

ويتجلّى حضور المكان على هذا النحو في اللغة المحكية التي تتسلل في تضاعيف بنية السرد، كما يتجلى في تسمية الأمكنة، واستدعاء دلالة تشي بحضور المكان. هذه بعض التقنيات التي استخدمها علوان للدلالة على المكان. ولذلك، فإن تفريغ الحدث من سياقه المكاني يفقده كثيرًا من دلالته. فالمكان بهذا الحضور الطاغي يحتل وظيفة بنائية وموضوعية تضفي على الحدث حالات استحضار مهمة.

وإذا أردنا أن نتحدث عن تشكّل الشخوص داخل البنية السردية، فإن المكان يحضر ببعديه الاجتماعي والتاريخي كجزء من التركيبة التي تُعين على تفهم نبرة الجدل الحادة بين الشخوص، ولا سيما بين الرجل والمرأة.

تأطير السلوك واللغة بالمكان

ففي قصة "امغريبة" يتحد المكان مع الموقف، بل إن الموقف جزء من حضور المكان. فالقصة في نسقها السردي تحاول أن تسجل رؤية صبي لعالمه المتمثل في السوق الشعبية "الاثنين" ذات الدلالة الاحتفالية الطقسية، حيث اللقاءات الجماعية وتداول السلع التي تشي بخصوصية المكان كالسمن والعسل. لكن التساؤل الذي حاولت القصة أن تثيره يكمن في مفارقة علاقة المرأة بالمكان. فحضور امغريبة، وهو لفظ يشي بحضور المكان من خلال استنطاق لهجة جنوبية تغدو معه الشخصية مؤطرة بحدود المكان، هو حضور المرأة الذي يصبح في هذا السياق مقيدًا بسلطة الرجل. امغريبة تحضر في جو المكان، لكن حضورها سرعان ما يقيد لأسباب أخلاقية بحتة تفرضها سلطة الرجل.

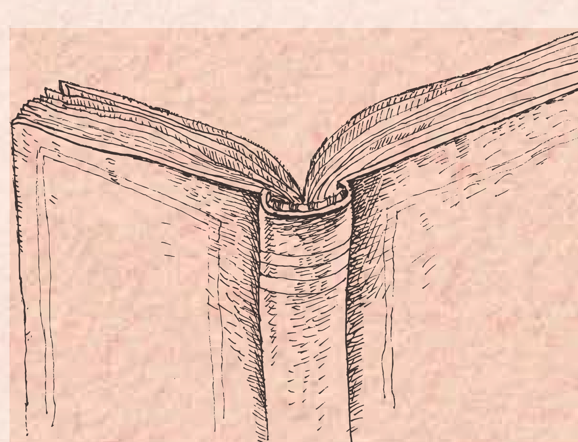
فالمكان يسمح بحضور الرجل والمرأة، لكنه حضور مقيد بسلطة الأول. ولذلك فإن الحضور يصبح انتقائيًا وهامشيًا مجردًا من المصداقية. فالقصة تؤسس من خلال الرموز الدلالية في بنية المكان إشكالية اجتماعية تجسد أبوية الرجل وسيادته وانتقائيته في التعامل مع المرأة. وإذا كان المكان الذي تصوره القصة يسمح بحضور المرأة، فإنه حضور مقيد بشرط الرجل. ولذلك يأتي النفي أو الحجب ليؤكد أهمية عنوان القصة، ومن ثَمَّ الشخصية "امغريبة"، وهي غربة لم تبحث عنها المرأة، بل فُرضت عليها، فتحولت من معلومة إلى مجهولة، ومن معروفة إلى غريبة. لقد نُفيت وحُجبت لأنها امرأة تود أن تمارس حضورها في سياق يحكمه قانون المكان.

بين ما يتيحه ويمنعه الواقع

أما قصة "دامسة"، فتصور المرأة بوصفها شخصية تبحث عن الرجل الذي ينقذها. وتُظهر هذه القصة خشية المرأة من مغامرة الرجل في سياق يقلل من فرص اللقاء. غير أن الرجل في القصة يسقط في خيبته وتردده، فرغم أنه قد تولّه بدامسة، فإنه قد عجز أن يخطو خارج هواجسه.



وإذا نظرنا إلى قصة "دامسة" ضمن سياق سردي يجعل من المكان سلطة عليا، نجد أنها قد عبّرت على نحو ما عن علاقة الرجل بالمرأة كبعد واقعي سواء في خصوصية المكان أو تاريخية الحدث. غير أن سيكولوجية العلاقة بين الطرفين في هذه القصة، وانهزام الرجل أمام نفسه وأمام مجتمعه، تجعل من المرأة فانتازيا تقترب من ميتافيزيقية الجن. فدامسة ليست إلا ذاكرة البطل المغلقة، والمضطربة أمام جلال المغيب، كما أن دامسة المغيبة بفعل طقس اجتماعي تغذي قلق البطل الذي تحول إلى صراع مع قوى تحرص على كسر إنسانية العلاقة.



فالبطل، وقد أحب دامسة، وجد نفسه منذ البدء متهمًا في عقله. فدامسة لا تخاطبه إلا لتدعو بزوال عقله: "الله يأخذ عقلك". ورغم أن السياق الذي قيلت فيه، يفصح عن أن هذه الجملة تُعد تعبيرًا شعبيًا يكتنفه إعجاب ما من قبل دامسة، فإن الدلالة تبدو أكبر إذا رُبطت بالتحول الذي أحدثته القصة في علاقة البطل بها. إن دلالة ذهاب العقل وتغييب المرأة عن جو النص وفصل العلاقة بين البطل ودامسة أحالت هذه العبارة (الله يأخذ عقلك) إلى "موتيف" يحكم وضعية العلاقة في مجتمع يكرس العزلة بين الطرفين.

فعل القتل بين القراءات المختلفة

تأخذ علاقة الرجل بالمرأة في قصة "العرس" بعدًا أحدَّ. فالمرأة لا تشبه في ملامحها دامسة أو امغريبة، بل ترفض السقوط في عتمة الرجل، وتصل إلى حد نفيه عن طريق قتله. فتبتعد القصة من فوضى التعميم إلى التخصيص، ليس لأن الحادثة حالة فردية، بل لأنها تجسد رفضًا مطلقًا للوصاية والقمع والتهميش.

تحفل هذه القصة بسرد سيرة حب لامرأة أوغلت في حب زوجها حتى نسيت أن هناك عالمًا خارج حدوده. غير أنه وقد "شعر أنه الفضاء الممتد الذي لا بد أن تطير فيه طيور أخرى"، نقض العهد والولاء. ولم تعد المرأة تشعر أنها الطائر الوحيد في سماء زوجها، فقد خانها أو تزوج عليها. ومهما يكن، فقد سقط شيء بينهما. شعرت المرأة بأنها وجود غير متحقق في عالم الرجل، أو أنها بالأحرى وجود استثنائي وهي التي نذرت نفسها له فقط من أجل الحب المطلق. لقد شعرت المرأة بخيبة أملها في الرجل وهي التي اتكأت عليه، وأعطته أعز ما تملك من نسغ الروح. ولذلك جاءت ردة فعلها مدمرة ليس تجاه الرجل وحسب، بل تجاه ذاتها أيضًا.

نجحت القصة في تكثيف حدث القصاص من المرأة، قاتلة زوجها وحبيبها. فقد استخدمت تقنية اختزالية عبر تقطيع السرد والإيحاء بالفراغ لنقل الحدث من حالة تتطور عبر أزمنة طويلة إلى لحظة كانت المدينة فيها حزينة في يوم سوقها. إن المتقابلات التي تحشدها القصة للوقوف في خندق المرأة القاتلة متعددة، تبدأ من أن المدينة لم تزدن بالنساء كرمز لرفض المصير الذي تنتظره الأنثى، وتنتهي بالوادي الذي لم يجرِ بالنساء الجميلات. فالإيحاء بأن القتل وقع دفاعًا عن الذات جعل النساء يقفن



المكان هو ما يشكّل الشخصيات، وتتضح هويته باللغة المحكية والقيم التي يفرضها، بل حتى في ردود أفعال هذه الشخصيات.



على حافة المدينة، ربما يترقبن مصيرًا محتومًا لا يردنه. غير أن القصة تثير دلالة حضور السلطة القابضة على المدينة، ليس باعتبارها سلطة الرجل ضد المرأة. ولهذا، فإن القصة تنتهي بتفوق الرجل عبر إراقة دم المرأة، غير أنها تؤكد طقسية القتل بالنسبة للمرأة، وكأنها في عرس حضرت إليه منتصرة لذاتها ولجنسها.

إن قراءة هذه القصة على أنها سيرة لامرأة قاتلة تُقاد لحتفها تقلل من شفافية الرؤية التي تتشكل من خلال حدث مباشر في بنيته. غير أنه يمكن قراءة حدث القتل كرمز للتهميش والإلغاء. فالقتل في هذا السياق يصبح قتلًا معنويًا لحضور المرأة في بعدها الاجتماعي وفي صراعها الأزلي مع نصفها الآخر.

على حافة الفانتازيا

أما قصة "العسل الأسود"، فهي قصة تختلط فيها الوقائع المادية بالفانتازيا. فتتحول الدلالات من حيز ضيق إلى فضاء غير محدود من التأويل الأسطوري. تسرد القصة في بدايتها تجربة واقعية تاريخية تتمثل في طقس الختان كممارسة اجتماعية احتفالية رغم ما تثيره من متاعب للفرد الذي يمر بأهم تجربة في حياته من خلال هذا الطقس. ومن هنا تنطلق القصة لتبني الرؤية الفانتازية حيث يغدو العسل الأسود رمزًا للتعبير عن الطموح الممزوج بالخوف والترقب.

تجسد القصة ملمحًا من معاناة الفرد أو الرجل في مرحلة الصبا من خلال طقس الختان. والختان هو طقس العبور إلى الرجولة في ذهنية بعض المجتمعات. وهو جزء من تهيئة الفرد لمرحلة أكثر مشقة وتحملًا للمسؤولية. فالفرد في المجتمعات سواء كانت بدائية أم متحضرة يخرج من رحم الطفولة إلى عالم أكثر تحديًا، لكنه في بعض المجتمعات يخضع لامتحان الرجولة، فإما أن يكون قادرًا على العبور أو يسقط في الهامش.

نجحت القصة في الاتكاء على هذا الطقس بأن جعلته محورًا أساسًا للتعبير عن مأزق الفرد في محيطه. فالمكان في هذه القصة لا يقل حضورًا عنه في القصص التي تقدم ذكرها. ذلك أن تاريخية الحدث والتدليل عليه بطقسية اللغة استدعى بنية واضحة المعالم ، لكن ما يجعل هذه القصة تكسر طوق المكان في دلالته الضيقة، هو أنها جسدت استلاب الفرد داخل سياق الجماعة لتتحول معضلته من خصوصية مكانية إلى عموم الانتماء العربي، وربما في سياق الانتماء الإنساني الأكبر.

فالقصة لم تكن تسجيلية وصفية لحدث الختان، بل تجاوزت التسجيل إلى البحث عن موقف الفرد من استلابه وعدم قدرته على الخلاص. وهنا تتحول القصة من الواقعي إلى الغرائبي مؤكدة استحالة أن ينمو الفرد بعيدًا عن الجماعة التي هي محكومة بدورها بنسق من العلاقات الاجتماعية المعقدة. وتنتهي القصة بخراب ودمار ينسب إلى الجهل والإهمال. وفي هذا رؤية مباشرة تؤكد البعد النقدي الذي سعت القصة لبلورته.

وعلى المنوال نفسه، تحضر ثيمة العلاقة الجدلية بين الإنسان والمكان في باقي قصص المجموعة، مثل قصة "شارق"، وقصة "ص. ب" التي تجسد اغتراب الفرد المادي؛ إذ يشكل حضوره كعامل في هذا البلد فراغًا نفسيًا يجعله فريسة لانتظار ما لا يأتي من رسائل يُفترض أن تأتيه من وطنه. فينتفي حضوره ووجوده النفسي بشكل متزامن في المكانين، ولا يبقى إلا حضوره الذي يتحول إلى قيمة خالية من حضور الفعل الإنساني في حياته.

باختصار، تعد هذه المجموعة إضافة مهمة ليس فقط بالنسبة لقصص محمد علوان، بل لمسيرة القصة السعودية التي أخذت على عاتقها التعبير عن هموم الفرد في سياقه الاجتماعي والتاريخي.

الرواية.. فنّ التواضع

أحمد سعداوي
كاتب وروائي عراقي

في كتابه "كتابة الرواية"، يضع الناقد والروائي البريطاني "جون برين" جملة أساسية: "باستطاعة أي إنسان أن يكتب رواية أولى ناجحة". وهو يخصّص كتابه هذا، الذي صدر أول مرّة بالعربية عن دار الشؤون الثقافية ببغداد في منتصف التسعينيات، لأولئك الذين ينوون كتابة روايتهم الأولى.

يُشير برين، كما يُشير نقّاد آخرون ومؤرخون لفنّ الرواية، إلى حقيقة أن الكثير من الأعمال الروائية الأولى لكتّابها تستند في جزء كبير من مادّتها على الخبرات الشخصية للكاتب، فتبدو هذه الأعمال وكأنها تنويعات على السيرة الذاتية، أو سيرة مبطّنة. وبشكل عام، يتسرّب دائمًا جزءٌ من المادة الذاتية في نسيج الرواية، ولكن الروائي الناجح، بحسب قول "غارسيا ماركيز"، من ينجح في إخفاء غُرَز الخياطة.

إن هذه الرواية الأولى تمتاح من مادة متوفّرة، هي تجربة الكاتب الشخصية، إخفاقه الخاص في الحبّ، تجربته مع الحرب، ملامح أناس عايشهم وتأثر بهم. جوهر المعاناة التي يخوضها بطل الرواية تكاد تكون منتزعة من المعاناة الخاصّة للكاتب. ولكن، ماذا عن الرواية الثانية والثالثة والرابعة؟!

لا يعيش غالبية كتّاب الرواية حول العالم حياة غزيرة التفاصيل ومليئة بالأحداث والمغامرات، على عكس "هيمنغواي" مثلًا، وبالتالي لا توفّر الحياة الشخصية للكاتب مادة ثرية لسلسلة من الروايات. إن الكاتب محكوم بشرط بشري قاهر؛ إنه، مثل البقيّة، أسير خياراته الخاصّة في الحياة. وبالتالي هو يتدرّج في مسار محدّد يوفّر له نوعًا من التجارب، التي تكون محدودة في نهاية المطاف؛ فلا يستطيع هو كشخص أن يخوض في كلّ المسارات في الآن والوقت نفسه.

إن الرواية الأولى، استنادًا إلى كلام جون برين، لا تحدد هوية الكاتب وجدّيته واحترافه، وإنما الثانية وما بعدها، فهناك سيكون أمام تحدٍّ مختلف؛ أن يخرج للناس ويجمع مادته منهم.

في محاججتي الخاصّة حول الأنواع الأدبية، كثيرًا ما قلت إن المحدّد الأبرز ما بين الشعر والسرد، قصّة وروايةً، هو أن الأول صوتٌ ذاتي، بينما الثاني هو صوت المجموع، صوت الآخرين.

إن الروائي الناجح، أو فلنقل الخبير في مجاله، هو من يتخفّف من أناه وينصت إلى أصوات الآخرين، ويجعل في عمله فسحة لهذه الأصوات كي تعبّر عن نفسها، ولا تكون كل الشخصيات صوتًا للمؤلف، أو لا يكون الصوت المفرد للبطل الأساسي في الرواية طاغيًا على ما سواه.

ولهذا السبب، فإن العديد من الأعمال الأولى تكون ذات مزاج شعري، ونراها تفسح الباب على مصراعيه لصوت البطل الفرد. إن الرواية الأولى هنا هي فسحة التعبير اللغوي المتأنق والحاذق عن صوت الكاتب نفسه. إنها تعبير عن حاجته الملحّة كي يسمع الآخرون صوته.

يكتب الكثير من الكتّاب الموهوبين، بالطبع، أعمالًا أولى ناجحة، حتى وإن امتاحت بشكل أساسي من التجربة الشخصية. وهناك كتّاب يكتبون أعمالهم الأولى ولا ينشرونها، فيحرمون المتتبّع من فرصة التعرّف على فخّ الذاتية المفرطة في الكتابات الأولى.

الوصول إلى سنّ الرشد الروائي، إن جاز التعبير، يكون بإدراك الكاتب أن الرواية صنعة وليست بوحًا. فصاحب البوح لا يرى العالم وإنما يريد أن يُرى. وفي سبيل مسعاه هذا قد لا يهتم لاشتراطات الصنعة الفنيّة، فيكون المهم والثانوي في الأحداث والتفاصيل بالنسبة له ككاتب، ما هو مهم وثانوي بالنسبة له أيضًا كشخص. فيفرض خيارات الشخص على الفنّان.

هناك نصيحة قد تبدو قديمة وشائعة، ولكني أراها فعّالة؛ أن يبدأ المهتم بالتجربة السردية مع القصّة القصيرة، وحين ينال الاعتراف به أديبًا متمكنًا يستطيع بعدها أن يدخل إلى عالم الرواية. وسبب تفضيلي لهذه النصيحة أن فضاء القصّة القصيرة، المحدود لغويًا وقليل الشخصيات والأحداث، لا يتيح للكاتب أن يسترسل ليمتاح من مخزونه العاطفي فيقلّب صفحات الذاكرة على مهل ومن دون عائق. إن الكاتب مع القصّة القصيرة مجبر على الانتباه إلى الجودة الفنية وإبراز القدرة الأدبية في عدد محدود من الكلمات. لذلك، حتى مع عدم رواج فنّ القصة القصيرة اليوم، وإغراء البداية السريعة في كتابة الروايات، فإنها منطقة مهمّة للتدريب واكتساب اللياقة الأدبية لأي كاتب يريد خطّ مسار جدّي مع فن الكتابة الأدبية، والروائية منها تحديدًا.

في الرواية الثانية والثالثة وما بعدها، قد يصل الكاتب إلى بعض المفاتيح الأساسية لعلاقة الكتابة بالتجربة الحياتية، ومنها: أن الكتابة الأدبية تعتمد على التجربة الحياتية ولا شكّ، ولكن ليس الأحداث والقصص والعلاقات الاجتماعية بالضرورة، وإنما تفسيرنا لهذه التجارب، وكيف نستخرج منها تصورات ومفاهيم أساسية. وبالتالي مع أي مسارات درامية متخيّلة، يستطيع الكاتب أن يتمثّل فيها تلك التصورات والمفاهيم التي أنتجها التأمل والتفكّر في التجارب الحياتية الشخصية والعامة. إن العنصر الحيّ في التجربة المتخيّلة المكتوبة سيكون قادمًا من تحليل الكاتب للتجربة الشخصية أو "المُحايَثة" (تجارب أناس مجاورين ينفعل معها) ليصل إلى جوهرها العام. هذا الجوهر الذي يتبدّى بأشكال مختلفة، لا بشكل واحد جاءت به التجربة التي نعرفها أو خبرناها.

الكاتب مع الرواية الثانية والثالثة وغيرها لن يرى التجارب الشخصية مقدّسة، وأنه مجبر، عاطفيًا بالدرجة الأساس، على تسريبها كقطع كبيرة داخل أعماله الأدبية. إنه منجذب هنا إلى معمار التجربة المتخيّلة التي يبتدعها، ويعبئها بتفاصيل صغيرة قادمة من مداومته على تحليل وتفكيك التجارب، أيًا كانت، شخصية أم عامّة.

إن الرواية، على وفق هذا التأمل، هي مَشغَل معرفي، بقدر ما هي مشغل فنّي وبلاغي. إنها لا تعكس فقط خبرة الكاتب مع اللغة وإمكاناتها، وإنما انشغال الكاتب بالمجتمع وشؤونه ونماذجه البشرية، ومفارقات القدر الإنساني، وتناقضات الحياة.

والرواية في هذا المسار تعكس تواضع الكاتب وتقديره للوجود الممتلئ والمعقّد للآخرين، على قدم سواء مع إدراكه لتعقيد ذاته الشخصية وامتلائها.



حصونُ الجِنّ

محمد الدميني

قهوةُ أمّي

في الفجرِ البارد
في الفجرِ الذي يُشْبه قهوةَ أمي
الذي أستَنْهضُ فيه العصافير
من سُباتها
يهبطُ عليّ حلمٌ نحيل
يسكنُ فِراشي ، وأطردهُ
لكنه ينْشبُ أظافرهُ
في لياليَّ الماضية .

في نومي . . .
حصونٌ تسكُنها الجنّ ، ظلماتٌ
تتكسر فيها البروق ، قمرٌ ساهرٌ
في شقوقِ المنزل ، أمطارٌ
تسيلُ لتغسلَ حبرَ واجباتنا
المدرسيّة ، بَقَرتُنا المنزلية
تسكن قرب نومنا ، البرقُ
الوهّاجُ يندلقُ تحت الأبواب ،
المؤذنُ الذي يصفو صوتُه
ينذرُنا بالأقدار التالية ، وهمسُ
الأوراقِ المتساقطة التي لم
تعُد تحتاجها الأشجار ، والنّباحُ
الأليفُ الذي يشبه شمسًا وسط
الليل . . .

وضعْتُ هذا الليل بين دفاتري ،
وحين تسوَدُّ سمائي
أو تُجْدبُ ينابيعي
أو تغادرُ العصافير أصواتها
سيَحْرثُ الليل
كلَّ نهاراتي
وسيبقى الجنُّ عالِقين
في أحْلامي
لأنهم
شريطُ التّرفيه الوحيد .

فراشةٌ ضالّة

هذه الفراشةُ الضالّة
تقتحمُ منزِلي
تتعثَّر علىِ الأرض
لكنَّها تنهضُ
وصوتُ جناحيْها
يوقظُ هوائيَ السرّي .

لكي أنْجُو من جَريمة اختطَافِها
منحْتُها طريقًا إلى مائدتي
وأشعلتُ ضوءَ الممرّ
لكنها غابَتْ
وخمّنتُ أن ظلامَ الغرفِ قد
التهَمها . .

في العزلةِ
تطرقُ الكائناتُ الأبْواب
المنزلُ ليسَ مهيئًا لانتظارِ أحد
والجدرانُ يتسلّقها الغُبار
ولا فُسحةَ للذكريات
وتمنّينَا أن نقايضَها بحياةٍ
جديدة
لكن الكائنات تسكنُ اللّيل
فلا تمُوت .

فوقَ ضوءِ طاولتي
وجدْتُها هُناك
تهبطُ فوقَ أوراقِي
وتتسلّقُ يَدَي
وبعد قليل
ستُودّعُ عُمْرَها القصير .

زيْتون

حينَ كَبرْتَ اعتقدتَ
أن الزمنَ يشيخُ أيضًا
لم تعرفْ
أنكَ غيمة عابِرة
تجْرفُها الرياحُ
نحوَ أرضٍ لا تعرفُها . .

لم تعرفْ
أنكَ غيمة شاحبة
تستنجدُ بأضواءِ الشفقِ
لكي تصبحَ ذا معنًى .

لم تعرفْ
أنكَ غيمة معبأة بالسنواتِ
والشهداء الذين ماتوا
ولم تَرْثِهمْ طلقةً واحدة
وعاشَ زيْتونهم
فوق تلالٍ من الأنين .

كَبْرتَ
ولم تعرفْ
أنكَ نسلُ البراكينِ الخامدة
التي شاهدْتَها خلسَةً
في كتابِ الجغرافيا

كَبرْتَ ولم تعرفْ
أنكَ غيمةٌ عابرة
وستخترقُكَ السّهام
دونَ أن تمنحَ الرُّماة
قطرةَ ماءٍ واحدة .

قمرٌ منسيّ

أيها القمرُ
الذي نسيْتهُ بين حكَايا
الجدّات
وفرائص الليلِ البارد
أحبّك .

أحبّكَ لأنكَ ستهبطُ
بنوركَ القُدسي
وترأف بالأغنامِ المذعورةِ
وستقاوم البروقَ
التي ستهبطُ فوق صخرةْ
وتُرْعب أشجارَنَا الغافية .

أيها القمرُ
الذي لم أحبّ في ضوئهِ امرأة
أحبّكَ
هكذا أصنعُ لروحِي
بنفْسجةً للنّسيان .

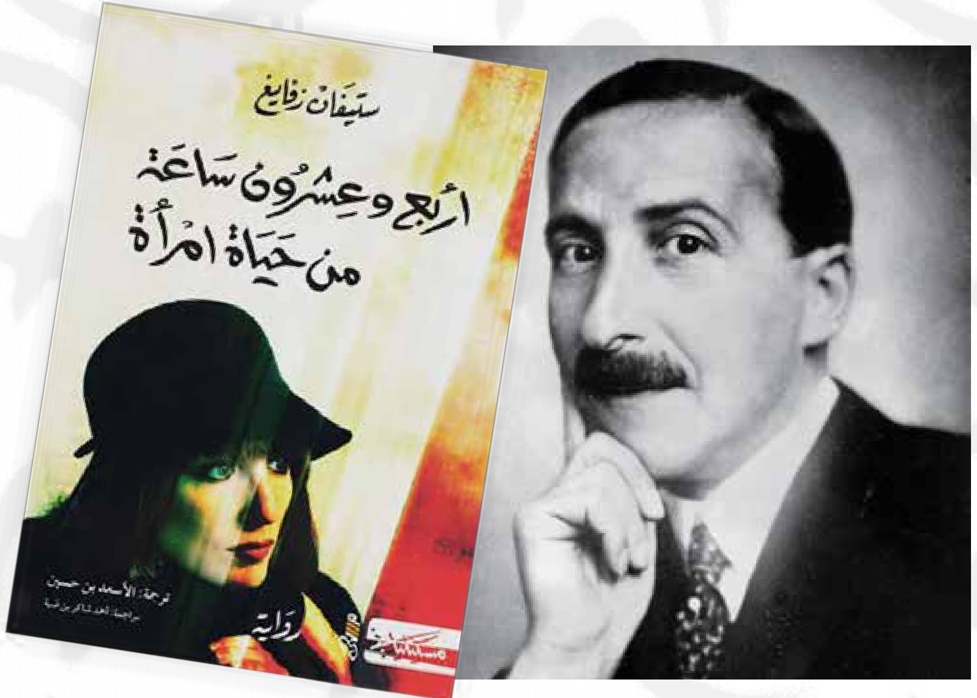


الانفعالات بوابة الحياة والموت في الرواية

"لا ترد وأنت منفعل هكذا".
"لا تتخذ قرارًا تحت تأثير الانفعال".
"هذا تصرف انفعالي لا يليق بك".
هذه العبارات التي نستخدمها يوميًّا، تؤكد من جهة أن الانفعال جزء من حياتنا، ومن جهة أخرى أنه رد فعل غير عقلاني. وهذه رؤية متغلغلة في الوعي الثقافي، نجد جذورها في فلسفة أفلاطون المثالية. ولكن الانفعالات انتظرت نحو 1800 سنة حتى تسترد شيئًا من حقها عندما أعلت الفلسفة الوضعية من شأن المعرفة الحسية. والآن، صرنا نعرف أن البشرية تدين باستمرارها للانفعالات أكثر من العقل؛ فبالانفعالات كان الإنسان البدائي يدرك الخطر ويتصرف بسرعة للنجاة.
ولأن الرواية هي التمثيل الأصدق للواقع، نستطيع أن نقرأ فيها مكانة الانفعالات، وندرك أهميتها ودلالتها وخطورتها عندما تظهر بإفراط وعندما تغيب.

عزت القمحاوي

برع ستيفان زفايغ في وصف الانفعالات بدقة، حتى إن حركات الأيدي في قصصه هي ما يفضح المقامرين ولاعبي الشطرنج.



ستيفان زفايغ.

"لقد سقطتا معًا ميتتين فعلًا، لا فقط منهكتين. سقطتا بتعبير واضح عن الانهيار والخيبة، محطمتين وخائرتين بشكل تعجز كلماتي عن وصفه. فلم يسبق لي من قبل، ولا بعد ذلك، أن رأيت يدين على تلك الدرجة من الفصاحة؛ فكل عضلة فيهما كانت فمًا ينطق بالانفعال الخارج من كيانهما بوضوح شديد". هذا الوصف قدَّمته سيدة في ممر فندق أمام زجاج صالة روليت في رواية ستيفان زفايغ "أربع وعشرون ساعة من حياة امرأة"، من ترجمة الأسعد بن حسين.

في تلك القصة، وفي سائر قصصه، يبدو زفايغ متخصصًا في المظاهر الجسدية للانفعالات. وغالبًا الأيدي التي تفضح المقامرين ولاعبي الشطرنج؛ إذ يتدرب المقامر واللاعب على تخليص الوجه من أي أثر للمشاعر أو الانفعالات، طارحًا أمام خصمه ما يسمونه "بوكر فيس"، لكن يديه تخونانه. لدى زفايغ رواية أخرى هي "لاعب الشطرنج" نرى فيها الانفعالات نفسها عبر يدين خاسرتين أخريين.

ويصوِّر زفايغ (1881م – 1942م) بالإتقان نفسه الأصابع والأيدي الظافرة، ما يجعلنا نعده سيد الانفعالات في كتابة القرن العشرين.

وبخلاف الشعر وكتاب سيرته وكتاباته الفكرية والنقدية، التي تكشف عن عمق ثقافي وعقل تحليلي، تأتي قصص زفايغ سردًا ذاتيًّا موضوعها الحب، أو بالأحرى خيبات الحب، لكنها ليست عن علاقة الرجل بالمرأة وانفعالات الحب التدميرية تحديدًا، بل تخفي مجازًا يشير إلى خسران أوروبا وخيباتها؛ إذ فقدت إنسانيتها بحربين ثقيلتين خلال أربعة عقود دِيست خلالها كل قيم الإنسانية.

بلغة فرويد، كان الخسران الأوروبي مكبوتًا لدى زفايغ. ولأنه فنان موهوب أخرج هذا المكبوت في تلك الروايات القصيرة المليئة بالعواطف المتأججة والخسارات الفادحة. لكن الكتابة لم تكن علاجًا كافيًا، فقاده مكبوت حزنه وإحباطه من دموية أوروبا إلى الهجرة إلى البرازيل، حيث لم يجد التوازن النفسي؛ فأنهى حياته بأقراص مخدِّرة، مع زوجته الثانية، وقد خدرا كلبهما الذي راح في سبات عميق أمام باب غرفتهما. وقبل ذلك ترك شكرًا دافئًا للبرازيل التي احتضنته.

دوستويفسكي.. المُعلِّم

لا يخفي ستيفان زفايغ صلته بسيد الانفعالات على مر العصور: دوستويفسكي. وفي كتابه "بناة العالم" يخص مُعلمه بفصول فيها من الحب والتقديس والفهم ما فيها، ويشير إلى أن حياة دوستويفسكي نفسه كانت مفعمة بالانقلابات والانفعالات: "كثيرًا ما تكون البداية بداية مسرحية عنيفة (ميلودرامية) ولكنها تتحول دائمًا إلى مأساة. إنها مركبة كلها على التوتر. ففي بضع ثوانٍ تتكاثف الأحكام والقرارات الفاصلة من دون مرحلة انتقال". هذه الانقلابات العاصفة في حياة دوستويفسكي نراها واضحة في كل أعماله، وقد بدت ذروتها في أسرة المجانين "كارامازوف" أبًا وأبناء.

ومن يقرأ مراسلات دوستويفسكي وشهادات الأقربين منه يدرك أن حياته كانت مصدرًا للكثير من مشاهد رواياته. في مذكراتها تصف آنا دوستوفيسكايا، زوجته، الذهول الذي أصاب زوجها أمام إحدى لوحات الفنان هانز هولباين في متحف مدينة بازل السويسرية عام 1867م، فتقول إنه جلس صامتًا، وبدأت تعتريه التغيرات التي تسبق نوبة الصرع؛ فأنهضته وسارت به إلى خارج المتحف، فمضى معها على وعد بعودة أخرى. وبعد ذلك وضع دوستويفسكي تعليقه الشخصي على لسان ليون نيكولايفيتش ميشكين في رواية "الأبله". عندما زار ميشكين صديقَه روغوجين في بيته، توقف أمام نسخة عن لوحة هولباين وقال لصديقه: "لقد رأيت هذه اللوحة في الخارج، ولا أستطيع أن أنساها"، ثم هتف



حفلة وداع لستيفان زفايغ عند مغادرته أوروبا.



كان زفايغ حزينًا لأن أوروبا فقدت إنسانيتها بحربين ثقيلتين خلال أربعة عقود دِيست خلالها كل قيم الإنسانية.



دوستويفسكي.

فجأة وقد ساورته فكرة مباغتة: "إن هذه الصورة يمكن أن تُفقد المرء إيمانه".

بارتلبي يُفضِّل ألا..

يمكننا أن ندرك أهمية الاعتدال في الانفعالات، عندما نرى أن الخطر يأتي في ظل صخب الانفعالات وفي غيابها سواء بسواء.

هرمان ميلفيل (1819م - 1891م) كتب قصة تبدو غريبة على كتابة زمنه. "بارتلبي النسَّاخ" قصة شديدة البساطة في عمارتها الروائية يمكن أن تكتبها آني آرنو أو ستيفان زفايغ.

تبدأ الرواية بمحامٍ يدير مكتب توثيق عقود، يعمل لديه ناسخان، يُلقبهما بلقبين منسجمين مع شخصيتيهما: تريكي ونيبرز، وكلاهما تتغير انفعالاته ويسوء مزاجه في توقيت مختلف. نيبرز يغضب في الصباح، جرَّاء وجبة الإفطار؛ لأنه يعاني عسر الهضم، ومع تقدم الوقت ترتاح أمعاؤه فيهدأ. أمَّا تريكي فيغضب بعد الغداء بسبب إفراطه في الشراب. هكذا، فإن غضبهما وهدوءهما بالتناوب، يحقق أمان المكتب؛ فهناك دائمًا من يمكن إسناد الوثائق الدقيقة إليه لنسخها.

مضت الحياة بهدوء وتناغم بين المجموعة، إلى أن ظهر بارتلبي، شاب نحيل جاء يطلب عملاً. تعاطف معه المحامي وأفسح له زاوية من غرفته. وبدأ الشاب يعمل بدأب وفي صمت، لكنه عنيد لا يعترف بقواعد. عندما يُسلِّم وثيقة انتهى من نسخها، يطلب منه صاحب المكتب أن يجلس أمامه ليراجعها معه على الأصل فيجيبه "أُفضِّل ألا". ينطق بجملته الناقصة تلك، لكن بنبرة المصرِّ على الرفض، ويعود إلى ركنه بهدوء.

مع الوقت زادت الأشياء التي يُفضِّل بارتلبي ألا يفعلها، حتى صار "يُفضِّل ألا" يعمل شيئًا على الإطلاق! واستمرت انسحابات صاحب المكتب من أمامه، لكن اختلال التوازن بينهما أصبح مثيرًا للشبهة أمام الموظفين وعملاء المكتب. ثم يكتشف المحامي أن بارتلبي يستخدم مقر العمل سكنًا خاصًا له بعد انصراف الآخرين، فطلب منه أن يبحث عن سكن خاص ينتقل إليه.

ولكن بارتلبي فضَّل ألا ينتقل، حتى أصبح وجوده فوق الاحتمال، فقرر المحامي أن ينقل المكتب إلى مبنى آخر، وظل بارتلبي في مكانه ينغص حياة المستأجرين الجدد؛ وانتهى سجينًا بتهمة التشرد.

وبعد موته في السجن، نكتشف أن بارتلبي كان يعمل قبل ذلك بالبريد، موظفًا في مكتب "الرسائل الميتة"، وهي الرسائل التي لا يُستدل على عناوين المُرسَل إليهم وتقبع في تلك المقبرة. هكذا عرفنا بعد فوات الأوان من أين أتاه يأسه الذي حرمه من الانفعال وسلَّمه للموت بصمت.

بين المجرم والمحقق والكاتب والقارئ

ليس هناك من أدب يقوم على لعبة الانفعالات مثلما يقوم الأدب البوليسي. الرواية البوليسية الجيدة هي التي ترفع انفعالات القارئ إلى حدودها القصوى بفضل المطاردة بين مجرم ومحقق لا ينفعلان. كلاهما نموذج للعقل الهادئ، غير مسموح لأي منهما بالانفعال أو إظهار التعاطف. النموذج المثالي للوظيفتين هو رجل عازب، كما يلاحظ الكاتب الأرجنتيني ريكاردو بيجليا في كتابه "القارئ الأخير"، الذي حدَّد فيه سمات المحقق، الذي يجب أن يكون بلا أسرة.. وألا يرتبط بامرأة حتى لا يفاجأ بأنها ذات صلة بالقضية التي يحقق فيها. و"المتحري يجب أن يكون شخصًا خائبًا.. إنه الوحيد الذي يحافظ على النزاهة والشفافية".

وكاتب القصة البوليسية، بل كاتب الأدب عمومًا، فيه شيء من المجرم والمحقق. فهو شخص منعزل، عليه أن يتصرف بهدوء، كالصياد من البشر والحيوان، وبهذه الطريقة فقط يتمكن من رؤية ما لا يراه القارئ، فيستطيع أن يستولي على إعجابه.

المنفعل شاه زمان.. أصل الفتنة المنسي!

القصة التمهيدية في "ألف ليلة وليلة" المعروفة اصطلاحًا بـ"القصة الإطار" تحتل صفحات قليلة في بداية الكتاب، فتبسط أمام القارئ الظروف و"العقدة" التي جمعت شهرزاد بشهريار؛ إذ نعرف أنه الابن الأكبر لملك من ملوك ساسان بجزائر الهند والصين أنجب ولدين: "وكانا فارسين بطلين، وكان الكبير أفرس من الصغير وقد ملك البلاد وحكم بالعدل بين العباد وأحبه أهل بلاده ومملكته، وكان اسمه الملك شهريار، وكان أخوه الصغير اسمه الملك شاه زمان، وكان ملك سمرقند العجم".

يخرج شاه زمان لزيارة أخيه، وفي الطريق يتذكر شيئًا نسيه فيعود إلى قصره حيث يكتشف خيانة زوجته فيقتلها. وعندما يصل إلى قصر شهريار يكتشف أن زوجة أخيه هي خائنة أيضًا.



ريكاردو بيجليا.

هرمان ميلفيل.

ولكن بعكس شاه زمان الذي أطاح بعنق زوجته في فورة غضب، سيطر شهريار على غضبه عندما أخبره أخوه بالأمر وقال له: "غرضي أن أنظر بعيني". وتتوالى الأحداث لصفحات قليلة، إلى أن يقتل شهريار زوجته في وقت لاحق.. وعند هذا الحد يختفي "شاه زمان" وينقطع ذكره، مثل شخص يظهر في خلفية كادر سينمائي كعابر طريق أو نادل يضع فنجان قهوة أمام بطل الفِلم. أمَّا شهريار فنراه لاحقًا هادئًا يستمع إلى حكايات شهرزاد لألف ليلة وليلة، بفعل مكيدة حاكتها له وهدَّأت غضبه. وكان من الممكن أن تنتهي الليالي قبل أن تبدأ لو لم يستجب.

ففي "ألف ليلة وليلة"، وابتداء من القصة الإطار، درس بليغ في مهارات وحساسية السرد. هناك مهارة بالغة في رسم اختلافات الشخصية بين الأخوين من زاوية الانفعالات. ويمكن أن نُرجع الاختلافات إلى فرق السن، فمن الطبيعي أن يكون الأكبر أكثر تعقلًا. ولا بدَّ أن ننتبه إلى استخدام اللغة: "وكان الكبير أفرس من الصغير"، وما دامت القصة لا تتعلق بالحرب ومهاراتها؛ فينبغي أن نفهم أن أفعل التفضيل هنا "أفرس" يتعلق بأخلاق الفروسية لا مهاراتها.



في تجربة محمد الفرج

المتلقي يطَّلع على السر

خلال أمسية شعرية ضمَّت مجموعة من الأسماء، ألقى محمد الفرج في الجولة الأولى قصيدته وهو يمشي بين الحضور، متوجهًا إلى جمهوره بالكلام، ونظنه تعثَّر في قدم أحدهم. ولكنه استفاد من الإمكانات الأدائية الكبيرة التي يوفرها له دور الحكواتي الذي اعتاد القيام به؛ إذ إن الفرج فنان تشكيلي وحكَّاء إلى جانب كونه شاعرًا. غير أن مقدِّمة الأمسية أهابت بالمشاركين بأن يكتفوا بإلقاء القصائد إمَّا جلوسًا في أماكنهم أو وقوفًا على المنصَّة المخصَّصة. وبهذا حُرم الفرج من حرِّيته في إلقاء شعره بالطريقة التي يبدو أنه يحبُّها.
أوردنا هذه الحادثة للإشارة إلى سِمَتَين متلازمتين وأصيلتين في ممارسة محمد الفرج الفنية. أولاهما مداومة استجواب الحدود التي تفصل بين أشكال التعبير المختلفة، بين الشعر والحكي، وبين الإلقاء والأداء، وبين الاسكتش واللوحة. والأخرى الشجاعة في كشف العملية الذهنية والجسدية التي تفرز العمل الفني إلى درجة تذويب الحدِّ بين العمل الفني والعملية الفنية وهذا ما نتوقف أمامه هنا.

علي المجنوني



في حين يسعى معظم الفنانين إلى تغطية مراحل تصوُّر العمل وتطويره وإخفاء الأدوات التي أسهمت في تنفيذه، لا يتردد الفرج في كشف الذهنية التي أوصلته إلى تنفيذ عمله الفني.



يستطيع المتأمل في تجربة محمد الفرج بسهولة ملاحظة ملمح يتكرَّر في أعماله، وهو أن الفنان لا يتورَّع عن كشف الذهنية التي أوصلته إلى تنفيذ عمله الفني، في حين يسعى معظم الفنانين إلى تغطية مراحل تصوُّر العمل وتطويره وإخفاء الأدوات التي أسهمت في تنفيذه، مكتفين بما يستحقُّ العرضَ النهائيَّ واعتباره العملَ الفنيَّ المنتَج. ولا لومَ على أولئك الفنانين، فالتقاليد الفنية التي شاعت طويلًا حتى رسخت، تُعلي من قيمة المنتَج، وتطمر الجزء الأكبر من العملية الفنية التي أوصلت إليه، في نزعة إلى تَعمِيَة العمليات الذهنية والجسدية والفنية التي يُبنى عليها العمل الإبداعي ولا سيَّما الفنّ.

تقوم هذه النزعة على فكرة مفادها أن كلَّ ما يسبق عرضَ العمل الفني هو من قبيل القمامة الفكرية والمادية التي يجب أن تُكنَس؛ لأنها تُقذي عينَ المتلقِّي وتشوِّش ذهنه، وأنه لا يجدر بالمتلقي غير مشاهدة العمل في هيئته الأخيرة، محاطًا ببياض المعرض الفيزيائي والرمزي. ولئن فقدت هذه الرؤية قدرًا من وجاهتها بفضل مذاهب ما بعد الحداثة، فإنها لا تزال مهيمنةً على الممارسة الفنية وتحكم آليات عرض العمل الفني في أغلب المؤسسات، فلا مكان غالبًا للعمليات المشار إليها آنفًا سوى إشارات خاطفة في بيانات الأعمال الفنية، وأحيانًا في المعارض المكرسة لتتبُّع مسيرة فنان أو تناول حركة فنية بالكامل.

استفادته من إنستغرام مثلًا

لا يعزل الفرج العمليات التي تقود إلى إنتاج عمل فني عن المنتج النهائي الذي يمكن أن يكون معروضًا في صالة فنية. وذهب إلى حدِّ الاستفادة من منصة التواصل الاجتماعي الأكثر بصرية، إنستغرام، التي تتيح فرصًا غير مسبوقة كي يعرض عمله. فاستخدم هذه المنصة لتكريس ممارسته القائمة على كشف الأداة للعيان. واستثمر "الستوري" لعرض صور وفيديوهات من مراحل مختلفة من تنفيذ العمل إلى درجة يصعب معها تحديد المنتج النهائي. والحقُّ إنه لا فرق كبيرًا بين ما يعرضه الفرج على حسابه في إنستغرام وما يُعرض من أعماله في صالة عرض باريسية. كما أنه في كثير من الأعمال التي يعرض صورًا لها، تتفاوت الصور في جاهزيتها المفترَضة من الاسكتشات الأولية إلى الأعمال المنجزة. وتنتصر هذه الممارسة للعملية الفنية على حساب المنتَج الفني النهائي، وتستمر في الإشارة إلى أدوات الفنان وعملياته التي تُعطي مؤشرًا أصدق على تقييم تجربته من عمل وحيد يُعرض في فضاء فني.



بهذه الطريقة يضع الفرج متلقِّيه في تحدٍّ يتعلق بتحديد ماهيَّة العمل الفني ومسؤولية إعادة رسم حدوده على الدوام. ويمكن القول إن هذا الملمح يشكِّل الركيزة النظرية التي تقوم عليها ممارسة الفرج الفنية. ولتلك الممارسة ثلاثة جوانب متصلة، وهي المُجاورة بين أشكال التعبير والمواد أو الخامات والأساليب المتنافرة ظاهريًا، وثانيًا اعتماد مفهوم اللعب لا باعتباره نشاطًا وظيفيًا وإنما موقف وتجربة ذات مغزى في حدِّ ذاتها، وثالثًا تسخير الجسم لمستويات أدائية يتراوح بينها بسهولة ومرونة: طبيعية وطقوسية وفنية. وتشكِّل هذه الجوانب مجتمعة معالمَ تجربة الفرج، وتحقق أولوية العملية الفنية على حساب العمل الفني المنجَز. ولكي نفصِّل هذه الجوانب سنعرض بعضًا من أعمال الفرج الفنية التي تستثمر واحدًا من أبرز "موتيفاته" حضورًا، وهي "أكراب النخل الجافة".

تجاور وحوار

حين يتعلق الأمر بالمجاورة بين أشكال التعبير وأساليبه والمواد الفنية، فلا أدَلَّ على هذا الجانب من عمله "أحافير المعرفة". ينطوي العمل الذي مرَّ بمراحل مختلفة واتخذ أشكالًا عديدة على مستويات ثلاثة من التجاور البَينيِّ، ممثِّلًا ذروة انشغال الفرج بالفن البيئي. فيجاور العمل بين الحيوان والنبات في مستواه الأول حين يجعل من أكراب النخيل اليابسة المتراصَّة عظامًا لعمود فقري يخصُّ مخلوقًا حيوانيًا متخيلًا. ويقابل فسادُ الأكراب وتدهورُها هلاكَ الكائن الحيواني وربما انقراضه، فهو ملقى على هيئة أحفورية. وبذلك يؤسس العمل وحدةً تدمج عالَمين عَمِلَ المنهج التجريبي على تعريفهما ودراستهما منفصلين.

ويوجد مستوى آخر من المجاورة في محاذاة التركيب الفني ثلاثي الأبعاد والنص الشعري المخطوط بالفحم إلى جواره في أرضية المعرض. يؤدي وجودُ التنصيب والنص جنبًا إلى جنب وظيفةً شديدة الأهمية متعلقة بأيديولوجيا العمل البيئة. ويشير التجاور بين الطبيعي والثقافي إلى دور الإنسان المزدوج، التدميري والترميمي، في البيئة.

أخيرًا، وعلى مستوى ثالث، يجاور الفرج بين المنصَّب والمكتوب على أرضية العمل من جهة، والأداء من جهة أخرى. ويمنح هذا المستوى العمل بُعدًا عموديًّا يبثُّ فيه حيوية يجسِّدها جسم الفنان الحاضر الذي يصبح شاهدًا على ما كان أثرًا (أكراب النخيل الجافة وعمود الحيوان الهالك وشِعر الإنسان الواهن)، لكنه أيضًا منوط بدور حاسم في الحفاظ على البيئة واستدامتها.

وظائف التجاور

مثال مشابه لهذا نجده في عمل آخر عُرض مؤخرًا ضمن معرضه الأول في أوروبا، ويتألف في جزئه الأدنى من سعفة نخل ناقصة، وفي جزئه الأعلى من رسم بالفحم يكمل السعفة إكمالًا قد يبدو ارتجاليًا. لم يتحاشَ الفرج التباينَ الواضح بين أجزاء العمل على مستويات عدة: تباين في الخامة (النصف الأول طبيعي والنصف الثاني رسم بالفحم)، وتباين في البُعد (النصف الأول ثلاثي الأبعاد والنصف الثاني ثنائي الأبعاد)، وتباين في التنفيذ (النصف الأول تركيب والثاني رسم). بل اعتمد على كل هذه التباينات، التي قد تجعل من العمل أداءً مرتجلًا وناقصًا في سياق آخر، أساسًا لبناء قيمة العمل. إذًا لا ينبغي أن يُفهم أن العمل الفني عند الفرج يستمدُّ جماليته من مجرَّد المجاورة فحسب؛ بل إن هذه المجاورة، على ما فيها من ابتكار، تخدم وظائف أخرى تتمثل في أنها تكشف أدوات الفنان باعتبارها جزءًا من العمل الفني وتؤسس حركيَّة وحيويَّة داخل العمل نفسه.

دور اللعب كما يراه

الجانب الثاني في ممارسة الفرج الفنية متعلقٌ بمفهوم اللعب ودوره. فاللعب بالنسبة إليه ليس نشاطًا ترويحيًا، إنه على العكس من ذلك غاية في حدِّ ذاته؛ إذ يتضمن أنشطة تؤدي إلى ذاتها ولا تقوم بوظيفة أداتيّة تحيل إلى غايات خارجها. وكل هذه تقريبًا رؤى تتسق مع فلسفة اللعب المعاصرة كما نظَّر لها الهولندي يوهان هويزنجا والكندي برنارد سوتس. وإن كان الفرج لا يتفق مع تحديد الأخير اللعب في استخدام الموارد المخصصة للأنشطة الأداتية أو الذرائعية من خلال تخصيصها المؤقت لما هو غاية في حدِّ ذاته من أنشطة.

إضافة إلى ذلك، يحقق اللعبُ استمرارية زمنية ومكانية. إذ يستخدم الفرج في محاضراته حول اللعب مفهومًا محوريًا للطفولة في مسألة اللعب يقتضي انتقاد تجميد الطفولة وتخصيص اللعب لفئة عمرية. هذا من جهة،

> **اللعب بالنسبة إلى الفرج ليس نشاطًا ترويحيًا. إنه غاية في حدِّ ذاته، إذ يتضمن أنشطة تؤدي إلى ذاتها ولا تقوم بوظيفة تنفيذية تحيل إلى غايات خارجها.**

ومن جهة ثانية يربط اللعب بالمدينة وتجربة العيش المدني. وبفضل هذه الاستمرارية الزمنية المكانية يمكن اعتبار اللعب عند الفرج ميثودولوجيا أو طريقة لاكتساب المعرفة قائمة على التجربة الحياتية وحدَها.

أما الجانب الثالث من جوانب ممارسة الفرج الفنية، فيكمن في تسخير الجسم البشري للأدائية، بحيث يتراوح الجسم بين الطبيعية والطقوسية والفنية. وهذه الوظيفة الأدائية للجسم ليست محددة بوقت أو موقف. بعبارة أخرى، تكاد تنتفي الأطر التي تميِّز الأداء عن باقي وظائف الجسم وتُمكِّن من تلقي هذا الأداء وتقييمه باعتباره فنًّا ذا أبعاد جمالية معينة. إن الفرج ما ينفكُّ منخرطًا في أحداث أدائية، سواء أكان يلقي شعرًا أم يؤدي عرضًا، وسواء أكان ذلك في فضاء أدبي أم في صالة عرض أم في حقل أم في شارع. في عمل "الحنين إلى النار أو الحنين إلى البيت" يستخدم الفرج سعفَ النخيل صانعًا منها أجنحة، مُستعينًا بها على نار يوقدها في الحقل. فيمثل العمل أداء فنيًا يجمع عناصر طبيعية وطقوسية وفنية في تكامل إيجابي.

وعي العمل بذاته

الدافع وراء هذه الممارسة الفنية هو نزوع الفرج إلى ما يسمى "كشف الأداة للعيان". وهذا مصطلح أدبي سكَّه الناقد الروسي فيكتور شكلوفسكي، ثم قُدّمت عليه تطبيقات في النقد الفني والأدبي على السواء، لعل أشهرها تعريف كلمنت كرينبيرك للفنِّ الحديث من خلال نزعته الداخلية إلى كشف قماش اللوحة. لم تعد هناك ضرورة إلى إخفاء الأداة الفنية أو طمرها وراء العمل الفني في شكله النهائي. وهذه النزعة هي من أبرز أمارات الوعي الذاتي في الفن، وتجعل العمل الفني واعيًا بذاته ومشيرًا إلى نفسه على الدوام بحيث لا يكتمل تلقِّيه من دون تقدير هذا الوعي الذاتي الذي أفضى إلى كشف الأداة الفنية من دون مواراة.

دائمًا ما يمنحنا الفرج الفرصة للتعرُّف إلى طريقة تفكيره، ويكشف عن المنابع الأولى لأفكار أعماله الفنية والمسارب التي تتخذها الأفكار وهي تتطور. هذه الممارسة السخية تتطلب جهدًا إضافيًا؛ لأنها تطرح مسائل متعلقة بماهية الفنِّ والعمل الفني. ولذا، فلا غروَ أن يستعصي علينا تحديد بداية عمل فني للفرج أو نهايته، إذ إن العمل الفني دائم التشكل والنمو والتطور، وكأنما هو بلا بداية ولا نهاية. كأنما الحياة بأسرها مختبر فني كلِّي.



تمثِّل "أكراب" النخيل عنصرًا دائم الحضور في الأعمال الفنية للفرج، الذي لا يتردّد في استعراض العمليات الفنية التي تؤدي به إلى منتجه الفني.

باربي في إطلالتها السينمائية

جدلٌ كبير وإيرادات أكبر

سينمائيًّا، سوف يُذكر عام 2023م مرتبطًا بظاهرة فِلم "باربي"، الذي ضرب الأرقام القياسية في شباك التذاكر بشكل لم يكن يتوقعه حتى أكثر المتفائلين بنجاحه. كما تحوَّل إلى ظـاهرة ثقافية واجتماعية وسياسية غير مسبوقة. وكـلٌّ من النجاح التجاري والأثر الثقافي يحملان دلالات مهمة، وسوف يتوقف أمامها المحللون كثيرًا.

عصام زكريا



من ناحية الإيرادات، حقّق فِلم "باربي" حتى وقت قريب 1.435 مليار دولار، منها حوالي 634 مليونًا من السوق المحلية في أمريكا وكندا، وما يزيد على 800 مليون من الأسواق العالمية، ليصبح أكثر الأفلام تحقيقًا للإيرادات خلال العام بلا منافس، سوى فِلم الأطفال "الإخوة سوبر ماريو"، الذي حقق 1.361 مليار. ومع تبقي عدة أسابيع على نهاية العام، فمن المستحيل تقريبًا أن يظهر فِلم آخر يقترب من هذه الأرقام.

بهذه الإيرادات يصبح "باربي" أنجح فِلم أنتجته شركة "وارنر براذرز"، التي يمتد تاريخها إلى قرن من الزمان، كما يحتل المرتبة الرابعة عشرة في قائمة الأفلام الأكثر تحقيقًا للإيرادات على مر التاريخ!

تكتسب هذه الإيرادات أهمية أكبر حين نفكر في أنه أيضًا أنجح فِلم أخرجته امرأة، هي "جريتا جيرويج"، وهو أمر حين نضعه في سياق "ظواهر" نسائية أخرى، منها مثلًا موضوع الفِلم نفسه،

حقّق فِلم "باربي" أكثر من 1.4 مليار دولار، ليُصبح الأكثر تحقيقًا للإيرادات خلال العام، والرابع عشر بين الأفلام على مر التاريخ.



ندرك أننا في خضمّ حملة "جندرية" كبيرة، على الأقل في مجال السينما والثقافة.

أهمية أخرى تبرزها إيرادات "باربي"، لا سيما حين نضعها بجوار إيرادات العام كله، الذي شهد أيضًا نجاح أفلام أخرى مثل: "سوبر ماريو" و"أوبنهايمر" و"حراس المجرة 3" وغيرها. فهناك ما يُشير إلى أن صناعة السينما الهوليوودية تتعافى من انتكاستها المستمرة منذ سنوات، بسبب الوضع الاقتصادي العالمي ووباء "كورونا" وانتشار المنصات والقرصنة وأسباب أخرى. لكن اللافت للنظر أن "باربي" و"أوبنهايمر" تحديدًا لا ينتميان إلى فئات الأفلام التي عادة ما تحقّق أعلى الإيرادات.

ظاهرة "باربينهايمر"

تزامن عرض "باربي" مع فِلم "أوبنهايمر"، أحدث أفلام المخرج والمؤلف كريستوفر نولان، الذي يحظى بشعبية لدى قطاع كبير من المشاهدين بفضل أفلامه "التجريبية" على مستوى الأفكار والسرد والتقنيات الفنية. يروي فِلم "باربي" قصة خيالية كوميدية عن دمية تتحول إلى بشرية. بينما يتناول "أوبنهايمر" حياة أحد أبرز شخصيات القرن العشرين، وهو عالم الفيزياء يوليوس روبرت أوبنهايمر، مخترع القنبلة الذرية، وهو فِلم جاد كئيب الموضوع والأسئلة. لكن دعاية كل من "باربي" و"أوبنهايمر" اعتمدت على مواقع التواصل الاجتماعي بشكل أساس، وهي دعاية غير مسبوقة في حجمها وأساليبها، ما يضعنا أمام ظاهرة أخرى يُتوقع أن تسيطر خلال السنوات المقبلة.

الطريف أن "شعب السوشيال ميديا"، إذا جاز التعبير، سرعان ما التقطوا الدعاية المكثفة لكل من الفِلمين ودمجوها في "هاشتاج" واحد هو "باربينهايمر" (Barbenheimer). ورغم الاختلاف الهائل بين الفِلمين، والمنافسة التي يُفترض أن تكون بينهما، أصبحت دعاية كل منهما مفيدة للعمل الآخر. حتى إن أعدادًا هائلة من المشاهدين ذهبوا لمشاهدة الفِلمين، غالبًا في اليوم نفسه، بالرغم من أنهم في الأحوال العادية لم يكونوا ليهتموا إلا بأحد الفِلمين. وهو حدث آخر ربما يكون غير مسبوق!

هذا النجاح لـ"باربي" متعدد الصُّعُد له أسباب بالقطع، من بينها واحد فقط يتعلق بالمستوى الفني للفِلم، وبعضها يتعلق بموضوع وصنّاع الفِلم، والبعض بأشياء خارج الفِلم.

فِلم جيد.. ولكن

الفِلم جيد، ولولا هذه الجودة لما كانت هناك جدوى لكل العوامل الأخرى، مهما كانت الدعاية. فقد رأينا أمثلة كثيرة على إمكانية تبخرها بين ليلة وضحاها إذا صُدم الجمهور بمستوى العمل فنيًّا.

و"باربي" فِلم جيد كتابة وإخراجًا، ولكنه ليس تحفة فنية أو عملًا استثنائيًّا متكامل الأوصاف. وفي الحقيقة هو يعاني نقاط ضعف، بعضها ساهم في نجاحه، وهي من العجائب التي تحدث أحيانًا؛ أن تكون بعض عيوب العمل من أسباب نجاحه. ومن نقاط الضعف هذه تعدد الرسائل والمعاني التي يحملها الفِلم وتشوشها وتضاربها. ولعل أفضل ما يعبر عن ذلك الجملة الترويجية لحملة دعاية الفِلم التي تقول: "إذا كنت تحب باربي، فهذا الفِلم لأجلك، وإذا كنت تكره باربي، فهذا الفِلم لأجلك"!

من أسباب نجاح "باربي"، بجانب مستواه الفني الجيد، أنه فِلم هوليوودي "فاخر" على مستوى الإنتاج وفريق العمل. وصلت تكلفة الفِلم إلى 145 مليون دولار، وهذا المال يتبدى في كل



فِلم "سوبر ماريو"، أحد الأفلام التي حققت إيرادات جيدة خلال العام 2023م.





بصرف النظر عن الاختلاف الكبير الذي قد يبدو بين فِلمي "باربي" و"أوبنهايمر"، إلا أن القاسم المشترك هو أن كلا الفِلمين نجح في تحقيق إيرادات كبيرة خلال العام، رغم أنهما لا ينتميان إلى نوعيات الأفلام الأكثر شعبية.

عناصر العمل من الديكورات للمؤثرات للملابس، وبالطبع فريق الممثلين. ويضم العمل عددًا كبيرًا من النجوم المحبوبين، على رأسهم الأسترالية مارجوت روبي، التي لم تكتفِ ببطولة الفِلم، ولكنها شاركت في إنتاجه منذ أن كان فكرة على الورق، بجانب الكندي رايان جوسلنج وبقية أسماء المشاركين فيه.

بين الأنوثة والنسوية

موضوع الفِلم أيضًا من عناصر نجاحه، أو على الأقل لفت الانتباه إليه. باربي، كما نعلم، هي الدمية الأشهر شعبية لدى الفتيات في كل أنحاء العالم، منذ أن ظهرت في خمسينيات القرن الماضي وإلى اليوم. وهذه الشعبية كانت دومًا مثارًا للجدل حول أنثويتها ونسويتها. من ناحية، شكلت باربي نموذجًا للأنثى الجميلة حُفر في أذهان أجيال من النساء. وقد دفعت هذه الأنوثة البعض إلى النظر إليها باعتبارها نموذجًا للثقافة الغربية الرأسمالية الاستعمارية، ما دفع البعض إلى النهي عن اقتنائها في وقت من الأوقات. ويسخر كثيرون مثلًا، من علامات هذا التأثير في عمليات التجميل التي تلجأ إليها بعض النساء ليصبحن شبيهات بباربي. كما ينتقد كثيرون ترويج باربي لمفهوم "ضيق" عن الأنوثة يشكل ضغطًا نفسيًا على الفتيات اللواتي لا يتمتعن بهذه المقاييس.

ومن ناحية أخرى، اُتهمت باربي بترويج صورة بيضاء عنصرية للجمال الأوروبي، ما دفع شركة "ماتيل" المنتجة للدمية إلى إصدار نسخ متعاقبة بمقاييس أنثوية وعرقية مختلفة. ويمتد الجدل حول باربي إلى نموذج المرأة الذي تقدمه وهل هو نموذج تقليدي رجعي للمرأة الخاضعة، كما يتخيلها ويريدها الرجال، أم أنها تقدم صورة عصرية "نسوية". وقد حرصت "ماتيل" أيضًا على مواكبة التطورات باستمرار وإصدار نسخ تقدمية من باربي كطبيبة ورائدة فضاء ورياضية، بل حتى كصاحبة حرفة مثل الميكانيكا والنجارة وغيرها، بهدف أن تكون نموذجًا ملهمًا للفتيات.

بالطبع، "ماتيل" على استعداد لجعل باربي "شيطانة" إذا كان ذلك يعني بيع مزيد من الدمى. والفِلم أكبر دليل على ذلك.

خلطة جيرويج

فكرة صنع الفِلم جاءت بالأساس من "ماتيل"، ووصل العمل في النهاية إلى مارجوت روبي، ومنها إلى جريتا جيرويج، التي اشترطت إعادة كتابة العمل من جديد مع شريكها نوا باومباخ. وجيرويج ، التي كانت ممثلة وتحولت إلى مخرجة وكاتبة ومنتجة، عُرفت بجانب مهاراتها الفذة كمخرجة باهتمامها النسوي الواضح كما يظهر في فِلميها "ليدي بيرد" و"نساء صغيرات"، ولم يكن من المنطقي أن يُعهد إليها بإخراج فِلم صيفي تجاري مثل "باربي".

ولكن ما حدث أن مارجوت روبي، وهي ممثلة تتمتع بالثقافة الجدية رغم جمالها "الباربَاوي"، اختارت جيرويج ووافقت على شرطها بإعادة الكتابة. والكتابة الجديدة لم تعجب شركة "ماتيل" بالطبع، ليس فقط لأنها تنتقد الشركة والرأسمالية بشكل عام، ولكن أيضًا للنبرة الفلسفية والتحليلية التي يمكن أن تُنفِّر جمهور باربي من الفِلم. ومع ذلك، وبعد مفاوضات طويلة، وافقت الشركة على السيناريو الذي كتبته جيرويج.

وهكذا خرج فِلم من إنتاج "ماتيل" ينتقد تسليع "ماتيل" للنساء، وبالنهاية يتحول إلى سلعة من منتجات "ماتيل"، وينتقد الهوس بباربي لكنه يحتفي بقوتها وشجاعتها، وفعليًا يتحول إلى أكبر هوس بالدمية.

يتكون "باربي" من مقاطع متفرقة. في البداية نرى نسخًا متنوعة من باربي وكين يعيشان في عالم الدمى الخيالي والمثالي، وهو عالم يتسم بالبراءة والمثالية تسوده النساء بينما يشغل الرجال أدوار "الكومبارس". لكن باربي الرئيسة تنتابها بعض العوارض الطارئة جسديًا وذهنيًا، التي تستدعي منها الذهاب إلى العالم الواقعي لتعرف سبب ما حدث وتصلحه. وفي العالم الواقعي تكتشف أن "المدينة الفاضلة"، التي كانت تعيش فيها لا توجد على أرض الواقع، بينما يكتشف كين أن الرجال هم المسيطرون هنا. ويعود الاثنان إلى عالمهما محملين بالتجربة، ويتداخل عالما الخيال والدمى في صراع يحتاج إلى تصالح ينتهي به الفِلم.. تصالح يأتي على يد شركة "ماتيل" التي تعد بأنها ستضع مشكلة التفاوت بين العالَمين في حسبانها لاحقًا!

ومن خلال هذه الفقرات، يمكن أن يجد عشاق باربي أنفسهم، كما يمكن لخصومها وكارهيها أن يسمعوا أصواتهم، ويمكن للباحثين عن الضحك والنكات فقط أن يجدوا متعتهم. كما يمكن للباحثين عن فلسفة ما، أو قضية تتعلق بالبطريركية والنسوية، أن يفسروا بعض المشاهد والعبارات.. ويكمن ذكاء الفِلم وجوهر نجاحه في طبخ هذه الخلطة المتناقضة العجيبة بمقادير دقيقة جدًا، تنتج في النهاية عملًا مستساغًا لكل الأذواق!

النموذج السعودي يبشِّر بإمكانية تجاوز التحديات

"نحلم ونحقِّق" في التطبيب عن بُعد



يعبّر الاحتفال باليوم الوطني السعودي 93، بشعاره الواثق "نحلم ونحقق"، عن عزم السعوديين على تحقيق أحلامهم، ورغبتهم في النهوض إلى أعلى المستويات وعلى كافة الصُّعُد.
استلهم هذا الشعار معناه من الأحلام التي تتحقَّق واقعًا في كل مناحي الحياة، وهو ما يتجلى بوضوح في المشاريع التنموية العملاقة التي حلم بها المواطن فحقّقها له وطنه على أرض الواقع. وما الإنجازات العظيمة التي تترى من حولنا، إلا دليل حقيقي على أننا بالفعل "نحلم ونحقق"، وتشهد بذلك النجاحات المتلاحقة وغير المسبوقة للوطن في جميع المجالات.
من تلك الإنجازات، نذكر ما حققته المملكة في مجال الرعاية الصحية، حيث وفرت الدولة، ممثلة في وزارة الصحة، شبكة متكاملة ومتطورة من خدمات الرعاية الصحية تغطي جميع مناطق المملكة، وأطلقت عددًا من التطبيقات الإلكترونية الحديثة التي تُمكن المستفيدين من الحصول على كافة الخدمات الصحية رقميًا، وكان في مقدمة ذلك تبنّي مفهوم التطبيب عن بُعد، الذي تموضع بكل جدارة واقتدار في قلب الخدمات الصحية ليقدمها بكافة أشكالها وأنواعها الممكنة، لكل المستفيدين في أرجاء الوطن.. وبضغطة زر.

د. ندى الأحمدي



قبل الحضارة، كانت حياة الإنسان البدائي تشبه حياة باقي المخلوقات إلى حَدٍّ ما، فإذا سقط وكُسرت عظمة فخذه مثلًا سيواجه احتمالات رهيبة للبقاء على قيد الحياة، فلن يستطيع المشي لجمع الطعام والماء في تلك الظروف الصعبة، وكذلك تقل قدرته على الدفاع عن نفسه أو الهرب من الحيوانات المفترسة. وفي هذا السياق، تقول عالمة الأنثروبولوجيا المؤثرة "مارغريت ميد" (1901م - 1978م): "إن الحضارة بدأت عندما وجد هذا الشخص العاثر من يسعفه"، إذ بيّنت وجهة نظرها في ذلك خلال محاضرة لها، بأن أظهرت عظمة فخذ بشرية من تلك الحقبة، وأشارت إلى منطقة سميكة للغاية، حيث كُسرت العظمة، ثم شُفيت بصعوبة.

نظرة تاريخية

ترافقت القفزة الحضارية التالية مع بداية التطبيب عن بُعد قبل حوالي 2500 عام، وذلك عندما تم "استخدام رسل بشريين لنقل المشورة الطبية والأدوية، باستخدام إشارات الدخان وانعكاس الضوء من أماكن مرتفعة لتوصيل المعلومات الطبية، مثل إشارات تفشي الأوبئة والإخطار بالمواليد أو الوفيات"، وهذا كما جاء في بحث قام به عدد من العلماء، ونشرته مجلة المكتبة الوطنية الأمريكية للطب، في أغسطس 2020م. وقد تعزَّز ذلك لاحقًا بظهور الطباعة والتلغراف والتلفون.

دخل التطبيب عن بُعد مرحلة نوعية بظهور شبكة الإنترنت وانتشارها حول العالم. ولا يزال كثير من الذين عملوا سابقًا في الحقل الطبي يتذكرون المعاناة المرهقة في التفتيش عن مقالة معينة في ما كان يُعرف بـ"إندكس ميديكوس" (Index Medicus)، وهي دورية بحجم ورقيّ ضخم يُفهرس عناوين وموضوعات الأدبيات الطبية. فقد كان الطبيب أو موظف المكتبة، آنذاك، يصرف وقتًا طويلًا ليجد المعلومات التي يريدها، ثم عليه الانتظار أيامًا أخرى كي تصله بالبريد من خارج المركز أو البلد الذي يقيم فيه. أما اليوم فكل المعلومات متوافرة للطبيب وللمريض على حد سواء بواسطة لمسة على جهاز هاتفه الذكي.

من فوائد الجائحة

التطبيب عن بُعد بالمعنى الحديث هو تقديم الخدمات والمعلومات المتعلقة بالصحة عن طريق التقنيات الرقمية، مما يتيح التواصل بين الطبيب والمريض رغم المسافة، فيسهل بذلك تقديم الخدمات العلاجية مثل التشخيص والمتابعة. وهو مزيج من البرامج والأجهزة المستخدمة، مثل المواعيد الافتراضية والوصفات الإلكترونية ونقل الملفات الطبية وغيرها. وقد دفعت جائحة كوفيد 19 العاملين في المجال الطبي إلى تطوير هذه الخدمات الصحية في جميع أنحاء العالم، والارتقاء بها إلى مستويات جديدة؛ إذ عززت تدابير التباعد الاجتماعي، كما ساعدت المراكز الطبية في إدارة فترات الانتظار الطويلة وتقنين خطر انتشار المرض من خلال تقليل الزيارات الشخصية، والحد من الحاجة إلى الاتصال المباشر بين الأطباء والمرضى.


مستشفى صحة الافتراضي.

أنواعه

وهناك أنواع عديدة من الرعاية الصحية عن بُعد، منها: الزيارات الافتراضية، وهنا تُقدم العيادات الطبية زيارات افتراضية يمكن أن تسمح بالتواصل مع مقدِّم رعاية صحية أو مستشار صحة عقلية أو ممرضة، عبر الفيديو أو الإنترنت أو بواسطة المحادثات الهاتفية، وتسمح هذه الزيارات بالحصول على الرعاية من مقدِّم الخدمة عندما لا يتمكن المستفيد من الحصول على زيارة شخصية.

النوع الثاني من هذه الخدمة هو متابعة الحالة الصحية للمريض عن بُعد، وتقوم هذه الخدمة على عديد من التقنيات الحديثة، إذ تسمح لمزوِّد الخدمة أو فريق الرعاية الصحية بفحص صحة المريض عن بُعد باستعمال تقنيات مثل: تطبيقات مستندة إلى الإنترنت أو تطبيقات محمولة على الهاتف الجوال. على سبيل المثال: إذا كان المريض مصابًا بداء السكري، فيمكنه تحميل سجلات الأطعمة ومستويات السكر في الدم والأدوية التي تقوم الممرضة بفحصها.

أما من جانب المريض فيمكنه استخدام الأجهزة التي تقيس البيانات وترسلها لاسلكيًا، مثل ضغط الدم وسكر الدم، ومستويات الأكسجين، ومعدل ضربات القلب وغيرها.

وفي نوع آخر من التطبيب عن بُعد، يمكن توفير تقرير الصحة الشخصية تقنيًا وبسرعة، وهو يحوي التفاصيل الأساسية المهمة للمستجيبين في حالات الطوارئ، مثل التشخيصات والوصفات الطبية، وتفضيلات المواد ومعلومات الاتصال بالطبيب. وقد تم تطوير تطبيقات هذه التقنية لمساعدة العملاء في تنظيم سجلاتهم الطبية بشكل صحيح وفي مكان واحد آمن.

ومن زاوية أخرى، يستخدم التطبيب عن بُعد أحدث التطورات في تقنيات الذكاء الاصطناعي، وذلك لمساعدة الأطباء على العمل بشكل أكثر فاعلية، ويمكن تفعيل هذه التقنية من خلال تزويد المرضى بالأجهزة القابلة للارتداء وغيرها من الموارد التي تقوم بتتبع المرضى عن بُعد.

ريادة سعودية

وقد اهتمت وزارة الصحة السعودية بالتطبيب عن بُعد بوصفه جزءًا من مساعيها الحثيثة في إحراز التقدم الملموس في مجال الصحة الإلكترونية، ويأتي هذا من خلال الإستراتيجية الوطنية للصحة، والتحول نحو المعاملات الإلكترونية تحقيقًا لطموحات رؤية 2030.

من أهم إنجازات الوزارة في هذا المجال، وخلال فترة الجائحة تحديدًا، هو إضافة خدمة طبية سميت "عيادات عن بُعد"، حيث أتاحت للمرضى استشارة الطبيب عبر الإنترنت من خلال تطبيقي "أناة" و"صحتي". ومن مزايا هذه الخدمة الافتراضية أنها تقدِّم المشورة الطبية والخدمات الصحية للمستفيدين بكل سهولة وفي وقت قياسي، بالإضافة إلى تقليل عدد الزيارات الشخصية، مما ساعد في وقت سابق على إبطاء انتشار مرض كوفيد 19 في المستشفيات والمرافق الطبية الأخرى. وقد نجحت وزارة الصحة بامتياز في نشر التطبيقات الرقمية الصحية المتنقلة، والرعاية الصحية عن بُعد، والعيادات والروبوتات الافتراضية، وغير ذلك من مثله في هذا المجال.

مستشفى "صحة"

علاوة على ذلك، يتم استخدام التطبيب عن بُعد لنشر المعلومات الطبية، والإعلان عن الحالة الصحية في جميع أنحاء المملكة، وإنشاء قواعد بيانات طبية شاملة. وفي هذا الصدد، تبرز جهود وزارة الصحة السعودية في التطبيب عن بعد من خلال إطلاق عدد من المنصات والتطبيقات.

فمنذ بداية الجائحة، أطلقت الوزارة مجموعة من المنصات والتطبيقات التي تخدم التطبيب عن بُعد، منها: صحتي، وكتيب قائمة الأدوية بوزارة الصحة وتطبيقه الإلكتروني (كتيب وزارة الصحة)، وأناة، وصحة للأطباء، وتطمن، وتباعد، وتوكلنا. وعلاوة على ذلك، يتلقى مركز الاتصال المكالمات ويعمل على تلبية الاحتياجات الصحية للمتصلين على مدار الساعة.



أجرى مستشفى "صحة" الافتراضي نحو 13 عملية جراحة قلب عن بُعد أسهمت في تقليل مكوث مرضى فشل القلب في المستشفيات بنسبة تصل إلى 40%.





ومن الإنجازات السعودية المهمة في مجال التطبيب عن بُعد، إنشاء مستشفى "صحة" الافتراضي، وتدشينه في 28 فبراير عام 2022م، ويعكس ذلك مستوى التقدم في رحلة التحول الرقمي والتكامل الحكومي إضافة إلى الموثوقية العالية لهذه البنية التحتية الرقمية.

وقد تُوّج هذا الإنجاز بفوز وزارة الصحة، ممثلةً بمستشفى صحة الافتراضي ومركز تمكين الابتكار، بجائزة الحكومة الرقمية عن فئة أفضل استخدام للتقنية الناشئة في مجال التحول الرقمي، والمخصصة للجهات الحكومية المحلية المميزة في الاستفادة من التقنيات الناشئة في رفع كفاءة وسرعة الإجراءات والعمليات. وجاء هذا التتويج نظير ما قُدّم من جهود مميزة في سبيل تقديم خدمات الرعاية الصحية الافتراضية وتسهيل إجراءات الوصول إليها.

يستوعب المستشفى نحو 500 ألف مستفيد في العام، ويتوافر فيه 34 تخصصًا دقيقًا وفرعيًا، ويتعاون مع أكثر من 132 مستشفى داخل المملكة. كما يغطي المشروع النقص الحالي في التخصصات الدقيقة للحالات المرضية التي يتلقاها؛ إذ يتعامل مع الحالات التي تتطلب تدخلًا أكثر تخصصية عبر استدعاء الخبراء افتراضيًا قبل اتخاذ القرارات الطبية. وتُقدم هذه الخدمة للمستشفيات والأفراد على حدٍّ سواء حسب طبيعة الحالة المرضية.

ويقدّم مستشفى "صحة" أكثر من 30 خدمة صحية تشمل: الأشعة الافتراضية، والرعاية الحرجة، والخدمة الافتراضية لمرضى كهربائية الدماغ، كما يشغّله أكثر من 73 ممارسًا صحيًا في التخصصات المختلفة. وقد أجرى المستشفى الافتراضي نحو 13 عملية جراحة قلب عن بُعد أسهمت في تقليل مكوث مرضى فشل القلب في المستشفيات بنسبة تصل إلى 40%. ويُعدُّ المستشفى بمنزلة منطقة تستقطب خبرات أفضل الاستشاريين والممارسين الصحيين وأكثرهم إحاطة في التخصصات النادرة والمعقدة لتقديم أفضل الخدمات للجميع، بحيث يستفيد المواطن في جميع مناطق المملكة من الخدمات التي يقدِّمها المستشفى، إما مباشرة من خلال رعاية وخدمة المستفيد، وإما من خلال دعم المنظومة التي يتلقى المستفيد منها الخدمة الصحية.

ومن أبرز ما حقَّقه المستشفى منذ تأسيسه إنجاز 18 مليون استشارة طبية بمعدل 30-40 ألف استشارة طبية يوميًا، بما في ذلك استشارات طبية وجهًا لوجه بين المرضى وأطبائهم في جميع أنحاء المملكة العربية السعودية.

ويُعدُّ مستشفى "صحة" الافتراضي الأكبر من نوعه في العالم والشرق الأوسط من حيث عدد المستشفيات المرتبطة به، ويناظره مستشفى واحد فقط في الولايات المتحدة الأمريكية يتبع نموذج العمل نفسه.

المركز الوطني للمعلومات الصحية

من جانب آخر، يُعدُّ المركز الوطني للمعلومات الصحية مركز اتصال رئيسًا لتوفير وتنظيم وتبادل المعلومات الصحية آليًا بين أجهزة القطاعات الصحية كافة. وهذا المركز السعودي هو عضو في الجمعية الدولية للتطبيب عن بُعد والصحة الإلكترونية (ISfTeH)، ويرتبط بالمجلس الصحي السعودي، ويتصل بشبكة آلية للمعلومات الصحية مع وزارة الصحة وغيرها من الأجهزة الحكومية ذات العلاقة.

وقد أطلق المركز مبادرة الشبكة السعودية للطب الاتصالي؛ لربط مرافق الرعاية الصحية المتخصصة مع مراكز الرعاية الصحية الأولية والمستشفيات في المناطق النائية بأنظمة الطب الاتصالي. وتعزز هذه المبادرة كفاءة خدمات الرعاية الصحية، كما تقدِّمها بجودة عالية وتكلفة فعّالة، بغض النظر عن الموقع الجغرافي أو حجم المنشأة.

علاوة على ذلك، أطلقت الهيئة السعودية للتخصصات الصحية (SCFHS) مؤخرًا برنامجًا للتدريب على التطبيب عن بُعد، وذلك بهدف التواصل مع المريض والاتصال به لهذا الغرض، والبرنامج مفتوح لجميع الممارسين الصحيين الذين يحصلون على ثلاث ساعات من التدريب على أدوات علاج المرضى عن بُعد باستخدام التكنولوجيا الرقمية.

التطبيب عن بُعد وموسم الحج

أدت خدمات التطبيب عن بُعد في المملكة العربية السعودية دورها في ضمان موسم صحي للحج، حيث نجح الأطباء في الرياض في علاج الحجاج في مكة المكرمة عن طريق مستشفى "صحة الافتراضي"، ونتج عن ذلك تشخيص أربع حالات سكتة دماغية، وإجراء تحليل أشعة سينية لست حالات، كما تم إنقاذ حياة أحد الحجاج الذين يحتاجون إلى رعاية حرجة عن بُعد. رُبطت الخدمات الطبية التي يقدِّمها مستشفى "صحة الافتراضي" بمستشفيات المشاعر المقدسة في مِنى وعرفات ومزدلفة تحت إشراف فريق من الاستشاريين العاملين على مدار الساعة، وكان ذلك ضمن ثلاثة أقسام رئيسة: الأشعة الافتراضية، والسكتة الدماغية الافتراضية، والعناية المركزة الافتراضية، وهكذا قدَّمت الأقسام الدعم لـ 13 مستشفى تعمل داخل الحرم الشريف.

وفقًا لاستطلاع رأي، هناك نسبة عالية من الرضا العام عن البرنامج السعودي للتطبيب عن بعد، مع الإشادة بالجودة العالية، بيد أن هذه النسبة انخفضت إلى النصف من جانب مرضى الأمراض المزمنة في الأرياف البعيدة.

حدود تقدُّمه

رغم تسارع وتيرة تطور التطبيب عن بُعد واندفاعها القوي وأهميتها، فإن هذا النوع من الطبابة له حدود، وثمة تساؤلات تواجهه بصفته وسيلة طبية: فهل واجهت هذه الوسيلة صعوبات العمل بكفاءة؟ وهل تجاوزت تحديات الظروف العامة بجدارة؟ وهل يوجد ما سوف يعيق تطورها وتقدمها؟ وماذا عن استمراريتها؟ وكيف سيكون حال حاضرها ومستقبلها في ضوء التطورات التقنية المتسارعة؟

تتمثل القيود الأكثر أهمية ووضوحًا في التطبيب عن بُعد بمجموعة من العناصر يتقدمها الافتقار إلى تقييم العلامات الحيوية، مثل الإحصاءات عن ضغط الدم وحرارة الجسم وغيرها، والفحوصات الجسدية المحدودة. ومن تلك القيود كذلك أنها منصة قائمة على الإنترنت في المقام الأول، وبالتالي سيكون من الصعب على الناس في البلدان النامية استخدام التطبيب عن بُعد، لا سيما حين تنخفض إمكانية وجودة الوصول إلى الإنترنت.

ومن زاوية أخرى، فإن نسبة كبيرة من المرضى المسنين منقطعون عن الإنترنت ولا يستطيعون استخدام التقنيات الحديثة بشكل صحيح. كما تُعد خصوصية البيانات وأمنها تحديًا آخر للتطبيب عن بُعد. ورغم أن التطورات في الطب سهلت استخدام التكنولوجيا، فإن انقطاع الجهاز عن الشبكة قد يحدث من وقت إلى آخر، فضلًا عن التكاليف الإضافية لتقنيات الاتصال، والتي تشكِّل عبئًا على المستفيدين خاصةً أولئك الذين يسكنون في المناطق النائية أو النامية.

من خلال التجربة السابقة في الولايات المتحدة الأمريكية لوحظ أن التكنولوجيا، وعبر معظم التخصصات، يمكن أن تؤدي إلى تفاقم التفاوت في الوصول للسكان المعرَّضين للخطر، بما في ذلك الأقليات العرقية والإثنية، وغير الناطقين باللغة الإنجليزية، وكبار السن، وذوي الدخل المنخفض، وغيرهم. جاء هذا في مجلة "هارفارد بيزنس ريفيو" 20 نوفمبر 2020م.

آراء المواطنين السعوديين

أظهرت دراسة بحثية أُجريت في منطقة القصيم حول آراء المواطنين السعوديين في النموذج السعودي من التطبيب عن بُعد النتائج التالية:

- 40.4% من المواطنين المشاركين كانوا على علم ببرنامج التطبيب عن بعد
- بلغت نسبة الرضا العام عن التطبيب عن بُعد 77.7%
- 83% أبدوا رضاهم عن التحدث بحرية عبر التطبيب عن بُعد
- نسبة الرضا عن سهولة التسجيل بلغت 82.4%
- جودة الصوت بلغت 82.2%
- القدرة على فهم تعليمات الطبيب بلغت 80.3%
- مهارة تواصل الطبيب 80.3%
- سهولة الوصول لخدمات التطبيب عن بُعد خلال جائحة كوفيد 19 بلغت 79.5%
- أعلى نسبة من الرضا، (حوالي 100%) كانت للذين لديهم عدد من الأمراض النفسية والفشل العضوي
- أدنى نسبة رضا، (حوالي 50%) كانت لمن لديهم أمراض السكري وارتفاع الدهون في الدم وأمراض المناعة

ومن الملاحظات كذلك معاناة الأطباء من إجهاد العمل عبر الفيديو، وأيام العمل الطويلة، وتآكل الحدود بين العمل والحياة، إذ تمثل هذه تحديات للرفاهية في مهنة تعاني بالفعل من معدلات عالية من الإرهاق.

في الممارسات السابقة ظهرت مشكلات كثيرة فيما يخص سداد تكاليف التطبيب، وأن مستقبل التطبيب عن بُعد واستدامته يعتمد على قدرة المستفيد على سداد هذه التكاليف.

وفي السياق نفسه، فإن أمن البيانات قد يشكِّل قلقًا كبيرًا لكثير من مستخدمي التطبيب عن بُعد في دولة ذات ثقافة محافظة، مثل المملكة العربية السعودية. فقد لا يشعر الناس، وخاصة النساء، بالراحة في مشاركة تاريخهم الطبي أو إظهار أجسادهم من خلال الكاميرات، وقد يمتنعون عن إرسال صور تظهر آفاتهم أو أمراضهم للسبب نفسه، مما يعيق مستقبل التطبيب عن بُعد في البلاد.

إن آخر التحديات والقيود وأعظمها هو إقبال المجال الطبي على "الطب الشخصي" أو الطب الدقيق أو ما يسمى أحيانًا بالطب الطبقي في المستقبل القريب، وهذا التخصص الطبي الحديث هو أنموذج يقسم الناس إلى مجموعات مختلفة من حيث القرارات والممارسات والتدخلات أو المنتجات الطبية المصممة خصيصًا للمريض استنادًا إلى الاستجابة المتوقعة أو خطر الإصابة بالمرض.

رغم كل ذلك، ورغم حداثة عهده، سَجّل التطبيب عن بعد نجاحات عديدة، كما واجه معوقات كثيرة كما ذُكر سابقًا، لكنه استمر بعد جائحة كوفيد 19، ولو بوتيرة بطيئة. ومن المتوقع أن يستمر على هذا النمط مع الاستفادة من الأخطاء ومحاولة تجنبها. ويؤكد النموذج السعودي الرائد إمكانية تخطي معظم هذه العقبات بتدخل الدولة ودعمها وإدارتها الفعالة.



VISION 2030 رؤية
المملكة العربية السعودية
KINGDOM OF SAUDI ARABIA

في الطريق نحو "كوب 28"
تحدّيات ومتطلّبات الريادة في التحوّل للطاقة النظيفة

مصعب الملا
نائب الرئيس لقضايا الطاقة والاقتصاد في أرامكو السعودية

أصبح التغيُّر المناخي، كالذكاء الاصطناعي، مالئ الدنيا وشاغل الناس في كل مكان، فهو أحد أكبر التحديات التي نواجهها في عصرنا الراهن. فهل بالإمكان البحث عن حلول جماعية أكثر استدامة تتفق عليها الدول والمؤسسات خلال الثلاثين سنة القادمة دون المساس بمتطلّبات الحياة الحديثة التي ينشدها إنسان اليوم؟

هذا هو جوهر الاختلاف بين دول شمال العالم وجنوبه حول ما يُسمى خطة "تحول الطاقة"، حيث ترتفع الأصوات التي تركز على ضرورة مواجهة هذا التحدي، والكل يتفق على أهمية ذلك. ولكن خارطة الطريق تختلف لدى الأطراف ذات المصلحة، فأولويات دول الشمال، التي حققت قدرًا من النمو الاقتصادي والرفاهية لشعوبها، تختلف عن أولويات دول الجنوب، التي تسعى للخروج من دائرة الفقر أو النمو البطيء. فما زال هناك نحو 733 مليون شخص حول العالم يفتقرون إلى الكهرباء، في حين يفتقر حوالي 2.4 مليار شخص إلى إمكانية الطهي النظيف.

وفي الربع الأخير من عام 2023م، أصبحت منطقة الخليج العربي محط أنظار العالم بشكل متزايد، فهي تشهد زخمًا متصاعدًا في نقاشات التغير المناخي. فمن جهة، استضافت الرياض في الفترة من 8-12 أكتوبر 2023م مؤتمر أسبوع المناخ لمنطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، الذي نُظّم بالشراكة مع الأمم المتحدة، وكان تجربة تاريخية فاقت التوقعات بحضور 9000 مشارك من 137 دولة. وقد تضمّن 240 جلسة استمرت على مدى 5 أيام، فكان فرصة مواتية لاستعراض التقدُّم المُحرَز إقليميًا



نحو تحقيق أهداف اتفاق باريس للمناخ، كما مثَّل خطوة مهمة تجاه الاستعدادات الجارية لانعقاد مؤتمر الأطراف ضمن اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغيُّر المناخ "كوب 28" (COP28)، الذي تستضيفه مدينة إكسبو دبي في الإمارات العربية المتحدة بين 30 نوفمبر و12 ديسمبر 2023م.

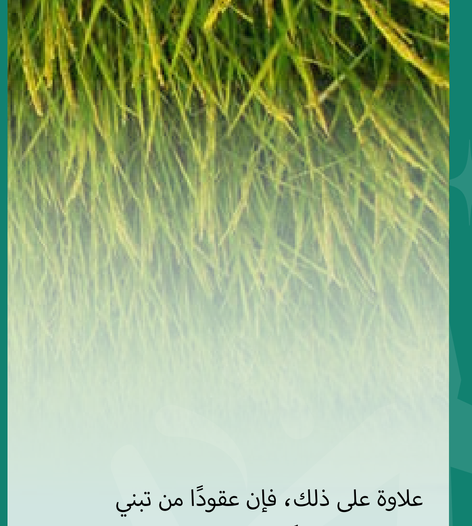
ويمثّل مؤتمر "كوب 28" المرتقب أوج النقاش والتقييم العالمي لسُبل معالجة آثار تغيُّر المناخ على المستوى الدولي العالمي؛ لا سيما أن الفترة القريبة الماضية شهدت أيضًا عددًا من الأحداث العالمية والإقليمية التي تمهّد له أو ترتبط به في أهدافها، ومن بينها مثلًا مؤتمر البترول العالمي الرابع والعشرون (WPC 2023)، الذي انعقد في شهر سبتمبر 2023م في مدينة كالغاري الكندية. وكذلك العديد من المؤتمرات العالمية والإقليمية الأخرى حول العالم.

التحوُّل مع مراعاة ضرورات التنمية الاقتصادية وأمن الطاقة

وعلى الأرجح أن الانتقال نحو عالم أكثر استدامة يتطلّب تحوُّل نظام الطاقة العالمي ليشتمل على المزيد من الأنظمة منخفضة الانبعاثات الكربونية. وفي ضوء الضخامة الهائلة لنظام الطاقة العالمي، هناك حاجة ماسة إلى العديد من المشاريع واسعة النطاق التي تُسهم في دعم هذا التحوُّل في قطاعات اقتصادية وصناعية متعددة؛ وهذا بحد ذاته يفرض تحديات غير مسبوقة على كافة أصعدة التصميم والهندسة والتنفيذ. وقد أظهرت تقديرات معهد "ماكنزي" العالمي أن تكلفة وصول العالم إلى الحياد الصفري ستكون حوالي 275 تريليون دولار أمريكي بحلول عام 2050م.

وفي حين أن هناك وضوحًا وتوافقًا عالميًا على ضرورة خفض الانبعاثات بشكل كبير للحد من آثار التغير المناخي، إلا أن النهج الذي ينبغي على العالم أن يتبعه للوصول إلى هذا الطموح لا يزال يشكل تحديًا حقيقيًا وسط معلومات متضاربة وتصورات مختلفة من الأطراف المعنية. وهنا، نجد أن ما يوحد جميع الاقتصادات والمجتمعات ويمس جميع أفرادها لا ينحصر بالرغبة في تقليل تأثيرات تغيُّر المناخ فقط على المدى الطويل، بل يشمل أيضًا الحاجة إلى الحصول على طاقة موثوقة وبأسعار معقولة على المديين القصير والمتوسط.

وبطبيعة الحال، لن يكون شكل تحوّل الطاقة ومنهجه واحدًا في جميع الأقاليم، فما يكون ممكنًا اليوم في الاقتصادات المتقدمة قد لا يكون كذلك في الاقتصادات النامية، حيث تواجه الأسواق الناشئة، وبشكل خاص في الدول النامية، تحديات إضافية تؤثر في



قدرتها على تحقيق التنمية المستدامة مع تلبية احتياجاتها من الطاقة الموثوقة ومعقولة التكلفة. وعليه، فإن التحوّل الناجح يجب أن يراعي التوازن بين أهداف الاستدامة وبين أمن الإمدادات وإتاحة الطاقة بأسعار معقولة سعيًا لتحفيز النمو وتحقيق الازدهار الاقتصادي.

هناك أصوات تنادي بالتوقف الفوري عن استخدام النفط والغاز، وتطالب بوضع العراقيل على مشاريع الاستثمار في هذا المجال. هذه الأصوات تفتقد الواقعية ولا تتسم بالانتظام والتنوع، إذا أخذنا في عين الاعتبار الحجم الهائل لنظام الطاقة العالمي، الذي يتطلب سنوات طويلة واستثمارات ضخمة لتحويله. إن النهج المنظّم والعملي يدور حول رعاية مسارات متعددة للتحوّل، والحرص على ألا تؤدي وتيرة التغيير إلى صدمات اقتصادية عالمية، أو التأثير على الفئات الأكثر ضعفًا والأقل قدرة على التكيف. ومع تزايد النمو السكاني عالميًا، من المتوقع أن يزيد الطلب على الطاقة بنسبة 47% بحلول عام 2050م. وللمساهمة في تحقيق طموحاتنا الإنسانية المشتركة، يتعين على العالم إيجاد حلول منخفضة التكلفة وعالية التأثير، والاستفادة من البُنى التحتية القائمة قدر الإمكان، والتقليل من الانبعاثات بدلًا من حصر وتضييق نطاق وسائل الحصول على الطاقة.

طموحٌ ترفده التقنية والابتكار

وإدراكًا لأهمية موضوع تغير المناخ وحجمه، خطت المملكة خطوات مهمة في السعي نحو إيجاد حلول ممكنة لهذه المشكلة، وذلك من خلال الإعلان عن خططها للوصول إلى صافي الانبعاثات الصفري بحلول عام 2060م؛ إذ يجري تنفيذ مبادرات طموحة في جميع أنحاء البلاد بهدف خلق مستقبل أكثر استدامة للجميع. ويشمل ذلك تنفيذ برامج شاملة لكفاءة استخدام الطاقة، والقيام باستثمارات كبيرة في مصادر الهيدروجين والطاقة المتجددة، والعمل على تطوير تكنولوجيا متطورة لاستخلاص الكربون وتخزينه لتخفيض مستوى الانبعاثات الكربونية الدفيئة.

وباعتبارها إحدى أكبر شركات الطاقة والكيميائيات المتكاملة في العالم، تؤدي أرامكو السعودية دورًا فعّالًا في تحقيق تحول عالمي منتظم في مجال الطاقة، وذلك انطلاقًا من اعتقادها الراسخ بأهمية النفط والغاز، وبالاستفادة من الابتكارات التقنية. وتُعد أرامكو من بين الجهات التي تعمل على تمكين البنية التحتية للصناعة والتقنية والاستدامة، وتعزيزها في المملكة من خلال تنفيذ استثمارات متنوعة وواسعة النطاق، والدخول في شراكات رئيسة محلية وإقليمية ودولية. وبصفتها شركة تتخذ من المملكة مركزًا لأعمالها، تُدرك أرامكو أهمية إدارة الموارد الطبيعية الثمينة، فهي تسعى منذ فترة طويلة إلى الحفاظ على المياه، وتعزيز كفاءة الطاقة، وإدارة الانبعاثات والنفايات، والحفاظ على البيئة الطبيعية.

وعلى سبيل المثال، تمثل أعمال حرق الغازات الفائضة والمتسربة أحد أهم العوامل التي تسهم في زيادة انبعاثات الغازات الدفيئة في قطاع النفط والغاز. ومنذ السبعينيات، كانت الشركة سباقة إلى خفض كميات الغاز المُهدَر بالحرق، وتم التعاون والتنسيق مع حكومة المملكة لاستخلاص القيمة الاقتصادية للغاز عبر مشاريع التحلية والكهرباء والكيميائيات وعدد من الصناعات الأخرى، بالإضافة إلى محاولة تقليل التأثير البيئي الناجم عن حرقه؛ مما مكّن من تحقيق مستويات رائدة في الصناعة من حيث الكثافة المنخفضة لانبعاثات الميثان.

علاوة على ذلك، فإن عقودًا من تبني الابتكارات المميَّزة والممارسات التشغيلية جعلت الشركة من بين أقل شركات النفط والغاز الكبرى من حيث كثافة الانبعاثات الكربونية على مستوى قطاع التنقيب والإنتاج. ويعود الفضل في ذلك إلى قرابة نصف قرن من إدارة المكامن بعناية، والاستثمار في الكفاءة، وتقليل حرق الغاز. ويؤهل هذا الموقع البارز الشركة لأداء دور فعّال في عملية تأمين مستقبل الطاقة العالمي، وخاصة في ظل القيود المتعلقة بآثار تغير المناخ.

وقد أعلنت أرامكو السعودية عن طموحها بالوصول إلى الحياد الصفري لانبعاثات الغازات الدفيئة في النطاقين 1 و2 للموجودات التي تملكها وتديرها بالكامل بحلول عام 2050م، كما تستهدف تقليل انبعاثات هذه الغازات من النطاقين المُستهدفين بمقدار 52 مليون طن متري من ثاني أكسيد الكربون بحلول عام 2035م، وذلك على أساس توقعات الأعمال المعتادة. ولتحقيق هذا الطموح، ترتكز الشركة على خمسة محاور رئيسة: تعزيز كفاءة الطاقة عبر أصول ومرافق وعمليات قطاع التنقيب والإنتاج وقطاع التكرير والكيميائيات والتسويق، وتحقيق خفض إضافي في انبعاثات غاز الميثان ونِسب الإحراق، والتوسع في استخدام مصادر الطاقة المتجددة، والريادة في استخلاص الكربون وتخزينه، وتطوير الأرصدة الكربونية أو شرائها لموازنة الانبعاثات صعبة الحل.

وفيما يلي محطات مرحلية في طريق أرامكو نحو التحول في الطاقة:

- العمل على بناء أحد أكبر مراكز استخلاص الكربون وتخزينه في العالم، إذ تُقدّر الطاقة الاستيعابية المتوقعة للمركز بـ 11 مليون طن في السنة بحلول عام 2035م.
- تدشين صندوق استثماري بقيمة 1.5 مليار دولار للاستثمار في الابتكارات والتقنيات التي تهدف لمعالجة تحديات المناخ.
- تحقيق نسبة 59% من إجمالي إنفاق الشركة على الإبتكار والبحث والتطوير وتركيزها في مجالات الاستدامة في عام 2022م، بزيادة قدرها 7% عن مستوى الإنفاق في عام 2021م.
- خفض الكثافة الكربونية لقطاع التنقيب والإنتاج بنسبة 15% بحلول عام 2035م.
- خفض كثافة انبعاثات غاز الميثان لقطاع التنقيب والإنتاج إلى نحو 0.05% بحلول عام 2025م، وهو مستوى أقل بفارق ملحوظ عن الهدف الذي حددته مبادرة شركات النفط والغاز بشأن المناخ (OGCI) عند 0.20%.
- وضع خطة ونُظم لموازنة الانبعاثات التي يصعب التخلص منها. وفقًا لهذه الخطة، زرعت الشركة 11 مليون شجرة قرم (مانغروف)، ضمن سعيها لزراعة 31 مليونًا من هذه الأشجار بحلول عام 2025م على طول الشريطين الساحليين المطلّين على الخليج العربي والبحر الأحمر.
- مساندة تطوير سوق الكربون الطوعية الإقليمية في المملكة (RVCM)، إذ شاركت في أكبر مزادين للوحدات الكربونية في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا عبر هذه السوق، حين أُقيما في المملكة وكينيا. وخلال المزاد الأول لأرصدة الكربون، اشترت أرامكو 650 ألف وحدة من أصل 1.4 مليون وحدة جرى بيعها.

وبالإضافة إلى ذلك، تستثمر أرامكو في التكنولوجيا التي يمكن أن تدعم تحوُّلًا مستقرًا يستفيد من جميع مصادر الطاقة؛ لتلبية الطلب المتزايد عليها عالميًا مع تقليل انبعاثات الغازات الدفيئة.

ولم تقتصر جهود أرامكو على أعمالها، بل امتدت لمشاركة المجتمع وبخاصة أجيال المستقبل في تعزيز الوعي بالتحدي المناخي وتقديم الحلول الممكنة. ففي 12 سبتمبر 2023م، تعاونت أرامكو مع أكاديمية طويق، فحققت رقمًا عالميًا ضمن موسوعة "غينيس" للأرقام القياسية عبر إقامة برنامج تعليمي للتوعية بتحدي المناخ. شمل البرنامج ورش عمل وابتكارات ومحاضرات، ومعرضًا كبيرًا للأفكار والمبادرات والتقنيات التي تسعى لتشكيل المستقبل. وقد أُقيم الحدث في مركز معارض الظهران، حيث شارك فيه 11,148 زائرًا منهم 2,758 طالبًا وطالبة، قدَّموا 1,388 مبتكرًا.

من جهة أخرى، دشّن مركز الملك عبدالعزيز الثقافي العالمي (إثراء)، ذراع أرامكو المجتمعية والإبداعية، في 13 سبتمبر 2023م معرض الفن المعاصر "صافي الصفر"، الذي يستعرض أعمالًا فنية لـ16 فنانًا عالميًا، واثنين من الفنانين السعوديين المعاصرين، مسلطًا الضوء على وجهة نظرهم إزاء التحديات البيئية؛ بهدف إثراء الحوار الثقافي وتحفيز السلوك البيئي الفعال.

ولا شك أن تحقيق التحوُّل في نظام الطاقة العالمي الحالي الهائل، وتوفير مستقبل آمن وأكثر استدامة للجميع، هو مهمة عظيمة تحتاج إلى جهود فردية ومشتركة من جميع الشركات وعلى طول سلاسل القيمة، وهذا يستدعي تضافر جهود جميع الحكومات والجهات التنظيمية والمستهلكين؛ إذ لا يمكن لجهة واحدة أو دولة منفردة أن تقوم بها.

ما نقوم به كمجتمع عالمي سيحدد الإرث الذي سنتركه للأجيال القادمة. وطموحنا في أرامكو السعودية هو أن نكون جزءًا من الحل، وأن نستكمل دورنا في توفير الطاقة الموثوقة التي يحتاجها العالم للمساهمة في تحقيق تحوُّل منتظم يستند على منهج عملي وواقعي متعدد المسارات، يوازن احتياجات التنمية واحتياجات الاستدامة للناس حول العالم سعيًا لتحقيق حياة أفضل.



الرياضة في عصر الهولوغرام والميتافيرس

يشهد العالم اليوم تحولاً كبيرًا في مجال التكنولوجيا نتيجة تطورات الذكاء الاصطناعي والتطـور النوعي في شبكة الإنترنت. فالإنترنت التي غيرت مجرى حياتنا في العقود الثلاثة الماضية، بدأت تُخلي الساحة لجيلٍ جديدٍ، تمامًا كما أخلت آلة الطباعة الساحة لشاشة الكمبيوتر. وكما يقول الرئيس التنفيذي لمنصة ميتا، مارك زوكربرغ، لم تكن الإنترنت سوى تقنيةٍ خارجيّةٍ ننظر إليها على شاشات هواتفنا وأجهزتنا الأخرى، أما الإنترنت القادمة فـ"نحن جزءٌ منها وهي جزءٌ منا، أو يمكن أن نكون بداخلها". وعالَم الرياضة هو في صلب هذا التحول، إنه يتهيأ لانعطافة كبيرة بدخول "الهولوغرام" و"الميتافيرس" إلى معظم نشاطاته.

محمد سناجلة





مارك زوكربرغ.

نعيش اليوم مرحلة شبيهة ببداية الثورة الرقمية التي غيرت حياتنا منذ منتصف التسعينيات. فشبكة الإنترنت ظهرت قبل ذلك بعقود، لكنها لم تتمكن من إحداث التغيير الجذري بمفردها إلا بعد أن تراكمت مجموعة من الاكتشافات والتقنيات الجديدة عند نقطة التحول تلك.

كذلك "الهولوغرام" و"الميتافيرس" اللذان سيطبعان المرحلة القادمة، بما فيها عالم الرياضة، ظهرا قبل عقود لكن لم تتوفر لهما البيئة التكنولوجية المناسبة لإحداث الطفرة التي بدأنا نشهد بداياتها المتفرقة اليوم.

البيئة الافتراضية

تتكون كلمة ميتافيرس من "ميتا" وتعني "ما بعد"، و"فيرس" أي العالم، ليصبح معناها ما بعد العالم الواقعي، أي العوالم الافتراضية، وقد يشير إلى الإنترنت بشكلٍ عام. واستُخدم المصطلح أول مرة في فيلم الخيال العلمي "انهيار الثلوج" (1992م)، وكان أبطاله شخصيات خيالية "أفاتار". ومن المثير للاهتمام أن يكون من أول من شخَّص وصوَّر الميتافيرس، دون تسميته بهذا المصطلح، هو الشاعر الفرنسي السوريالي أنطونين أرتو. لكنه استَخدم وصاغ أول مرَّة تعبير "العالم الافتراضي" في مجموعة من المقالات نشرها لاحقًا في كتاب عنوانه "المسرح وقرينه"، (1938م)، وفيه يرسم رؤية لكيفية تنسيق الشخصيات والأشياء والصور لإنشاء عوالم افتراضية غنية ومنغمسة.

ويعرِّف الرئيس التنفيذي لشركة "ميتا"، مارك زوكربرغ، الميتافيرس بأنه "بيئة افتراضية انغماسية، يشعر فيها المرء بأنه حاضرٌ جسديًا في بيئة غير مادية، حيث يمكنك الوجود بالفعل مع الناس في البيئة الرقمية والمجتمع الرقمي. يمكننا التفكير فيه على أنه إنترنت متجسد، توجد فيه فعليًا بدلًا من مجرد النظر إليه كما يحدث الآن". ويعتبر زوكربرغ أن الميتافيرس هو الجيل القادم من الإنترنت، ويقول عنه: "بدلًا من أن تكون شبكة الإنترنت شاشة خارجية ننظر إليها على هواتفنا المحمولة أو شاشات الحاسوب، ستصبح جزءًا منا ونحن جزءًا منها... إنترنت المستقبل هو شيء يمكننا أن نكون في داخله".

لم يعد مارك زوكربرغ وشركته ميتا وحدهما في السباق نحو عالم الميتافيرس، بل هناك شركات تكنولوجيا أخرى بدأت أبحاثها بهدف التحول نحو عالم الميتافيرس، لأنها تنظر إليه باعتباره جسرًا تقنيًا للربط بين الهواتف والأجهزة الذكية مع العوالم الافتراضية، حيث يوجد مليارات البشر للعمل واللعب والتواصل في المجتمع الرقمي.

ويصف المؤسس المشارك لشركة "سكابك" الهندية للواقع المعزز، ساي كريشنا، الميتافيرس بأنه "التطور الثوري للإنترنت، حيث المساحات ثلاثية الأبعاد، والبيئات الافتراضية الانغماسية، والاتصالات المتطورة، فضلًا عن نقلة نوعية في التجارة والترفيه". إن الميتافيرس في نظره ومنظور الكثيرين غيره، هو الخطوة المنطقية التالية لما بعد مرحلة الهواتف الذكية، وشبكة الإنترنت التقليدية التي نعرفها الآن.

ثنائية الميتافيرس والهولوغرام

والميتافيرس كما يتضح مما سبق هو بيئة افتراضية منغمسة، حيث يمكنك الوجود بالفعل مع الناس في البيئة الرقمية والمجتمع الرقمي. ولكننا نحتاج لأداة ثالثة للوجود فيه، مثل نظارات خاصة للواقع الافتراضي الجديد كنظارات "أوكلوس في آر" (Oculus VR). كما نحتاج إلى تنزيل تطبيقات خاصة مثل تطبيق "غرف عمل هورايزن" (Horizon workrooms)، التي تستخدمها شركة ميتا كي ننغمس في عوالم الميتافيرس. ورغم أن الميتافيرس شُخص في أواخر الثلاثينيات، فقد احتاج إلى التطورات التي طرأت في الذكاء الاصطناعي، والواقع المعزز والمختلط، وإنترنت الأشياء، والبلوك تشين وما إلى ذلك، حتى أصبح محور التغيير اليوم.

أما الهولوغرام فاكتُشف أول مرَّة في أواخر الأربعينيات من القرن العشرين، ولكن لم يجرِ تطويره بالشكل الذي نعرفه اليوم إلا بعد اكتشاف الليزر في الستينيات.

وبدوره احتاج الليزر إلى مدة طويلة من الأبحاث والاكتشافات ليصبح بمقدور المستهلكين تحمل تكلفته العالية. واحتاج الهولوغرام كذلك إلى التكنولوجيا الرقمية والجيل الخامس من الإنترنت ووسائل الاتصال ليصبح استخدامه في الرياضة وغيرها متاحًا على نطاقٍ واسع.

الهولوغرام في الرياضة والتدريب

والهولوغرام هو صورةٌ مجسمةٌ ثلاثية الأبعاد تُنشأ بواسطة الضوء والصوت، بحيث تبدو الكائنات المصورة وكأنها كائنات حقيقية. يتكون الهولوغرام من حزمة من الموجات الضوئية التي تصطدم بالجسم المراد تصويره، فتقوم بتخطيطه ورسم أبعاده ونقل صورة مجسمة طبق الأصل عنه من خلال إطلاق أشعة مضيئة؛ ليظهر الجسم المنقول واضح المعالم دون القدرة على لمسه. ويمكن أن تستجيب الصور المجسمة لنظرتك وإيماءاتك وأوامرك الصوتية، كما يمكنها أيضًا التفاعل مع أسطح العالم الحقيقي من حولك.

وقد بدأت التطبيقات الأولى لتقنية الهولوغرام في تغيير شكل الألعاب الرياضة على أكثر من صعيد، مثل التدريب والمشاهدة التفاعلية وطرق اللعب التي بدأت بالفعل تُغيّر وجه الرياضة. فإذا كنت تحلم بالحصول على دروس متخصصة في رياضة التنس، من أحد أعظم لاعبي التنس في العالم الذي يبعد عنك آلاف الأميال، فبإمكانك اليوم تحقيق حلمك فعلًا بواسطة هذه التقنية.

ففي أبريل 2023م، تدرب لاعبا تنس شابان من الإنجليز، وهما سام كلاج ودايموند بيزلي، مع النجمة العالمية البريطانية إيما رادوكانو باستخدام تقنية الهولوغرام. حضر اللاعبان الشابان في مركز التنس المجتمعي التابع لنادي "عموم إنجلترا" في لندن، بينما كانت المدربة في مدينة أبوظبي بدولة الإمارات العربية المتحدة. خلال الدرس، ظهرت صورة مجسمة لرادوكانو وهي تغذي الكرات للاعبين، كما لو كانت معهم فعليًا في نفس الملعب. كما كانت تقدم تعليقات حية على تسديداتهم، وتصوب أخطاءهم، وتوجههم نحو التعامل السليم مع الكرة من مثل: "كان ذلك سريعًا جدًا، عليك أن تبطئ قليلًا من سرعتك"، أو "هناك الكثير من الدوران العلوي للكرة أثناء الإرسال وعليك أن تقلل من هذا الدوران عند إرسال الكرة" وهكذا.

لقد كانت واقعية التدريب عالية جدًّا، حتى إن سام اعتقد أن المدربة معه في نفس الملعب وتتحدث إليه بشكل مباشر. بدورها قالت رادوكانو: "إن الجيل القادم من لاعبي التنس في العالم يبدأ الآن". وأضافت: "إن تدريب سام ودايموند، في أول درس ثلاثي الأبعاد على الإطلاق في العالم باستخدام تقنية الهولوغرام، ليس سوى البداية لتغيير عالم التدريب الرياضي، ونأمل أن يتم تدريب بطل



إيما رادوكانو، تستخدم تقنية الهولوغرام.

الهولوغرام والميتافيرس ينقلان الجماهير إلى الملعب بصورة ثلاثية الأبعاد.





كريستوفر لي.

ويمبلدون التالي أينما كان وجوده الجسدي في العالم عبر هذه التكنولوجيا المتطورة".

ثورة في عالم التشجيع

يقول المهندس المعماري في شركة "بابيولوس" (Populous)، كريستوفر لي: "كان للتكنولوجيا تأثير كبير على كيفية تصور الملاعب الرياضية وبنائها منذ عشرين عامًا. ففي الماضي، كنا نضع الشاشات في الملاعب، ولكن اليوم أصبح لدينا أجهزة كمبيوتر قوية في جيوبنا. وهذا يفتح آفاقًا جديدة لدمجها مع الواقعين المعزز والافتراضي لإنشاء تجربة مشاهدة أكثر تفاعلية، بدءًا من رؤية زوايا الكاميرا المختلفة في مقعدك، وتتبع معدل ضربات القلب والسرعة وحركة اللاعبين الذين يرتدون ملابس ذكية على أرض الملعب". ويعتقد كريستوفر لي أن الهولوغرام سيخلق الحدود الكبيرة التالية في المستقبل غير البعيد، مضيفًا: "يمكنك أن تتخيل مشجعي ريال مدريد في ساو باولو بالبرازيل وهم يشاهدون المباراة في ملعبهم في نفس الوقت الذي يشاهدها فيه المشجعون في إسبانيا... الأمر كله يتعلق بالاجتماع معًا من أجل تجربة جماعية غنية". ومن الطرق المثيرة التي يمكن من خلالها استخدام تقنية الهولوغرام ثلاثية الأبعاد في الألعاب الرياضية، هي عرض نسخ افتراضية للاعبين وهم في الملعب. هذا يمنح المشجعين رؤيةً شخصيةً قريبةً للرياضيين المفضلين لديهم، ويسمح لهم برؤية حركاتهم ومهاراتهم بطريقة مستحيلة من زاوية الكاميرات القياسية العادية. ويمكن أن يوفر للمدربين واللاعبين رؤى قيمة حول أدائهم؛ مما يساعدهم على تحسين مستواهم وتطوير إمكاناتهم.

يمكن أيضًا استخدام شاشات العرض ثلاثية الأبعاد لإنشاء عروض مرئية مذهلة بين أشواط المباراة، مما ينقل المشجعين إلى مستوى جديد مثير ومختلف تمامًا عما اعتادوه في السابق.

شبكة الإنترنت القادمة هي جزءٌ منا ونحن جزءٌ منها.

ولعل الأمر الأكثر إثارة، في عروض الهولوغرام ثلاثية الأبعاد في عالم الرياضة، هو أن هذه التكنولوجيا لا تزال في مراحلها الأولى، وهناك احتمالات لا حصر لها للابتكارات المستقبلية. ومع استمرار تطور هذه التكنولوجيا، يمكننا أن نتوقع رؤية تجارب غامرة وأكثر إثارة للجماهير، إضافة إلى توقع طرقٍ جديدةٍ للمدربين واللاعبين لتحليل مستواهم وتحسين أدائهم وتطويره.

مستقبل الرياضة بالميتافيرس

إن الثورة القادمة للعوالم الافتراضية، التي توفرها تقنية الميتافيرس، ستغير الطريقة التي يمارس بها الناس الرياضة، وترفع مستوى مشاركة المشجعين وتفاعلهم إلى مستوياتٍ غير مسبوقة. سيصنع الميتافيرس تجربة رياضية مختلفة ومتميزة لم توجد من قبل، وتختلف بشكل جذري عن تجربة مشاهدي التلفزيون عن بُعد اليوم حين يظلون عالقين بقوة على أرائكهم. سيكون وجود منغمس تمامًا يسمح للجماهير بالمشاركة بشكل كامل، والتفاعل مع لاعبيهم المفضلين بطرق لم تكن ممكنة في الماضي. كما سيكون لهذه التكنولوجيا المتقدمة تأثير أساس في طرق التدريب الرياضي وأساليبه، ويمنح الأندية الرياضية طرقًا جديدة وغير مسبوقة لتحقيق الدخل والأموال من ممتلكاتها الرقمية.

كما سيضمن الميتافيرس ذوبان الحواجز الجغرافية في الخلفية، مما يسمح للجماهير من جميع أنحاء العالم بالالتقاء معًا للاستمتاع بالحدث قبل المباراة وفي أثنائها وبعدها. وعلى سبيل المثال، يمكن للمشجعين مقابلة لاعبي كرة القدم المفضلين لديهم، أو مدرب الفريق، والتقاط الصور الشخصية معهم، أو الحضور في مقهى افتراضي حيث يمكنهم مناقشة اللعبة مع المشجعين الآخرين.

أما خلال المباريات الفعلية، فسيتمكن المشجعون من الاستمتاع بمنظر بانورامي مذهل للحدث، مع فرصة التكبير للحصول على زاوية رؤية أكثر ملاءمة. وستكون تجربة ممتعة مع تفاصيل أكبر بكثير مما هو ممكن من خلال التلفزيون التقليدي أو حتى الحضور الشخصي. وسيُعزَّز ذلك من خلال كاميرات متعددة الرؤية تتيح إمكانية الدخول إلى الملعب الافتراضي بحيث يشعر المشاهد كما لو كان في قلب الحدث. كما يمكنهم الانضمام إلى المشجعين داخل الملعب أو خارجه، أو الجلوس مع المدرب في دكة اللاعبين البدلاء، أو ببساطة المشاهدة من بُعد مع مجموعة من الأصدقاء.

بداية فعلية

قد يبدو الأمر وكأنه سيناريو خيالي بعيد ومستقبلي، لكن الملاعب الافتراضية أصبحت موجودة بالفعل. فمنذ وقت قصير، أطلقت منظمة الرياضات الإلكترونية الاحترافية "صنع في البرازيل" أول ملعب للرياضات الإلكترونية في منطقة بالميتافيرس يطلق عليها اسم "إم آي بي آر أرينا" (MIBR Arena)، وهي توفر تجربة حصرية لمحبي الرياضات الإلكترونية. وبُني الملعب بالشراكة مع شركة البنية التحتية "ميتافيرس إفري ريالم" (Metaverse Everyrealim)، وهو مصمم لخلق فرص للجماهير واللاعبين للتفاعل والتحدث بعضهم مع بعض. وقد صُممت هذه الساحة على غرار ساحة ملاعب الرياضات البدنية. وهي تقع داخل مدينة ميتافيرس مستوحاة من مدينة ريو دي جانيرو البرازيلية، حيث يقع مقرها. ويمكن للزوار تجربة جميع المعالم السياحية الشهيرة في المدينة، ومنها متنزه كوباكابانا وتمثال يسوع المسيح في قمة جبل كوركوفادو. كما يوجد داخل الملعب منطقة لكبار الشخصيات، حيث يمكن للناس أن يجتمعوا معًا للتحدث وتبادل الآراء والتفاعل فيما بينهم دون حواجز.

قمة جبل الجليد

ما زلنا في الأيام الأولى للتحول، وكل ما رأيناه حتى الآن هو في الحقيقة مجرد قمة جبل الجليد. أما فيما يتعلق بما يمكن أن يعنيه هذا التحول في الرياضة، فلا تزال تقنيتا الهولوغرام والميتافيرس في بداياتهما الأولى، ولا تزال الكثير من الشركات في مختلف أنحاء العالم تصنع نسخها الخاصة منهما.

مع هذه التطورات الخيالية التي بدأنا نعيشها، والتي يندمج فيها الإنسان بالتكنولوجيا، ألا يصبح حينئذٍ السؤال القلق عن دور الإنسان الذي ينتمي إلى مرحلة انقضت، مقابل الذكاء الاصطناعي، خارج السياق؟



"إم آي بي آر أرينا"، ملعب للرياضات الإلكترونية في تقنية الميتافيرس.



مدن تغرق بثقلها

أوزانها وهشاشة التربة واستخراج المياه الجوفية أهم الأسباب

تواجه عشرات المدن الساحلية حول العالم تهديدًا مزدوجًا: غَور الأرض تحتها بفعل ثقل وزنها، وخطر الغرق بسبب ارتفاع مياه البحار. ولذا، تسعى مدن عديدة إلى اتخاذ إجراءات للتصدي لهذين الخطرين، كبناء السدود والحواجز، وتقليل الاعتماد على المياه الجوفية، وإعادة ضخ الماء إلى باطن الأرض، وتحسين التخطيط الحضري. غير أن كل ذلك يبقى غير كافٍ، على الأقل حتى اليوم، ليس فقط بسبب ارتفاع تكلفة الإجراءات اللازمة وصعوبة التنفيذ، بل أيضًا بسبب مَيل الإنسان فطريًا إلى حلّ المشاكل الآنية والتفكير على المدى القصير، بدلًا من مواجهة الأخطار على المدى الطويل.

فيان الخفاجي وفريق القافلة



وفقًا لتقرير نشرته هيئة الإذاعة البريطانية في نوفمبر 2014م، ارتفع عدد سكان الكرة الأرضية من حوالي 10 آلاف في بداية العصر الزراعي، إلى حوالي 8 مليارات الآن؛ إذ يعيش حوالي 50% منهم اليوم في مناطق حضرية. ومن المتوقع أن ترتفع هذه النسبة إلى 70% بحلول عام 2050م، كما جاء في تقرير الأمم المتحدة عام 2019م. ولتوفير مستلزمات إسكان هؤلاء في المدن، توجب ويتوجب استيراد كل ما هو ضروري لذلك ونقله من مكان إلى آخر. فتشكلت شبكاتٌ عالمية من الموردين، تشحن المواد الغذائية والوقود والمياه والسيارات والخرسانة والصلب ومواد البناء الأخرى من مسافات بعيدة. وتسبب هذا التحضر الواسع في تركّز الكتل البشرية في مناطق جديدة من الكرة الأرضية.

وإضافة إلى تحرك هذه الكتل الضخمة وتركزها في أماكن صغيرة نسبيًا، أدّى تخزين المياه في سدود وخزانات، لسد الاحتياجات الضخمة المستجدة، إلى التأثير على معدلات الزلازل وتحرك الصفائح التكتونية، وحتى على شكل محور الأرض ودورانها وإن كان ذلك بشكل ضئيل حتى الآن.

وحاليًا، هناك مدن ساحلية عديدة حول العالم، مثل جاكرتا ونيويورك والإسكندرية وشنغهاي، وما يقرب من 100 مدينة أخرى، تواجه خطر غَور الأرض تحتها بفعل ثقل وزنها. وإلى ذلك يُضاف خطر الغرق بمياه البحار بسبب ارتفاعها بفعل آثار التغيّر المناخي.

وزن المباني والبنية التحتية

الدراسات الأمريكية في هذا المجال كثيرة. فسكان مدينة نيويورك مثلًا، البالغ عددهم 8.8 مليون نسمة، احتاجوا إلى 1.1 مليون مبنى لإيوائهم، ويبلغ إجمالي وزن هذه المباني 764 مليون طن. يُضاف إلى ذلك معدل وزن البنية التحتية ووسائل النقل وغيرها. وقد أدى هذا الثقل الضخم إلى هبوط أرضي هائل بمعدل 27 ملم في السنة في مناطق معينة من المدينة.

وكان تأثير الثقل الضخم أكبر بفارق واضح في مدينة سان فرانسيسكو، إذ بلغ معدل الهبوط الأرضي 80 ملم في السنة. وجاء في مقالة عن تأثير الوزن في هذه المدينة، نشرتها "الجمعية الأمريكية لرصد الزلازل" في ديسمبر 2010م، أن الوزن الهائل أصبح كافيًا لثني الغلاف الصخري الذي تقبع فوقه المنطقة، ولحصول تغيّر ملموس في كتل الصدع التي يتكون منها سطح الأرض فيها. أما أكثر المناطق عرضة للخطر في الولايات المتحدة الأمريكية، على هذا الصعيد، فهو مطار سان فرانسيسكو الدولي. فقد قال عنه أستاذ الجيوفيزياء بجامعة كاليفورنيا في بيركلي، رولاند برجمان: "هذه المناطق أكثر عرضة للغرق؛ لأنها مبنية على مكب نفايات مضغوط... ستغطي المياه حوالي نصف مدارج المطار وممراته بحلول عام 2100م".

طراوة الأرض المردومة

والواقع أن ما فاقم مشكلة أوزان المدن يكمن في الأنشطة المسيئة للطبيعة داخل هذه المدن أو في جوارها مباشرة، مثل ردم الأنهار والبحار، والإفراط في استخراج المياه الجوفية، وما بات يُعبّر عنه بالتغير المناخي الجوفي.

وبالتدقيق في العامل الأول، يُلاحظ أن ارتفاع أسعار الأراضي والمباني داخل المدن الكبيرة، بسبب الطلب المتزايد على السكن، يؤدي إلى تمدد العمران على أراضٍ ساحلية جديدة تشكلت من خلال ردم البحر ومكبّات النفايات القديمة. لكن هذه الأراضي المردومة لا تتمتع بالصلابة الكافية، كتلك التي تكونت طبيعيًا عبر ملايين السنين، ولذا فهي تتعرض لخطر الغَور أكثر من المناطق الأخرى. ومدينة نيويورك مثل واضح على ذلك.

فقد بنى المستوطنون الأوائل مستوطناتهم في جنوب جزيرة منهاتن. ومع التوسّع الحضري وازدياد عدد السكان، واجهت المدينة مشكلة التخلص من القمامة. بدايةً، كانت القمامة تُرمى شمال المدينة قريبًا من الأنهار؛ ولكن مع الزمن، أصبحت أكوام الفضلات بتربتها الجديدة والضعيفة امتدادًا عُمرانيًا لنيويورك.

وهناك مثال مشابه لذلك في قارة آسيا، حيث تعاني مدينة جاكرتا الإندونيسية من مشكلة هبوط للأرض معروفة منذ القرن الثامن عشر. ففي ذلك الوقت، حوّل الهولنديون غابات إندونيسيا لأراضٍ زراعية؛ مما أضعف قوام التربة وتسبب في تعريتها وتجمُّع رواسبها في نهر "سيلوينج". ومع الزمن، تكونت الدلتا التي بُنيت جاكرتا عليها بعد ذلك. ولكن في حالة جاكرتا، ليس وزن المدينة وضعف القشرة الصلبة وحدهما سبب الوتيرة السريعة التي تغرق بها المدينة.

استخراج المياه الجوفية

فوفقًا لتقرير "ناشيونال جيوجرافيك" المنشور في 29 يوليو 2022م، فقدت جاكرتا الداعم الهيدروليكي للتربة (المواد السائلة والصلبة والغازية)، بفعل الحفر الجوفي المفرط وغير المُقنّن بُغية توفير مياه الشرب لسكانها البالغ عددهم 11 مليونًا. فقد وصل عمق هذه الآبار الجوفية إلى 60 مترًا تحت الأرض، وهذا ما أدى إلى سحب معظم المياه التي يستند إليها النظام الهيدروليكي لجوف الأرض، فنتج عن ذلك هبوط أرضي هائل؛ حتى أن 40% من المدينة أصبح مغمورًا بالماء.

"التغير المناخي الجوفي" مصطلح جديد يشير إلى ارتفاع حرارة التربة تحت المدن بفعل بُنيتها التحتية، واستخراج المياه من تحتها يخلّ بالنظام الهيدروليكي لجوف الأرض.

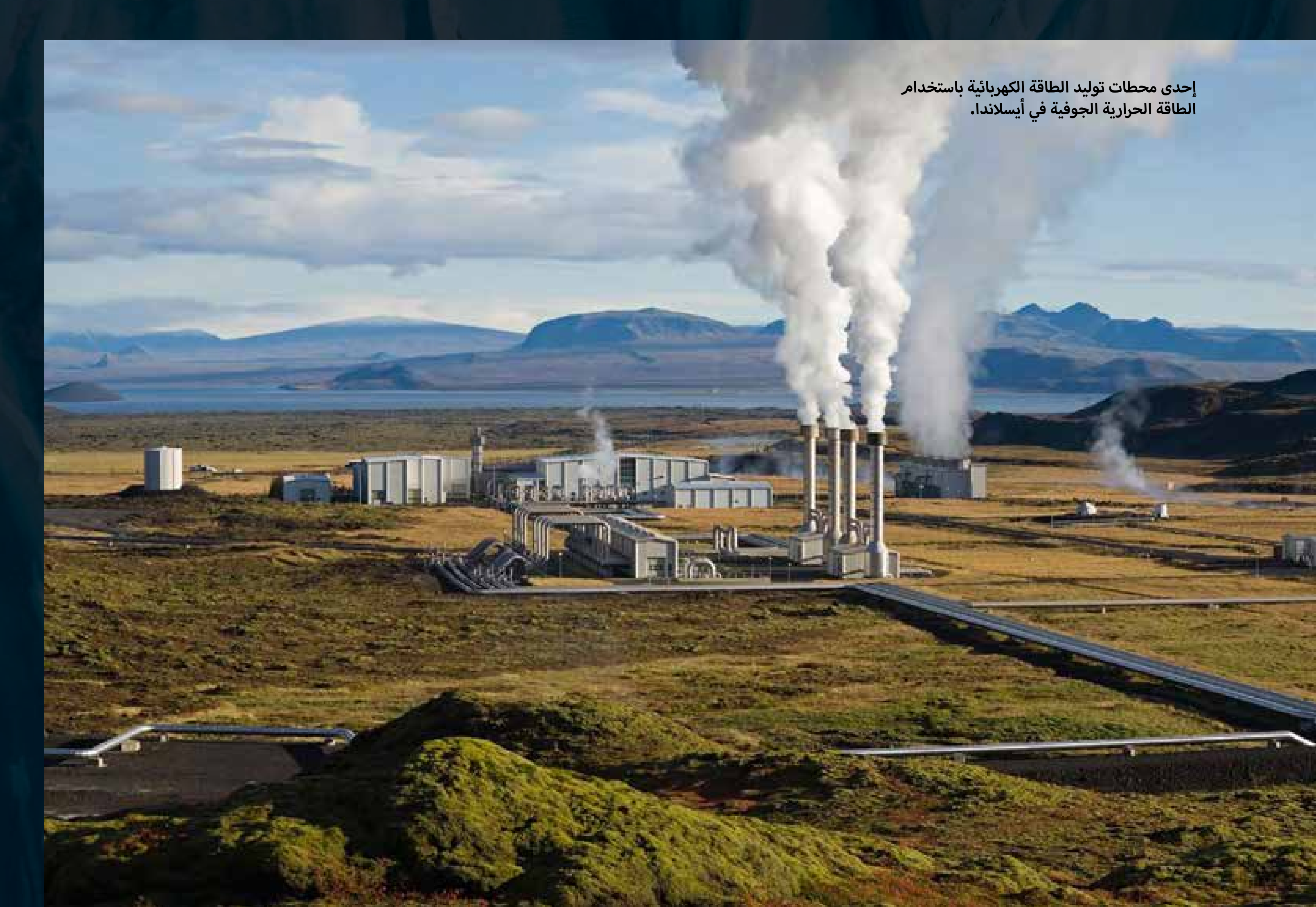
والإفراط في استخراج المياه الجوفية يهدد المدن الداخلية كما الساحلية، مثل طهران التي يهبط سطحها بمعدل 25 سم في السنة بحسب ما نشره موقع "إرث دوت كوم" (earth.com) في أغسطس 2018م. وكما هو الحال في جاكرتا، فإن أهم أسباب الهبوط هو الحفر الجوفي غير المُقنّن لتوفير مياه الشرب لسكانها البالغ عددهم 9 ملايين؛ مما شكل ضغطًا هائلًا على التربة، فانهارت بعض المباني وتصدعت أو مالت، وظهرت حفر عميقة. كما أدى بناء مترو الأنفاق إلى تفاقم المشكلة، إذ تسبب بأضرار جسيمة في البنية التحتية للمدينة والمناطق المجاورة لها، ومن ضمنها مطار طهران الدولي، الذي يهبط بمعدل 5 سم في السنة.

وعندما لا تُعوَّض هذه المياه المستخرجة بالمتساقطات المطرية، لخلو الأرض من المسامات الطبيعية بسبب تعبيد الطرقات والمسافات بين الأبنية، وتُرحَّل الترسبات التراكمية إلى مناطق أخرى بعيدة كل البعد عن أماكن استقرارها الطبيعية؛ تبدأ التربة بالتقلص والهبوط جراء الجاذبية الأرضية وتحرك الصفائح التكتونية.

التغير المناخي الجوفي

في دراسة نشرها موقع "سي إن إن" في يوليو 2023م، أطلق علماء أمريكيون لأول مرّة تسمية "التغير المناخي الجوفي" على ظاهرة تشوُّه جوف الأرض تحت المدن بسبب ارتفاع الحرارة المنبعثة من المباني الثقيلة ووسائل النقل المختلفة، إذ يُعتقد أن هذه الظاهرة تسبّب تخلخلًا في البنية التحتية وتُسهم في غرق المدن.

تُشير هذه النظرية إلى أن ارتفاع درجة حرارة باطن الأرض تحت المدن يؤدي إلى تغيير شكلها، حيث تتمدد في أماكن وتنكمش وتتصدع في أماكن أخرى، فتَضعَف قدرتُها على تحمّل الثقل فوقها على المدى الطويل. وأظهرت الدراسة المذكورة آنفًا أن درجات الحرارة الجوفية في المدن هي أعلى بكثير مقارنة بالمناطق الريفية المفتوحة؛ وذلك بسبب تزاحم المباني، وانعدام المساحات المظللة، وانسداد مسامات التربة بتعبيد المسافات بين الأبنية، واستخدام الخرسانة والأسطح الزجاجية التي تمتص أشعة الشمس فترفع حرارة البيئة المحيطة. كما أن



إحدى محطات توليد الطاقة الكهربائية باستخدام الطاقة الحرارية الجوفية في أيسلاندا.

السلوكيات التي ساعدتنا لنبقى على قيد الحياة منذ ملايين السنين تعمل اليوم ضدنا، ولكن الإنسان يبقى على تجاهله لنتائجها.


سد "ثايمز" في مدينة لندن.

القطارات ومحطات المترو والأنفاق ومواقف السيارات الداخلية، تُسهم أيضًا في رفع درجة حرارة جوف الأرض تحت المدن.

ولاحتواء هذه المشكلة، اقترحت الدراسة أن يركز التخطيط الحضري المستقبلي على عزل الحرارة المنبعثة من هذه البنى التحتية باستخدام تقنيات "الجيوثيرمال" الحديثة المعروفة بـ"تبريد الجوف" في باطن الأرض، والاستفادة من هذه الحرارة الممتصة واستخدامها في داخل المباني.

محاولات إنقاذ

جاءت بعض المدن بحلول مبتكرة لوقف الغرق بسبب الهبوط الأرضي أو تأخيره. فشنغهاي، على سبيل المثال، تعمل حاليًا على تعزيز سدودها وبناء سد الطوارئ لمواجهة الفيضانات على طول مسطحاتها المائية، وضخ المياه مرة أخرى إلى آبارها الجوفية. وكذلك الحال مع لندن التي بَنت "سد ثايمز". بينما اختارت دول أخرى البناء داخل المياه لمواجهة الخطر، كمشروع "ألمير" في هولندا، ومشروع "النخلة" في الإمارات العربية المتحدة.

من ناحية أخرى، عملت بعض المدن كل ما بوسعها للحيلولة دون غرقها، لكنها لم تفلح بسبب استمرار ارتفاع مستوى مياه البحر. مدينة البندقية الإيطالية مثالٌ على ذلك، فقد وجدت أن مشروعها "ذا موس" (The Mose) لم ينجح في حمايتها من الغرق؛ لأن بواباته الدفاعية المتحركة ذات الارتفاع البالغ 110 سم، والمصنوعة لترتفع أثناء المد، لم تكن كافية لصدّ الأمواج التي ارتفعت في فيضان 2019م إلى 187سم. وبدأت الحكومة تدرس حلولًا أخرى من ضمنها تعميق قنواتها المائية الداخلية التي يبلغ عددها 177 قناة، والاستعاضة عن قواربها التراثية ذات المجداف (الجوندولا) بقوارب كهربائية خفيفة؛ لأن ضررها أقل على القنوات المائية.

أما رئيس جزر المالديف، فقد قرّر شراء مبانٍ كاملة داخل الدول المجاورة في الهند وسيريلانكا، لتوطين شعبه بعد الغرق الحتمي لهذه الجزر، ويُجري حاليًا مناقشات لشراء أراضٍ في أستراليا لتكون موطنًا جديدًا للمالديفيين.

لماذا لا تعصمنا المعارف العلمية من الغرق؟
لطالما استخدم البشر معرفتهم ومهاراتهم للحفاظ على بقائهم، وبنوا إستراتيجيات مختلفة لتوقع التهديدات وتجنبها منذ القدم. وهذه السمات التطورية هي ما أتاحت لهم الاستمرار والتغلب على المخاطر. نحن نعلم تمامًا أن المناخ يتغير نتيجة النشاط البشري، ومعارفنا العلمية والهندسية المتراكمة منذ أكثر من قرنين في حقول عديدة، تؤهلنا لمعرفة مدى تحمل التربة وجيولوجية الأرض لأوزان ونشاطات معينة؛ ونعرف أيضًا ما يمكنه أن يؤدي بنا إلى الكوارث. فلماذا لم نتجنب هذه المخاطر الوجودية؟

للإجابة عن هذه الأسئلة المحَيِّرة، يقول تحقيق أعدته هيئة الإذاعة البريطانية في مارس 2019م، إن السلوكيات نفسها التي ساعدتنا في الماضي على البقاء على قيد الحياة، تعمل اليوم ضدنا. فنحن نفتقر إلى الإرادة الجماعية لمعالجة آثار تغير المناخ أو ظاهرة غرق المدن بسبب الطريقة التي تطورت بها أدمغتنا على مدى مليوني سنة مضت. وفي هذا الصدد، يقول عالم النفس كونور سايل: "البشر سيئون جدًا في فهم الاتجاهات الإحصائية والتغيرات طويلة المدى. لقد تطورنا لتجنب التهديدات المباشرة... نحن نبالغ في تقدير أقل التهديدات احتمالًا التي يسهل علينا تذكرها مثل الإرهاب، ونقلل من شأن أكثر التهديدات تعقيدًا مثل تغير المناخ أو غرق المدن... وهذا التحيز (للحاضر) هو ما يعوق الآن قدرتنا على اتخاذ الإجراءات اللازمة لمعالجة التحديات البعيدة والبطيئة والمعقدة".

العمل على وقف غرق المدن يمثّل في جوهره مقايضة بين الفوائد قصيرة الأجل والفوائد طويلة الأجل. فالمفاهيم التي سادت بعد نشوء الأسواق الرأسمالية الحديثة قائمة على أساس التنافس. وهذا يفرض على المتبارين في الإنتاج والتسويق وضع إستراتيجيات بقائية تضع أولويات تتناقض مع الفوائد طويلة المدى. ويسري هذا المبدأ بشكل واضح على صعيد شركات البناء والمنشآت الأخرى؛ إذ إن الالتزام بقواعد ميكانيكا التربة والسوائل وديناميكيتها وغيرها من الاعتبارات العلمية والهندسية، مكلف جدًا لهذه الشركات. وبوجود سوق شديدة التنافسية لهذه الصناعة، يصعب على أي شركة تحمّل هذه الأعباء الإضافية. وبغياب تدخل قوي من الحكومات، تهيمن على السوق اعتبـارات الربح السريع قصير المدى، أما خطر غرق المدن فيبقى متروكًا "للآخرين" ليعالجوه.



تعزيز زراعة القمح

لاستكشاف كل إمكانات القمح من نوع "وحيد الحبة"، قام فريق مؤلف من 30 باحثًا من عدة جامعات أوروبية وأمريكية بقيادة جامعة الملك عبدالله للعلوم والتقنية (كاوست) بتجميع أول خريطة جينومية كاملة لهذا النوع.

القمح وحيد الحبة "إينكورن" (Einkorn) هو أول أنواع القمح التي استزرعها البشر منذ حوالي 10000 عام في منطقة الهلال الخصيب؛ وشكَّلت بداية العصر الزراعي. وكان النوع البري من هذا القمح قبل استزراعه أحد مكوِّنات أقدم المنتجات المعروفة التي كان يخبزها البشر في عصر الصيد وجمع الثمار في الأردن المعاصر قبل أربعة آلاف عام من ذلك. وهكذا أدَّى إينكورن دورًا محوريًا في تأسيس الزراعة؛ وهو النوع الوحيد من القمح ثنائي الصيغة الصبغية. وتأتي أهمية إينكورن، من أن له تاريخًا طويلًا في الزراعة والانتقاء البشري في ظروف بيئية متنوعة، مما يجعله مصدرًا لدراسة التنوع الوراثي والاستفادة منه في زراعة القمح.

ورغم أن إينكورن يحظى بنكهة فريدة وفوائد غذائية عديدة، فقد انخفضت أهميته في إنتاج الغذاء العالمي على مدى آلاف السنين تدريجيًا مع ارتفاع شعبية أصناف "قمح الخبز"، الذي يشكل 95% من القمح المنتج عالميًا في الوقت الراهن. إذ تنتج أصناف قمح الخبز عمومًا غلاتٍ أعلى، مما يجعلها أجدى اقتصاديًا للزراعة التجارية واسعة النطاق. ومع ذلك، بالمقارنة مع أبناء عمومته البرية، يتمتع قمح الخبز الحديث بتنوع وراثي منخفض. ولهذا السبب يشعر العديد من المزارعين الآن بالقلق بشأن كيفية أداء المحاصيل الحالية في مواجهة تغيُّر المناخ والتهديدات الجديدة للأمراض.



رسم يُظهر سنابل القمح وحيد الحبة، حيث يظهر يمينًا نوعه البري، بينما الآخر هو نوع مهجّن. تصوير: روبين بالسكاندولو. المصدر: مركز الزراعة الصحراوية بجامعة الملك عبدالله للعلوم والتقنية (كاوست).

أهمية جينوم القمح وحيد الحبة

يوفر التسلسل الجينومي لنوع القمح المذكور، الذي يبلغ طوله 5.2 مليار حرف، نافذة على الأصول التطورية لأنواع مختلفة من القمح. وتقول حنين إبراهيم أحمد، المتخرجة في كاوست، والمؤلفة الأولى في الدراسة التي نُشرت في مجلة "نيتشر" بتاريخ 2 أغسطس 2023م: "من خلال فهم التنوع الجيني والتاريخ التطوري للقمح وحيد الحبة، يمكن للباحثين الآن الاستفادة من إمكاناته في جهود التكاثر المستقبلية وتطوير أصناف قمح أكثر مرونة وأغنى بالمغذيات". كما يمكن أن يساعد المزارعين ومربي المحاصيل على تطوير أصناف من قمح الخبز، مع تعزيز مقاومة الأمراض، وزيادة الغلة.

ولكشف هذه الأسرار، قام فريق بقيادة سايمون كراتينجر وجيسي بولاند من جامعة كاوست، بنشر مجموعة من تقنيات تسلسل الحمض النووي لإنشاء مجموعات جينومية عالية الجودة لأصناف إينكورن البرية والمهجنة على حد سواء. وكان الباحثون قد افترضوا في السابق أن تطوُّر القمح كان عملية ثابتة مع اختلاط محدود لأنواع القمح المختلفة. ولكن وفقًا لكراتينجر: "تظهر تحليلاتنا الجينومية الآن أن تاريخ القمح أكثر تعقيدًا، ويتضمن الكثير من الاختلاط وتدفق الجينات بين أنواع القمح المختلفة".

وكما يحتوي الجينوم البشري على تسلسلات من أنسبائنا القدامى، النياندرتال، فإن جينوم قمح الخبز الحديث مليء أيضًا ببقايا الحمض النووي لإينكورن. وفي الواقع، قد يكون إدخال جينات إينكورن أدَّى دورًا في مساعدة قمح الخبز على التكيف مع الظروف المناخية المتغيرة في الماضي، كما يشير كراتينجر. وإذا كان التاريخ يُعطي أي مؤشر فإن الشيء نفسه يمكن أن ينطبق على المستقبل، خاصة بمساعدة تقنيات التربية الحديثة الموجهة جزيئيًا. ويضيف كراتينجر: "ستساعد موارد مختبرنا على النقل الدقيق للجينات المفيدة من إينكورن إلى قمح الخبز".

سحبوا الماء من جوفها فاهتزت على محورها

أدى استخراج المياه من جوف الأرض إلى ارتفاع مستوى سطح البحر، وحوَّل محور الأرض بحوالي 2.6 قدم بين عامي 1993م و2010م.

ومن المعروف أن الأرض تتذبذب أثناء دورانها حول محورها التخيلي بفعل تطاير الحديد المنصهر في قلبها، أو وذوبان الجليد، أو بفعل تيارات المحيطات؛ مما يؤدي إلى حَيَدان المحور.

لكن العلماء اكتشفوا مؤخرًا أن قدرًا كبيرًا من هذه الحركة القطبية ناتج عن النشاط البشري من خلال استخراج المياه الجوفية للشرب والري.

حول هذا المفهوم العلمي، علّق الجيوفيزيائي في مختبر الدفع النفاث التابع لناسا والخبير في دوران الأرض سوريندرا أديكاري، قائلًا: "الطريقة التي يتأرجح بها الكوكب تتأثر تمامًا بأنشطتنا. الأمر بطريقة ما محير للعقل".

لنتخيّل كرة تدور على إصبعنا، فإذا تمكنا من الحفاظ على توازن الكرة فسوف تدور بانتظام على طول محورها، لكن إذا أضفنا قليلًا من الوزن إلى جزء من الكرة أو أخرجناها من جزء آخر، فستصبح الكرة غير متوازنة، وتتذبذب وتغير محور دورانها. هكذا أيضًا يتذبذب محور دوران الأرض في القطب الشمالي بدائرة عرضها 10 أمتار تقريبًا كل عام أو نحو ذلك. وعلى المدى الطويل ينحرف مركز هذا التذبذب أيضًا، ففي الآونة الأخيرة، كان يميل في اتجاه آيسلندا بحوالي 9 سم في السنة.

لدراسة هذا الانزياح القطبي، بنى عالم الجيوفيزياء بجامعة تكساس في أوستن "كلارك ر. ويلسون" أنموذجًا لهذا الانزياح، مع مراعاة عوامل طبيعية مثل: امتلاء الخزانات بسبب السدود الجديدة، وذوبان الصفائح الجليدية. وكان ذلك بغية الكشف عن حجم تأثير تلك العوامل في الحركة القطبية التي لوحظت في الفترة الزمنية المذكورة آنفًا. خلال ذلك الوقت كانت قياسات الأقمار الصناعية دقيقة بدرجة كافية لاكتشاف أي انزياح مهما كان صغيرًا حتى لو بلغ بضعة ملليمترات.

لم تكن تغيرات السدود والجليد كافية لمطابقة الحركة القطبية المرصودة، فعندما وضع الباحثون، في المحاكاة، 2150 جيجا طن من المياه الجوفية، التي قدّرت النماذج الهيدرولوجية أنها قد ضُخّت بين عامي 1993م و2010م، كان الانزياح القطبي المتوقع يتماشى بشكل وثيق مع الملاحظات. وبالتالي فقد خلص ويلسون وزملاؤه إلى أن إعادة توزيع وزن الماء هذا على محيطات العالم قد تسبب في انزياح قطبي الأرض بحوالي 80 سم خلال تلك الفترة. وفي الواقع تبين أن إزالة المياه الجوفية لعبت دورًا أكبر في تلك الفترة من إطلاق المياه الذائبة من الجليد في جرينلاند أو من القارة القطبية الجنوبية، وهذه النتيجة التطبيقية أكدت حقيقة علمية مفادها: أن استخراج المياه من جوف الأرض أدى إلى إعادة توزيع وزن مياه الكوكب بشكل كلي. وقد نشر العلماء نتائجهم هذه في مجلة "رسائل الأبحاث الجيوفيزيائية" في منتصف يونيو 2023م.



التعلم التعاضدي

نظرية



ليف فيغوتسكي
عالم نفس روسي.

نظرية التعلم التعاضدي هي: منهج تتعلم عبره مجموعة من الأفراد بعضهم من البعض الآخر من خلال العمل معًا، والتفاعل لحل مشكلة، أو إكمال مهمة، أو إنشاء منتج، أو مشاركة تفكير الآخرين.

تختلف هذه الطريقة عن التعلم التعاوني التقليدي، فبين كلمتي تعاون وتعاضد اختلاف لغوي بسيط، لكنه يصبح مهمًا عند ارتباطه بطرق التعليم. فالتعلم التعاوني التقليدي يعمد عند حل مسألة ما أو معالجة موضوع معيّن إلى تكليف كل طالب بزاوية معينة ليدرسها، ثم يشرح للطلاب الآخرين ما توصل إليه، فليس هناك بالضرورة أي تفاعل اجتماعي. أما نظرية التعلم التعاضدي، فهي تركز على أهمية التفاعل الاجتماعي لتطوير التعلم والإدراك، وقد وضع هذه النظرية عالم النفس الروسي "ليف فيغوتسكي" في ثلاثينيات القرن العشرين، وجرى تطويرها لاحقًا. ويعتقد فيغوتسكي أن المجتمع عامل مهم في عملية خلق المعنى والمعرفة، وتقوم نظريته على أن التطور الفردي لا يحدث دون أن يكون هذا الفرد على علم بالسياقات الاجتماعية والثقافية.

وتشير النظرية إلى أن للكلام ولطريقة إلقائه دورًا رئيسًا في تطوير الفكر، إذ تؤدي المحادثات مع الأشخاص الآخرين إلى دفع الفهم والإدراك إلى الأمام. على سبيل المثال، سأل أحد الطلاب في صفوف البلاغة أستاذه عن معنى الكلمة الإنجليزية "alacrity"، ففي القاموس هناك عدة معان مقترحة: رشاقة، سرعة، نشاط. فقال له الأستاذ: "اسأل زميلتك في الصف: هل تتزوجيني؟". وبالفعل سأل الطالب الفتاة بقربه، لكن الأستاذ رد على الفور بلسان الفتاة: "نعم نعم نعم، بسرعة ولهفة". لقد علق هذا المشهد في الذاكرة البصرية لكثير من الطلاب مدى العمر.

ويضيف فيغوتسكي: "عندما يشارك الطفل ويرى الآخر المألوف في البداية مثل أقرانه وأهله، فهو بذلك يطوِّر بالتدريج تفاعلًا اجتماعيًا خارج هذه المنطقة، كما يطور لاحقًا قدرة على حل المشاكل بشكل مستقل ومن دون مساعدة، ومن هنا تأتي أهمية تأليف مجموعات من الطلاب داخل الصف تناقش المسائل وحلولها بتفاعل الآراء".

مشاريع ريادية في التخطيط الحضـــري

ترفد حيوية التفاعلات الاجتماعية في فضاءات المدن

أُختتمت مؤخرًا أحداث معرض "سيتي سكيب" الذي عُقد في الرياض ما بين 11 و13 سبتمبر 2023م، وصاحبه عرض عدد من المشاريع المهمة، ومنها المشاريع السكنية والتجارية ومتعددة الاستخدامات التي ستغير الأفق السعودي. كما تضمن هذا الحدث عرض خططٍ ومشاريع لفتت الأنظار إليها بسبب تأثيراتها المباشرة وغير المباشرة في تحسين جودة الفضاءات العامة في المدن السعودية وجعلها مساحة تدعم التجــارب الديناميكية والتبادلات والتفاعلات للمستخدمين. ويمتلك معظم هذه المشاريع القدرة على دعم حيوية هذه التفاعلات من خلال التنوع الواسع لطبيعة الفضاءات العامة التي سيجري خلقها، وكذلك تنوّع المستخدمين الذين سيُسمح لهم جميعًا بالشعــور بالمساواة والاحترام في هذه الفضاءات، وفي الوقت نفسه ستجمعهم الهوية الثقافية القوية للمكان.

د. عبدالعزيز بن أحمد حنش





إن أعظم ميزات الفضاء العام في المدينة، وربما أعظم إنجازاته، هي مؤانسته، التي تتجلّى في العروض المستمرة للمحادثات والتقاط الصور والتحيات الودية بين المستخدمين والأنشطة المستمرة التي نراها يوميًّا من خلال تفاعلنا في هذه الفضاءات العامة، أو بواسطة شبكات التواصل الاجتماعي التي نقلت شيئًا من الفضاء العام للمدينة ليصبح بشكل افتراضي، وهذا موضوع آخر لا يتسع المجال للتطرق إليه حاليًا.

ولعل أبرز ما يلفت النظر إلى المشاريع الموجودة في "سيتي سكيب"، يكمن في تأثيراتها التي ستسهم في تغيير مفهوم الفراغ العام في المدينة، وخصوصًا الشارع كمكان تشاركي وتفاعلي، بسبب التطورات التي حصلت في الفترة الأخيرة على مستوى تحسين المشهد الحضري والبصري في المدن السعودية، بل وقيادة المشهد في بعض المشاريع الفريدة الأخرى، كمشروع "ذا لاين" في نيوم، والمسار الرياضي في مدينة الرياض، واتفاقية تطوير معايير التصميم لوسط المدن السعودية. فهذه المشاريع ستُبنى على الأصول والإمكانات المحلية والانطلاق منها لخلق بيئة تسهم في بناء المجتمع، وتُحفّز التفاعل بين أفراده، وتدعم الإبداع.

أمام واحد من خيارين

إننا اليوم في مدننا أمام صراع في إدارة المدن من حيث التعامل مع الشارع كفراغ عام، إذ يقود هذا الصراع تياران: أحدهما يدعو إلى مزيد من الطرق السريعة في المدن لحل الاختناقات المرورية وزيادة ربط أرجاء المدينة بعضها ببعض والمحافظة على السيارة كوسيلة نقل داخل المدينة؛ وتيار آخر يدعو إلى إتاحة الفرصة لحركة المشاة والنقل العام كأولوية تنقّل بدلًا من السيارة. وعلى ذلك، ومن خلال هذا المنطلق، يمكننا أن نعرّف الشارع اليوم على أنه فراغ تقني يؤدي وظيفة النقل. كما تسعى الكثير من الجهات والمنظمات إلى جعل الشارع فراغًا تشاركيًا أو فراغًا متكاملًا يسهم في تعزيز الجانب الاجتماعي والاقتصادي.

والتفاعلات في الشارع كفراغ مجتمعي هي لبنة بناء المجتمعات والثقافات والاقتصادات المحلية القوية. الشارع الديناميكي بشكل خاص ينبض بالحياة بسبب المجتمع الذي يرعى ويراعي هذه الفضاءات في المدن، ويعتبرها أماكن مشتركة قادرة على أن تكون ساحة ثقافية واجتماعية وترفيهية واقتصادية. كما أن العديد من الشوارع التي تنبض بالحياة اليوم لم تُبنَ بسبب ثراء المدن التي تحتضنها، بل إن المدن أصبحت ثرية بسببها. فالشارع يصنع الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمشاركين فيه، الذين بدورهم يصنعون الشارع. وقد يكون البائع، الذي يقضي وقتًا أمام متجره للتحدث مع المارة ودعوتهم للشراء من متجره أو عند الدعاية له، هو الذي يرسخ المكان حقًّا ويجسد ما يجعل هذا الشارع حيويًا. وعادة، عندما يكون البيع بالتجزئة للمساهمة في التجربة العامة، وليس فقط للاستفادة منها، يصبح من بين أكبر العوامل المساهمة في الشوارع الناجحة؛ وهو ما يسمح للشوارع بالتنافس مع مراكز التسوق وسلاسل المتاجر. إذ تبدو المدن نابضة بالحياة على هذا المقياس الإنساني للشارع. ومع ذلك، لا أحد غير المشاة ومن يخدمونهم يعيرون هذا المقياس أي اهتمام.

تجربة حضرية غير مسبوقة

ما يدفعنا إلى تناول هذا الموضوع، هو ما سيشكل ثورة حضارية مستقبلًا من خلال ما ستقدمه المملكة عبر مشروع "ذا لاين"، الذي يضع الإنسان في المقام الأول كمحور رئيس للمدينة. إذ سيوفر هذا المشروع تجربة معيشية حضرية غير مسبوقة على المستوى الاجتماعي، مع الحفاظ على الطبيعة المحيطة كبعد بيئي للمشروع. ومن ثَمَّ، فإن هذا المشروع سيُعيد تعريف مفهوم حياة المدينة والتنمية الحضرية، وكيف سيكون شكل مدن المستقبل، ونموذجها الاقتصادي الذي ستعتمد عليه، وتفاعلاتها الحيوية.

إن القيم، التي اعتمد عليها مشروع "ذا لاين" ليقدم مفهومًا مختلفًا تمامًا عما سبقه من المدن، تعرض الشارع بطريقة غير مسبوقة، فتجعل من الفراغات العامة في المدينة أماكن تقدم أكثر مما هو متوقع منها. فهي فراغات لا تلتزم بالجاذبية، بل تتشكل وتتكون في أبعاد ومحاور مختلفة عما هي عليه في المدن الحالية، لتتيح إمكانات جديدة لمستخدمي هذه الفراغات. كما أن أنظمة النقل

الشارع الديناميكي ينبض بالحياة بسبب المجتمع الذي يُراعي فضاءات المدن، ويعتبرها أماكن مشتركة قادرة على أن تكون ساحة ثقافية واجتماعية وترفيهية واقتصادية.





المختلفة التي ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بالشارع قد تَغيّر مفهومها وتكوينها في "ذا لاين" وأصبحت هناك أنظمة فعالة لا تعتمد على السيارة كليًّا كنظام تنقل.

إن "ذا لاين" كمشروع ، هو في طريقه إلى إتاحة المجال أمام ابتكارات نقل حديثة، كما حصل حينما تطورت المصاعد لتوفر إمكانات جديدة لناطحات السحاب. وبذلك، فإن شكل الشارع ووظيفته في "ذا لاين" سيُحدث ثورة غير مسبوقة قد تعيد صياغة تفاعلاتنا الاجتماعية أيضًا.

والنمو السريع الذي نشاهده اليوم في المدن له تأثير هائل على العلاقة بين المستخدمين الحضريين والمساحات الاجتماعية. لذا، قد تختلف احتياجات المستخدمين وتصوراتهم في "ذا لاين" عن مستخدمي الشوارع الآخرين في المشاريع الموجودة اليوم. وقد لا يقتصر تأثير هذا المشروع على شكل التكوين الحضري للمدينة، بل يمتد إلى إعادة صياغة متطلبات المستخدمين لإنجاح تفاعلاتهم الاجتماعية فيها، وإعادة تعريف المقياس الإنساني الذي ندعو له.

نموذج آخر عن مفهوم مختلف للشارع

وثمة مشروع آخر حضر في معرض "سيتي سكيب" وقدم مفهومًا جديدًا للشارع واستخداماته على مستوى المدينة، وهو مشروع "المسار الرياضي"، الذي يُعد أحد المشاريع الكبرى لمدينة الرياض. يسعى هذا المشروع إلى تعزيز مكانة الرياض في التصنيف العالمي، لتصبح إحدى أفضل

المدن ملاءمة للعيش في العالم، من خلال تعزيز الصحّة البدنية والنفسية والاجتماعية، وبناء مجتمع ينعم أفراده بحياة كريمة ونمط حياة صحّي في بيئة إيجابية جاذبة لسكان المدينة وزائريها.

يمتد مشروع المسار الرياضي بطول يتجاوز 135 كيلومترًا على طريق الأمير محمد بن سلمان بن عبدالعزيز، ويربط بين وادي حنيفة في غرب المدينة ووادي السلي في شرقها، ويتضمن أكثر من 4.4 ملايين متر مربع من المساحات الخضراء المفتوحة، وأكثر من 50 موقعًا للرياضات المتنوعة، ومعالم فنية مميزة؛ بالإضافة إلى عدة مواقع ومناطق استثمارية تبلغ مساحتها الإجمالية أكثر من 2.3 مليون متر مربع.

يتكامل هذا المشروع مع المفهوم المتطور للشارع في المدينة، بتعزيز الاستخدامات والأنشطة الرياضية والثقافية والاجتماعية وتجميل المدينة ككل. ومن ثَمَّ، فإن هناك ارتباطًا وثيقًا بين وجود مجموعة متنوعة من الأشخاص والأنشطة في الشارع وتأثيرها على قابلية العيش في المدينة. فتصميم الفضاءات الحضرية بشكل جيد يأتي هنا لتلبية الاحتياجات والتفضيلات الفعلية لمستخدمي المناطق الحضرية. وهذه المساحات الحضرية ستصبح مع مرور الوقت "أماكن" من خلال هذه الأنشطة البشرية، والفضاء الحضري الذي هو بطبيعته عبارة عن "إحساس" بالنسبة إلى مستخدميه، وستزداد انتماءات المستخدم لهذا الفضاء.

إن المدن الجيدة اليوم هي أماكن للقاء الاجتماعي. إذ تشمل صفات المدن الجيدة صفات البيئة المادية، والأنشطة والاستخدامات الوظيفية، والصفات الاجتماعية للمساحات

الحضرية. وسيزيد هذا المسار من فعالية المدينة، وما سيقدمه لها هذا المشروع لا يقتصر على مستوى الأنشطة والاستخدامات، بل سيكون رافدًا للبنى التحتية للمدينة وممرًا لشبكات الخدمات. كما سيحتضن أماكن للفنون والفعاليات والمتنزهات بوجود منشآت داعمة لها في أجزاء من هذا المسار.

ومن دون شك، فإن هذا المسار في تكوينه المادي سيكون رائعًا بسبب التنوع الموجود فيه. فهناك المسطحات المائية، ومنطقة الوادي، ومنطقة السينما، ومنطقة أخرى مخصصة للدراجين، وحدائق ومتنزهات على امتداد هذا المسار رُبطت بشبكة النقل العام لتخلق بيئة مميزة ممتدة على أرجاء المدينة، وتربط سكانها بمفهوم جديد يقدم نموذجًا مبتكرًا حول المعيشة والرياضة والترفيه والتنقل في المدينة.

معايير التصميم وإرشادات التخطيط الحضري

من جانب آخر، برزت في "سيتي سكيب" مذكرة تفاهم تسعى إلى تعزيز إرشادات التخطيط الحضري ومعايير التصميم في المملكة وقعتها وزارة الشؤون البلدية والقروية والإسكان وشركة وسط المدينة السعودية، وذلك لتطوير معايير التصميم المعماري في 12 مدينة. وتدعو هذه المذكرة إلى التعاون في وضع متطلبات التخطيط وقواعد التخطيط العمراني والخطط المحددة للمشاريع في الشركة التابعة المملوكة بالكامل لصندوق الاستثمارات العامة. كما تهدف إلى تحسين معايير التخطيط والتصميم للمكوّنات الحضرية مثل: الحدائق والساحات العامة ومواقف السيارات وجميع جوانب الحياة الحضرية. وهذا الاهتمام بالفراغات العامة والساحات المدنية يعد أمرًا رائعًا، إذ سيسهم في تكوين مراكز حضرية صديقة للبيئة في مدن مثل: المدينة المنورة والأحساء والخبر وبريدة والطائف وعرعر من خلال هذه الشراكة. كذلك سيمتد تأثير هذه الشراكة إلى تحسين المشهد المعماري والعمراني في حائل والباحة وجيزان ونجران ودومة الجندل وتبوك.

إلى جانب ذلك، تعاونت الوزارة وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي وبرنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية لتحسين التخطيط المكاني والمناظر الطبيعية الحضرية في المدن السعودية، بالاستفادة من الخبرات العالمية، والعمل على حزمة من المبادرات الهادفة إلى تعزيز الاستدامة وتحسين نوعية حياة السكان ورفع مستويات المعيشة. ويُعتقد أن مخرجات مذكرة التفاهم هذه سوف تسهم في صناعة المكان من خلال دعم حركة المشاة ووسائل النقل الأخرى جنبًا إلى جنب مع السيارات. وكذلك ستجعل أواسط المدن مناطق قابلة للمشي بحيث تكون هذه الأماكن مساحة للتواصل والتفاعل الاجتماعي، وتسهم في خلق أسلوب حياة صحي. كما سيكون هناك، بلا شك، تبنٍّ لصناعة المكان من خلال أسلوب فعّال من حيث التكلفة والنموذج الاقتصادي الذي سيسهم في تنشيط الحركة الاقتصادية في أواسط المدن.

ختامًا، إن الاحتياجات الفعلية للمستخدمين الحضريين هي أهم الأبعاد التي يجب إعطاؤها المزيد من الاهتمام من أجل إعادة تقييم جودة الفضاء وتصميمه مع مرور الوقت. كما تساهم جودة المكان ونسيج المدينة في تحديد هوية المكان وفي نهاية المطاف تعزيز الصحة والشعور بالانتماء إلى المجتمع المحلي والمكان؛ وهذا ما يمنح المستخدمين إحساسًا بالشخصية المميّزة، ويرضي الاحتياجات الوظيفية المهمة، ويثير العواطف أو المشاعر، ويصنع ذاكرة المكان.



البصيرة

المقدرة الذهنية التي شكّلت العالم

البصيرة هي إحدى أقوى الأدوات المتاحة لنا كبشر لمساعدتنا على تشكيل المستقبل والتقدم نحوه بثقة وثبات. ويمكن تشبيه هذه القدرة على التفكير في المستقبل بآلة الزمن العقلية التي تحمل وجهين اثنين: تمثيل عقلي وحسِّي لأشياء لم تحدث بعد أو إحساس بما قد يكون أو بما قد يأتي، وذاكرة تكون بمنزلة أساس ومنطلق لتصور مستقبل غير منظور. ومنذ العصور القديمة، عندما اكتسبت البشرية القدرة على تصوُّر المستقبل، استطاعت أن تغير مسار الجنس البشري، وأعطت لأسلافنا ميزة قيِّمة في صراعهم من أجل البقاء. وعلى الرغم من أن البصيرة البشرية لن تكون أبدًا صائبة مائة في المائة، فإننا بحاجة دائمًا إلى تصويبها وتحصينها بالمسؤولية الأخلاقية والتعلم من أخطائنا كي نستطيع الإبحار في المستقبل الذي يبدو مضطربًا.

فريق التحرير



في قصة الأطفال التي تحمل العنوان "من خلال الزجاج" للكاتب الإنجليزي لويس كارول، تتحلى "الملكة الحمراء" بقدرة على تذكُّر المستقبل عوضًا عن الماضي؛ مما يجعلها فكرة غريبة جدًا، لا سيما أننا عادة ما ننظر إلى الوقت كمسار خطي يتجه دائمًا إلى الأمام، وأن الذاكرة لا بدَّ أن تكون متعلقة بالماضي.

ومع ذلك فهي فكرة ذات بُعد نظري يستحق التوقف عنده، خاصة مع ما يخبرنا به العلم المعرفي الحديث عن مدى مرونة تجربتنا مع الزمن.

فعلى الرغم من أننا قد لا نكون قادرين على تذكُّر المستقبل، كما تفعل "الملكة الحمراء"، فإن علماء النفس يتحدثون عن إمكانية تصوُّر المستقبل من خلال قدرة بشرية فريدة تسمَّى البصيرة أو السفر العقلي عبر الزمن. ويصف علماء النفس البصيرة بأنها جزءٌ من وعي الفرد بوجوده المتعدي لزمن بعينه، وهو ما يمكِّننا من استرجاع ما حدث في الماضي وتصوُّر أحداث مستقبلية بشكل مسبق؛ سواء بسواء. ولا يتعلق الأمر بمعرفة أن شيئًا ما قد حدث أو سيحدث؛ وإنما معايشته وتصوُّره في أذهاننا. وبتعبير آخر، هو الفارق بين معرفتنا أن درجة الحرارة سترتفع عندما يحل فصل الصيف، وتصوُّرنا لأنفسنا ونحن نجلس تحت أشعة الشمس خلال ذلك الصيف وإحساسنا بالحرارة، وهي تلفح أجسادنا. كما أن البصيرة لا علاقة لها بالتوقع، ولا يمكن تصنيفها في باب التنبؤات. فهي لا تهدف إلى التنبؤ بالمستقبل، أو الكشف عنه كما لو كان محددًا مسبقًا، بل هي مقدرة ذهنية تساعدنا على بنائه، وتدعونا إلى النظر إلى المستقبل كشيء يمكننا خلقه أو تشكيله.

الذاكرة العرضية أساس البصيرة

من الجدير ذكره أن هناك صلة عميقة بين تذكُّر الماضي وتخيُّل المستقبل، وأن عملية التذكُّر في حد ذاتها تمنح المرء "المادة الخام" اللازمة لبناء سيناريوهات معقولة للأحداث المستقبلية والتصرف بناءً عليها. وهذا الارتباط بين تصوُّر المستقبل والذاكرة يجعل البصيرة إسقاطًا قويًا ثنائي الاتجاه يجمع بين المستقبل والذاكرة العرضية؛ مما يسمح لنا بالاستفادة من تجربة سيرتنا الذاتية واستدعاء الأحداث والتجارب والعواطف التي حدثت في الماضي، مع القدرة على التخيُّل وتوقع الأحداث المستقبلية.

أمَّا الذاكرة العرضية، فهي نوع من الذاكرة كان أول من ساهم في تحديده، وصاغ المصطلح المسمى به في أوائل السبعينيات من القرن الماضي، عالم الأعصاب الكندي إندل تولفينج، مؤلف كتاب "عناصر الذاكرة العرضية"، الذي عرَّفها بذاكرة أحداث السيرة الذاتية أو الأوقات والأماكن، والعواطف المرتبطة بها، وغيرها من الأمور كمعرفة من، وماذا، ومتى، وأين، ولماذا. كما تُعتبر الذاكرة العرضية فريدة بالنسبة إلى البشر وأساسية لقدرتهم على السفر العقلي عبر الزمن. وقد اتضح أن للذاكرة والبصيرة العديد من القواسم المشتركة، بحيث إن الضعف في إحداهما يميل إلى أن يسير جنبًا إلى جنب مع الضعف في الأخرى. وبينما يكتسب الأطفال تدريجيًا القدرة على توجيه آلات الزمن العقلية الخاصة بهم إلى الماضي والمستقبل في العمر نفسه تقريبًا، تميل الذاكرة والبصيرة أيضًا إلى الانخفاض بالتوازي مع التقدم بالعمر. ولكن، بالطبع، هناك اختلافات عميقة بين الماضي والمستقبل،



عالم الأعصاب الكندي إندل تولفينج.

وليس أقلها حقيقة أن المستقبل غير مؤكد. أمَّا أحد أسباب قوة البصيرة البشرية، فهو أننا نستطيع التفكير في سيناريوهات متعددة لما قد يكون عليه المستقبل؛ مما يسمح لنا بمقارنة خياراتنا واتخاذ قرارات أفضل في الوقت الراهن.

سلاح ثمين في صراع البقاء

زودت البصيرة أسلافنا بميزة لا تقدر بثمن في صراعهم من أجل البقاء، إذ منحتهم مرونة سلوكية للتصرف في الوقت الحاضر لزيادة فرص البقاء في المستقبل. حتى إنه بحسب ما ذكره الكاتب الكندي دان فالك في كتابه "البحث عن الزمن: تاريخ وفيزياء وفلسفة الزمن"، من دون البصيرة "لما كان هناك تخطيط ولا بناء ولا ثقافة؛ ومن دون صورة متخيلة للمستقبل، لما كانت حضارتنا موجودة".

وبالفعل، فقد أعطت البصيرة للبشرية، الحكمة، التي وازاها العالم القرطبي ابن حزم الأندلسي بالبصيرة عندما قال إن "الحكمة هي البصيرة". فالبصيرة هي من أقوى القدرات البشرية التي حولت البشر من مخلوقات بدائية إلى مخلوقات استطاعت أن تتفوق على جميع الكائنات الأخرى. وقد أشار علماء الإدراك توماس سودندورف، وجوناثان ريدشو، وآدم بولي، مؤلفو كتاب "اختراع الغد.. تاريخ طبيعي للبصيرة"، إلى عدد من الاختراعات التي ابتكرها الإنسان منذ العهود القديمة ومكَّنته من البقاء، مثل الفؤوس اليدوية المصنوعة بدقة التي استخدمها الإنسان المنتصب منذ ما يقرب من مليوني سنة، فرغم أنها قد تبدو بدائية بالنسبة إلينا اليوم، فقد تطلبت البصيرة للتخطيط والتنفيذ. فعندما توقع الإنسان القديم ما قد يهدده، جمع رماحًا ذات رؤوس حجرية، وعمد إلى تصنيعها لاستخدامها لاحقًا للقتل من مسافة بعيدة، كما صنع حاويات متنقلة مكَّنته من نقل المؤن إلى نقاط بعيدة في المكان والزمان.

ومن بين أهم الابتكارات البشرية، اللغة التي تتميز بسمة فريدة تسمَّى الإزاحة، أي القدرة على "الإشارة إلى الأشياء البعيدة في المكان والزمان"، وهي التي تُعرف بقدرة اللغة على التواصل حول الأشياء التي لا توجد في الحال (مكانيًا أو زمنيًا)؛ أي الأشياء التي ليست هنا، أو ليست هنا الآن. ومن خلال هذه الميزة مكَّنتنا اللغة من توصيل أفكارنا ومخططاتنا المستقبلية إلى من حولنا.

من جهة أخرى، يُقال إنه في الأساطير اليونانية القديمة، اكتسبت البشرية قوتها المميزة عندما



ساعدت البصيرة أسلافنا في صراعهم من أجل البقاء، إذ منحتهم مرونة سلوكية للتصرف في الوقت الراهن لزيادة فرص البقاء في المستقبل.

أعطاها البطل الأسطوري بروميثيوس هدية من السماء، وهي النار. ولا شك في أنه من دون النار، لم يكن للجنس البشري أن يزدهر أبدًا.

ولكن ربما ما هو أقل شهرة عن هذه الأسطورة هو أن اسم بروميثيوس يعني "البصيرة". وبعد الزمن الجليدي، وبعد زمن هذه الأسطورة بوقت طويل، وعلى مدى آلاف السنين التالية، كانت البصيرة هي التي تدفع بالجنس البشري إلى الأمام.

فعندما بدأ البشر باكتساب المهارات والمعرفة مقدمًا وبشكل متزايد، وتشكيل أنفسهم ومصيرهم، لاحظوا انتظام عالمهم، وابتكروا أدوات مثل التقويمات والمال والكتابة التي حسَّنت إلى حدٍّ بعيد قدرتهم على تنسيق الأحداث المستقبلية، كما زرعوا محاصيل لن يتم حصادها إلا بعد أشهر. وبعد ذلك بوقت طويل، أصبح التطبيق المنضبط للتبصر في المنهج العلمي مفتاحًا للدخول في العصر الحديث، بحيث إن المنهج العلمي يتضمن على نحو أساس ثلاث خطوات: أولًا، جمع البيانات عن طريق الملاحظة أو التجريب؛ وثانيًا، إنشاء تفسيرات محتملة لهذه البيانات؛ وأخيرًا، استخلاص الفرضيات من هذه التفسيرات ووضعها موضع الاختبار. ويعد الاستبصار جزءًا لا يتجزأ من هذه العملية، فالعلماء يعملون في مجال صنع التنبؤات واختبارها، وإذا لم يتم إثباتها باستمرار، تُستبدل هذه النظريات أو تُعدَّل.

مهارة ناقصة

على الرغم من أهميتها الوجودية الفائقة، فإن البصيرة هي مهارة ناقصة، ولا يمكنها أن تكون صائبة تمامًا. والدليل على ذلك وجود العديد من الشخصيات القيادية المؤثرة على الساحة العامة التي فشلت في التنبؤ بما كان يبدو واضحًا بعد فوات الأوان. فقد رأى ألبرت أينشتاين في عام 1932م أنه "ليس هناك أدنى مؤشر على أنه سيكون من الممكن الحصول على الطاقة [النووية] إطلاقًا"، في حين تنبأ رئيس شركة المكانس الكهربائية "لويت" في عام 1955م بأن "المكانس الكهربائية التي تعمل بالطاقة النووية ستكون على الأرجح حقيقة واقعة في العالم في غضون 10 سنوات". كما أعلن المدير العام لمكتب البريد الأمريكي في عام 1959م أنه "قبل أن يصل الإنسان إلى القمر، سيُسلَّم البريد في غضون ساعات من نيويورك إلى كاليفورنيا وبريطانيا والهند وأستراليا عن طريق الصواريخ الموجهة".

وعندما هبط البشر أول مرَّة على سطح القمر، توقع العديد من الناس أنه ستكون هناك مستعمرات قمرية بحلول نهاية القرن العشرين، تليها مستعمرات ستقام أيضًا على كوكبي الزهرة والمريخ. ومن جهة أخرى، لم يتوقع غير قليل من الناس، ما الذي سيغير حياتنا فعليًا وهو اختراع الإنترنت والهواتف الذكية. لكن إخفاقات البصيرة في مواقع مختلفة لا يعني أنه محكوم على البشرية بتكرار الأخطاء الماضية، كما أن بوسع عقولنا أن تدرك أن العديد من التطورات البشرية الواضحة، التي تحفزها أمنياتنا بمستقبل أكثر إشراقًا، تأتي بعواقب كارثية لا سيما فيما يتعلق بتغيُّر المناخ. ففي عالمنا اليوم، الغابات تحترق، والأنهار الجليدية تذوب، والتنوع البيولوجي في انحدار، ونحن نستخرج ما نريده من الكوكب، ونترك في المقابل جبالًا من القمامة، بحيث يمكن العثور على فضلاتنا في الأعماق البحرية، وفي المناطق الخارجية للغلاف الجوي. لقد أثَّر النشاط البشري، مدفوعًا بالجشع، في الكوكب إلى حد أن العلماء أعلنوا عن حقبة جيولوجية جديدة، وهي حقبة الأنثروبوسين أو حقبة التأثير البشري. وهي حقبة يعود تاريخها إلى بداية التأثير البشري الكبير في جيولوجيا الأرض والتقنية، بما في ذلك تغير المناخ وتأثيره في الأرض وحياة الإنسان.

وفي ضوء كل ذلك، علينا أن ندرك أن البصيرة البشرية لا بدَّ أن تكون مرتبطة بما يعنيه أن تكون إنسانًا، ولا يمكن فصلها عن مفاهيم المسؤولية الأخلاقية، ولا عن أعمق مخاوفنا، ولا عن إحساسنا بالإرادة الحرة. فالبصيرة في أفضل حالاتها هي التي يجب أن تكون كما يقال فيها "عين القلب".



لحظة من فضلك

قبل أن تشارك صور أطفالك مع الآخرين

وأخيرًا وصلت الأسرة إلى شاطئ البحر لقضاء العطلة الصيفية. الكل سعيد، وخصوصًا الأطفال، يرتدون ملابس السباحة، ويقفزون في الماء. فماذا يفعل الوالدان؟ يُخرجان الهاتف، يلتقطان الصورة تلو الأخرى، ويرسلانها إلى الجد والجدة وغيرهما من الأصدقاء، وأهم من ذلك كله أنهما يحمّلان الصور الملتقطة على بعض منصّات وسائل التواصل الاجتماعي. فهل فكرا في عواقب ذلك؟ وهل تخيّلا المتاعب والمخاطر التي يمكن أن تنجم عن نشر هذه الصور؟

أسامة أمين

"استعراض الطفل رقميًا"، هذا التعبير الذي قد يبدو غريبًا للبعض هو الترجمة العربية للمصطلح الإنجليزي "Sharenting"، الذي بدأ تداوله منذ عام 2010م، ويقصد منه ببساطة قيام الوالدين بنشر صور وفيديوهات أطفالهما على شبكة الإنترنت بنيات طيبة، في أغلب الأحوال، وذلك لرغبتهما في إشراك الأهل والأصدقاء في هذه اللحظات السعيدة. ومن يبحث في غوغل عن الظاهرة، يجد أكثر من مليون مقال، تحتوي على الكثير من الدراسات واستطلاعات الرأي، علاوة على تقارير من سلطات أمنية، تحتوي على معلومات خطيرة.

ليس الحديث هنا عن الآباء والأمهات الذين يستغلون صور أطفالهم للحصول على أعداد كبيرة من المشاهدات على صفحاتهم على الإنترنت، والذين لا يتورعون، مثلًا، عن إظهار أطفالهم في مواقف تثير ضحك المشاهدين، مثل محاولاتهم الفاشلة في تناول الطعام بأنفسهم، أو وهم خائفون من قطة أو كلب، أو وهم في لحظات صراخ هستيري لعدم حصولهم على ما يريدون.

كذلك لسنا هنا بصدد الحديث عن الأهل الذين يجعلون من أطفالهم نجومًا مشهورين في شبكات التواصل الاجتماعي، الأمر الذي يعتبره بعض الخبراء حرمانًا لهم من الاستمتاع بطفولتهم، ومن خصوصيتهم، ويفقدهم التلقائية في التصرف، ويحولهم إلى كائنات مصطنعة، كما يمكن أن يؤثر سلبًا في تحصيلهم العلمي.

الدوافع إلى نشر صور الأطفال

إلى جانب ما سبق ذكره من دافع الرغبة في اقتسام لحظات السعادة مع المقربين، فإن غالبية الأهل الذين ينشرون صور أطفالهم، إنما يفعلون ذلك لشعورهم بالفخر بهم، مثل توثيق الخطوات الأولى التي استطاعوا أن يمشوها بمفردهم، أو الأسنان التي ظهرت في أفواههم، أو تقليدهم الوالدين في تأدية الصلاة، أو وهم يشقّون طريقهم لأول مرة لبدء حياتهم المدرسية. المهم أن الأطفال قد فعلوا شيئًا ربما يراه كل الناس طبيعيًا، لكن الوالدين يرونه إنجازًا فريدًا يستحق نشره على الملأ، ولو ضمن نطاق المقربين على الأقل.

أمّا في مواقف الحزن أو القلق، مثل أن يتعرض الطفل للإصابة بكسر، ويضطر الطبيب إلى وضع القدم أو الذراع في الجبس، أو إجراء عملية جراحية، فيبقى الطفل عدة أيام في المستشفى؛ فإن الوالدين يعتبران ذلك أمرًا لا بدَّ من توثيقه ونشر صوره للحصول على تعاطف الآخرين معهما وطلب الدعاء، أو لحثهم على الحضور لزيارة الطفل المريض.

وعند إقامة الحفلات المدرسية، أو حتى حفلات رياض الأطفال، قد يرى الوالدان ضرورة التقاط عشرات الصور لإظهار وسامة الطفل وأناقته وجماله، وكيف أنه كان نجم الحفل، واستطاع أن يجذب اهتمام الجميع بذكائه ولباقته، ليس لأنه ابنهما فقط، بل لأنه "طفل معجزة"، يستحق كل التقدير والاهتمام.

أيام الميلاد هي الأخرى من أكثر المناسبات تصويرًا ونشرًا على مواقع التواصل الاجتماعي. ومن الطبيعي أن يشارك أطفال آخرون في مثل هذه المناسبات، وبالتالي فإنهم سيظهرون في الصور. ومن المتوقع أن يرسل أهل الطفل

ما يبدو للوالدين طريفًا اليوم قد لا يكون كذلك لأطفالهم عندما يكبرون، وهناك ما هو أخطر من ذلك بكثير.

صاحب المناسبة، الصور ليس إلى الأقارب فقط، بل إلى أهل الأطفال الحاضرين أيضًا، الذين بدورهم سيعيدون إرسالها إلى أقاربهم ومعارفهم.

وإضافة إلى ما تقدم، لا يتورّع بعض الأهالي عن إرسال صور الطفل وهو من دون ملابس إطلاقًا، باعتباره ما زال رضيعًا، أو يلبس الحفاظة فقط، أو في حوض الاستحمام، بل ربما يتبادلون صور أطفالهم وهم في هذه الحالات، وكل منهم يشيد بجمال أطفال الأسرة الأخرى. وليس مستغربًا أن تنشر أسرةٌ صور أطفالها وأطفال الأسرة الأخرى معًا. حتى الأهل من ذوي النيات الطيبة، لا يرون بأسًا في نشر صور مضحكة، من وجهة نظرهم على الأقل، لأطفالهم. وتكفي نظرة سريعة إلى يوتيوب لنرى كمًّا هائلًا من هذه الصور، التي ربما لا يدري أهل هؤلاء الأطفال أنها نُشِرت، لكنهم حتمًا يجهلون أو يتناسون ماذا يمكن أن يحدث لها.

بعض ما ينطوي عليه ذلك من أخطار

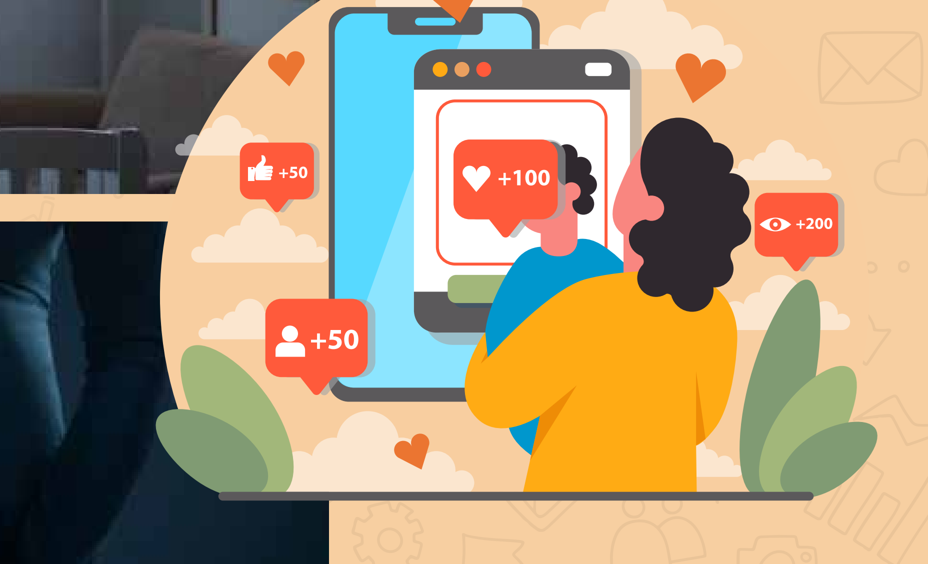
قد يتساءل القارئ عن العواقب التي يمكن أن تنجم جراء نشر هذه الصور، خصوصًا أن هناك قناعة بأن نشر الصور على واتساب مثلًا، يكون على نطاق ضيق، على عكس فيسبوك، الذي هو أكثر علانية وأوسع جمهورًا، فما الضير في ذلك؟ وما الذي أقحم السلطات الأمنية الدولية مثل الإنتربول في هذا الأمر؟ وما نتائج الدراسات والأبحاث التي تناولت هذه الظاهرة؟

بداية، تأكد أن الصورة التي ترسلها إلى أي أحد لم تعد ملكًا لك، وأنها قد تشقّ طريقها إلى أشخاص لا يخطرون على بالك. فالإنترنت لا ينسى أبدًا، ومحو صورة من الأجهزة، ومن كل المواقع أمر بالغ الصعوبة، بل يكاد يكون مستحيلًا.

وهناك كثير من الأشخاص يستخدمون صور أطفالهم في الملف الشخصي (البروفايل)، خصوصًا الأمهات، وهذا ما يجعل احتمال انتشار الصورة مؤكدًا. ويمكن للقارئ العودة إلى حسابه وجهات الاتصال الخاصة به، ليجد صورًا لأطفال بملابس الإحرام، أو أخ يحتضن أخته الصغيرة، أو وهو جالس على كتف والده، بل حتى وهو نائم في السرير.



توصّلت إحصائية أسترالية إلى أن 50% من صور الأطفال وهم عُراة تجد طريقها إلى مواقع شاذة.



تخيل أن يأتي زميل لك في العمل، ويعرض أمام بقية الزملاء صورك عندما كنت طفلاً تحبو، أو رضيعًا عاريًا تمامًا، أو بملابس السباحة كيف ستشعر في هذه اللحظة؟ هذا هو الشعور نفسه الذي سيتعرض له طفلك، وهو في المدرسة أو في النادي الرياضي. والأطفال لا يرحمون بعضهم، وسخريتهم من بعضهم لاذعة.

قد يتساءل المرء عن كيفية تعرف الآخرين على صورة التقطت قبل ذلك بسنوات، ويبدو أننا نتناسى التقدم التقني الذي يحقق قفزات خيالية في سنوات قليلة، علمًا أن تقنية التعرف على الوجوه مستخدمة على نطاق واسع في الصين مثلًا. وقد نشرت وسائل إعلام عالمية نبأ العثور على شخص صيني تعرض للخطف وعمره سنتان، إذ أمكن العثور عليه مؤخرًا بعد مرور ثلاثين عامًا؛ لأن البرامج الحديثة قادرة على توقع كيفية تغير شكل الشخص.

فإذا نشرت صورة لطفلك وحوله الأسرة لمناسبة عيد ميلاده، وكتبت عليها تهنئة، فإن ذلك يعني أن من يطلع عليها قد يحصل على معلومات شخصية عديدة: اسمه، وتاريخ ميلاده، وعدد أفراد أسرته. وإذا كانت خاصية الوسم الجغرافي مفعّلة، أمكن تحديد عنوان السكن. كل ذلك سيسهل ما يُعرف بسرقة الهوية، أي أن تُباع هذه المعلومات، ومن خلالها يمكن لأي مجرم أن يستخدم هذه الهوية في الإنترنت، ويمارس الاحتيال بها، فيجد ابنك نفسه متهمًا بجرائم لا علاقة له بها.

وقد تكون لك ميول سياسية معينة، وتصطحب طفلك معك، مثلًا، في مظاهرات حماة البيئة، أو الاحتجاجات على العولمة، أو لدعم حزب ما. ثم يكبر ابنك ويقرر أن يشق طريقًا آخر، فإذا تبين وجود صور له في مشاركات غير مرغوبة وإن كانت قديمة، فإن ذلك قد يؤثر سلبًا على مستقبله. وإذا بدا لك ذلك أمرًا مستبعدًا، فما عليك إلا متابعة ما حدث خلال العام الحالي 2023م للسياسي الألماني نائب رئيس وزراء ولاية بافاريا، هوبرت إيفانجر، إذ انتُقد عما بدر منه عام 1987م، أي بعد 36 عامًا، حين ظهر للملأ منشور له فُسر بمعاداته للسامية. وتعالت الأصوات المطالبة بإقالته، رغم اعتراف أخيه، أنه من كتب هذا المنشور، وكل ذلك دون وجود صور، فما بالك لو كان ذلك موثقًا بالصور؟

ثمة موضوع آخر تثير الإشارة إليه كثيرًا من الحرج والاشمئزاز، ولكن التنبيه إليه ضروري. فالسلطات الأمنية الأوروبية (الأيروبول) حذرت في عام 2020م من تفشي مواقع إباحية لأشخاص منحرفين، تثير صور الأطفال غرائزهم المريضة. ويبحث هؤلاء عن صور لأطفال عراة أو بملابس البحر، أو ما شابه ذلك، وباستخدام فوتوشوب وغيره، يجرون بعض التعديلات ويجعلون الصور مثيرة لهم، ويكتبون عليها تعليقات شنيعة. وهناك محتالون في القرصنة واختراق الحسابات، يمتلكون مهارات شيطانية، تتيح لهم العثور على هذه الصور. فهل تتصور شعور ابنك أو

الطفل البالغ من السن أربع سنوات لديه حس مبكر للتفريق بين الصورة الشخصية التي يقبل أن يراها الآخرون، والصورة التي يشعر بالحرج من رؤية الآخرين لها.

ابنتك، وشعورك أنت، إذا علمت أن الصورة التي نشرتها بحسن نية وصلت إلى هذه المواقع؟ وهذا الخطر ليس متخيلًا ولا مبالغًا فيه؛ إذ إن إحصائية أسترالية من عام 2015م، توصلت إلى أن 50% من الصور العارية للأطفال، تجد طريقها إلى هذه المواقع الشاذة.

لعل التطور الذي شهدته الهواتف الذكية، والدقة الهائلة لكاميرات هذه الأجهزة، والإمكانات التي تتيحها مواقع التواصل من إضافة الصور والفيديوهات، وكتابة التعليقات عليها بسهولة، كل ذلك جعل غالبيتنا لا يفكر كثيرًا قبل أن يرسل الصورة. وفوق ذلك، فإن شروط استخدام هذه التطبيقات عبارة عن نصوص في صفحات كثيرة، لا يقرؤها السواد الأعظم، إضافة إلى أن عدم الموافقة عليها، قد يعني عدم إمكانية استخدام التطبيقات، أو يحرمك من بعض الخصائص. ما سلف مع اقتناع البعض بأنه لا جدوى من محاولات الاحتفاظ بالخصوصية لأنه لم يعد هناك وجود لها، وجهل البعض الآخر بالمخاطر؛ كل ذلك يؤدي إلى الوضع الحالي، من التساهل في التعامل مع معلوماتنا ومعلومات أطفالنا وصورهم.

حقوق الطفل

صحيح أن ولي الأمر مسؤول عن أطفاله، وأنه ينوب عنهم في اتخاذ القرارات إلى أن يمتلكوا النضج اللازم للقيام بذلك بأنفسهم. لكن ذلك لا يعني أن يتجاهل رأي طفله، بل من واجبه أن يساعده على اكتساب القدرة على البت والاختيار بين نشر الصورة أو عدمه. وقد توصلت الدراسات إلى أن الطفل البالغ من السن أربع سنوات لديه حس مبكر للتفريق بين الصورة الشخصية التي يقبل أن يراها الآخرون، والصورة التي يشعر بالحرج من رؤية الآخرين لها، وعلى الأهل أن يسألوه قبل نشر الصورة، وأن يحترموا رغبته، بنشر الصورة أو عدمه، وأن يكون رأيه ملزمًا لهم من سن ست سنوات.

وإذا فعل الأهل ذلك، فإن الطفل يتعلم منذ الصغر أنه يجب عليه هو نفسه أيضًا أن يفكر قبل نشر أي صورة. ومن خلال النقاش مع أهله، يتعلم ما يترتب على ذلك، ولا يتهور بإرسال صور يمكن أن يستخدمها آخرون بعد ذلك في إحراجه أو ابتزازه.

لكن تهاون الأهل في هذا الأمر، دفع البرلمانيين الفرنسيين إلى تقديم مشروع قانون يقضي بمحاسبة الوالدين إذا نشروا صور أطفالهم من دون موافقتهم، بل وفرض عقوبات على الوالدين في حالة مخالفة ذلك؛ لأن كثيرًا من الصور التي يراها الوالدان عادية ومسلية، يراها الأطفال محرجة جدًا لهم، ومؤذية لمشاعرهم. ورغم حرص الكبار على الاختيار بدقة للصور التي ينشرونها عن أنفسهم، فإنهم لا يستخدمون نفس المعايير الصارمة عند اختيار صور أطفالهم للنشر، حتى لو كانت غير مقبولة من وجهة نظر الطفل.

وفي بريطانيا، توصلت إحصائية إلى أن الوالدين ينشران في المتوسط 1300 صورة وفيديو لكل طفل منذ ولادته حتى يصل إلى الثالثة عشرة من عمره، وغالبيتها من دون موافقة الطفل. بل إن بعض الأهل يبدأ في نشر الصور للطفل وهو ما زال جنينًا في بطن أمه قبل أن يخرج إلى الدنيا.

ضع نفسك مكان طفلك

التقط ما شئت من صور لطفلك، لكن فكر أكثر من مرة قبل أن تنشر أي صورة منها، أو أن ترسلها إلى شخص آخر. ضع نفسك مكانه، وما إذا كنت ترغب في أن يراك زملاؤك عندما كنت في المدرسة أو في عملك الحالي، وأنت في مثل هذا الوضع. لا تجعل من طفلك أضحوكة للآخرين، وتذكر أن الإنترنت لا ينسى شيئًا، وتجنب أن تجعل طفلك بعد سنوات من نشر هذه الصورة، يشعر بالغضب منك، ويعاتبك على ذلك، وتجد نفسك عاجزًا عن تصحيح الخطأ.

وتذكّر أيضًا أنه ليس من حقك نشر صور أطفال الآخرين، من دون الحصول على موافقة الأهل. والأفضل أن تتأكد من موافقة الأطفال أنفسهم على ذلك. فحتى لو لم تكن هناك قيود قانونية على ذلك في هذا البلد أو ذاك، فإن هناك قيودًا أخلاقية، لا بدَّ أن تكون قد أدركتها بعد قراءة هذه السطور.



أميرتان في بلاد تيمورلنك وجُحا

طشقند الأثيرة وسمرقند الساحرة

كانت الساعة التاسعة مساءً والشمس قد غربت توًّا في سمرقند، وتلوّنت السماء بزرقة داكنة أخّاذة. كنت حينها أجلس على إحدى عتبات ساحة ريجستان محاطًا بزخارفها البديعة ومآذنها السامقة. كانت الموسيقى الشعبية الأوزبكية تصدح في جنبات المكان بنغمة سكون ولمسة حزن، يرافقها عرض ألوان ساحر على واجهات المباني. وبالرغم من حركة السياح والباعة وعاملي رصف الساحة، مرّ وقت طويل شعرت فيه أنني انفصلت عن الزمان، وكأنني أعيش إحدى قصص ألف ليلة وليلة.

الحرف والصورة: مصلح جميل





رغم أنها بلد صحراوي، تتميّز أوزباكستان بحدائقها العامة المشجرة والمزينة بالورود، والمجهزة بأماكن مخصصة للمشي والجلوس، كما يبدو في هذه الحديقة التي يزهو بها مركز مدينة سمرقند.

زيارتي لجمهورية أوزباكستان كانت دون تخطيط كبير، لا كما يحدث عادة في رحلاتي الأخرى. اكتفيت بتوصيات أصدقاء زاروها سابقًا، لأجد نفسي في مطار العاصمة طشقند. كان الوقت يقارب الثالثة قبيل الفجر، وبدت طشقند مدينة وادعة بالرغم من أنها من أكبر مدن آسيا الوسطى. وصلت الفندق مع لحظات انجلاء الليل وانبساط نور الصباح، فأخذت معالم المدينة تتضح؛ وجدتها خالية من ناطحات السحاب، مطرّزة بأشجار معمرة طويلة تزيّن شوارعها الفسيحة. وكما هو حال طقس أوزباكستان في مطلع شهر يوليو، كانت حرارة الجو معتدلة صباحًا، ولكن بقية النهار جاءت كما يليق ببلد صحراوي بعيد عن البحار، حرارةٌ وجفاف.

"سلامٌ" عليك يا أوزباكستان

منذ الوصول لاحظت دفء أهل أوزباكستان، فهم طيبون ومرحبون. ويكفي أن يلقي الشخص كلمة "سلام" ليرد عليه أهلها بـ"سلام". إنها الكلمة العربية الأكثر انتشارًا، وطريقة التحية لديهم، وهي تؤسس لعلاقة من الترحاب والأمان والثقة. والمسلمون يشكلون ما يقارب 90% من سكان أوزباكستان البالغ عددهم 36 مليون نسمة. ويمكن للزائر ملاحظة تعدد العرقيات في السكان، فبالرغم من أن الأكثرية تعود للعرقية الأوزبكية، تعود مجموعات أخرى لعرقيات منها الروسية والطاجكية والكازاخية وغيرها. مع ذلك فإن الترحاب عامل مشترك بين الجميع، ويزيد حين يُدرك الأوزبك أن الزائر من المملكة العربية السعودية، بلد مكة المكرمة والمدينة المنورة، التي يتوق الكثير منهم لزيارتها.

تنوُّع الأعراق واضح في ملامح أهل طشقند، لكن الترحاب سمة مشتركة بينهم، و"سلام" تحيّةٌ تدور على ألسنة الجميع.





يبيع الأوزبكيون في أسواقهم الشعبية كل شيء ينتجونه من فاكهة وملبوسات وأدوات زينة وتحف وغيرها، وسبيلهم لجذب الزبائن هو الابتسامة والترحيب.

أول ما أصابني بالدهشة هو روعة التخطيط المعماري لشوارع طشقند ومسارات المشاة والحدائق. احتلّت أرصفة المشاة مساحة كبيرة على جانبي كل شارع وطريق، وخُصصت أماكن كثيرة في المدينة للحدائق البهيجة ولمسارات تصريف الأمطار. لقد كانت دهشتي من روعة التخطيط عظيمة، ويرافقها نظافة عامة لم أشاهدها في أغلب مدن العالم التي زرتها. قادتني تلك الدهشة إلى البحث عن تاريخ تصميم مدن أوزباكستان، فهي تعود إلى فترات متفرقة من الفترة السوفيتية. ولذلك التخطيط الحضري فلسفة تُربط أحيانًا بجذور الفكرة الاشتراكية من ضرورة إتاحة مساحات عامة كبيرة. ولكن أيًا يكن تاريخ ذلك التخطيط وفلسفته فقد بدا لي مثالًا جديرًا بأن يُقتدى به.

عمارة سوفيتية فريدة

بدأ اهتمامي بزيارة نماذج العمارة السوفيتية ومشاهدتها قبل عقد من الزمن، منذ أول زيارة لمدينة تبليسي عاصمة جورجيا. ولكن طشقند تُعتبر متحفًا مفتوحًا لما تبقى من وحشية العمارة السوفيتية وكتلها الإسمنتية. وللعمارة السوفيتية صفاتها وفلسفتها الخاصة، كما يظهر ذلك في العمارات السكنية التي بنتها الحكومة للعامة، فهي تتسم بصغر مساحات شققها وواجهاتها المسمطة أحيانًا والمزخرفة في أحيان أخرى، ولذلك أسبابه التي تفرضها فلسفة النظام الشيوعي.

لكن روعة العمارة السوفيتية، وتحديدًا في أوزباكستان، تكمن في محطات القطار التي تتميز كل محطة منها بتصميم فريد ومختلف. ثم يأتي

العمارة السوفيتية تأسرك في طشقند. وفي سمرقند تتأمل بديع الزخرفة الإسلامية التي يضج بها المكان، فتتذكّر تاريخ المدينة ورحلات طريق الحرير.





الخبز عنصر رئيس على المائدة الأوزبكية، ويتميز بشكله الدائري والزخرفة.



صورة لطبق الـ"بلاف" الذي تشتهر به أوزباكستان، وهو يُعدّ ويُقدَّم بطرق مختلفة حسب المنطقة.

بعد ذلك تصميم المباني الحكومية والعامة، وأبرزها فندق أوزباكستان في وسط طشقند، وهو أيقونة العمارة السوفيتية في العاصمة. فقد كان ضمن الفنادق الرسمية التي بنتها الحكومة السوفيتية في مدنها الكبيرة، وغُيِّر مسماه بعد الاستقلال إلى فندق أوزباكستان. وما يميّز هذا الفندق أنه لا يزال مفتوحًا للسياح، سواء للسكن أم للفُرجة. وقد كانت زيارتي للطابق الأعلى منه لإلقاء نظرة على طشقند من الأعلى مع غروب الشمس تجربة لا تُنسى.

وتُعتبر السوق الشعبية "كورسو" أحد أبرز الأمثلة على العمارة السوفيتية في طشقند، فهي السوق الكُبرى على مستوى وسط آسيا. ورغم أنها تبدو من الخارج على شكل قبة صغيرة، فإن الدخول إليها تجربة لا يجب تفويتها، إذ تعج بالناس من المتسوقين وباعة الفواكه واللحوم والمكسرات من كل الأصناف والألوان.

خيرات طشقند

لقد كنت محظوظًا بزيارة أوزباكستان في مطلع الصيف، حين جادت كثير من الأشجار بثمارها. ويمكن شراء ألذ الفواكه، من مشمش و"بُخار" (البرقوق) وتوت وكرز وغيرها، بأسعار زهيدة. وأرض أوزباكستان التي ترويها عدة أنهار تشتهر بفواكهها التي تُعد أبرز صادراتها، سواءً الطازجة منها أم المجففة.

وطعام أهل أوزباكستان هو من أطيب الطعام. ولعل أيقونة المطبخ الأوزبكي هو ما يُسمى بطبق "بلاف"، وهو ما وصل إلى الجزيرة العربية تحت مسمى "البخاري" مع تغييرات كثيرة على



صورة بانورامية داخلية لسوق "كورسو" وسط العاصمة طشقند، وهي السوق الشعبية الأشهر في أوزباكستان. بُنيت السوق في عام 1980م، ومبناها هو بين مبانٍ عديدة في آسيا الوسطى شُيِّدت في ظل النظام السوفيتي السابق. أما تاريخ السوق فيعود إلى عدة عقود سابقة، حين كانت محطة توقف لقوافل تجار طريق الحرير.



إحدى البنايات السكنية التي تعود للفترة السوفيتية في العاصمة طشقند. وفي مقدمة الصورة، سيارة من طراز "لادا"، وهي أيضًا سوفيتية الصنع.



ساحة ريجستان، وتظهر فيها المدارس الإسلامية الثلاث (من اليسار إلى اليمين): أولوغ بيك وتيلا قاري وشيردا، وهي تجسيدٌ لروعة العمارة الإسلامية. كانت الساحة تمثّل قلب مدينة سمرقند القديمة التابعة للإمبراطورية التيمورية. واسم ريجستان يعني "المكان الرملي" أو "الصحراء" باللغة الفارسية.



فندق أوزباكستان، أيقونة العمارة الوحشية السوفيتية. اكتمل بناؤه في عام 1974م، ويُعتبر أكبر فندق في العاصمة طشقند. يضم 254 غرفة، ويبلغ ارتفاعه 17 طابقًا.

طريقة إعداده. والبلاف له عدة طرق للتحضير تختلف من مدينة أوزبكية إلى أخرى. ولكنه في المجمل عبارة عن أرز يُطبخ في قدر كبير مع اللحم والدهن المصنوع من شحوم الأغنام والأبقار، ويُقدم مع البيض وقطع من لحم الخيل. وتشتهر أوزباكستان، مثل كثير من دول آسيا الوسطى، بلحم الخيل وحليبها.

أما الخبز الأوزبكي فهو قصة أخرى من جودة الطعم وفرادة الثقافة. فالخبز عنصر رئيس في المائدة الأوزبكية، وهو يُباع على عربات متجولة في الشوارع أو داخل الأسواق والمخابز الكثيرة. ويختلف الخبز الأوزبكي عن الجورجي كمثال، فهو خبز دائري الشكل يُزيَّن بزخارف بديعة وكأنه تحفة فنية. ويمكن لمن يتجول بين مدن هذه البلاد أن يشاهد المساحات المهولة لمزارع الفواكه والقمح والخضراوات، التي تمتد إلى ما لا نهاية، تسقيها روافد الأنهار التي تعبر الأراضي الأوزبكية ولعل أشهرها نهر سيحون.

تيمورلنك المجيد.. وجُحا الحكيم

تعجّ كتب التاريخ بقصص الرعب التي كان بطلها تيمورلنك، حين غزا واستعبد وعاث بجيوشه في الأراضي العربية وغيرها من مناطق آسيا، وقتل كما يُقال ما يصل إلى مليون إنسان. ولكن الأوزبك لديهم نسختهم الخاصة من تاريخ قائدهم تيمورلنك، ويمكن بسهولة إدراك اعتزازهم وفخرهم به. فإن حدث وذكرت لأوزبكي "تيمورلنك"، فسيصحح لك بكل أدب قائلًا: "أمير تيمور"، وهو الاسم الذي يطلقونه على أميرهم الذي أسس المملكة التيمورية. وهو يُلقب بالأمير لأنه لم يحظَ بلقب ملك، بالرغم من دم جنكيز خان الذي جرى في عروقه.

يكن الأوزبكيون التقدير الكبير لتيمورلنك، وتنتشر المجسمات في مدن الجمهورية الأوزبكية، أما قبره في سمرقند فهو تحفة معمارية يزورها الكثير من السياح والسكان.

ويُعبّر الأوزبك عن تقديرهم لتيمورلنك بتماثيله المنتشرة في الميادين، ولعل أبرزها ميدان خاص به في وسط طشقند، حيث تراه منتصبًا يمتطي صهوة حصانه رافعًا يمينه لتحية زوارها. وحول تمثاله المهيب مساحات خضراء وأماكن للجلوس مزينة بمسارات بديعة. هناك، عند ميدانه، وقفتُ مع أعداد كبيرة من السياح والأوزبك، الذين يلتقطون صورًا له ومعه.

أمّا ضيف تيمورلنك الظريف، جحا، الذي تطغى على سيرته ارتباطها بالفكاهة والحمق في الثقافة العربية، وتختلف الآراء حول موطنه ونسبه، فنجده حيًّا مُحتفًى به في الثقافة الأوزبكية. فالأوزبك يعتبرونه أوزبكيًا، ولا ينظرون إليه كأحمق، وإن كان يركب حماره في كثير من تماثيله في أوزباكستان. وهو معروف عندهم بنصر الدين خوجة، وهو عالمٌ يُحتفى به في الفنون والرسومات، وقد قاده طلب العلم إلى الترحال للبلاد العربية في فترات متفرقة.

بالقطار إلى أميرة الحرير

بعد ثلاثة أيام في طشقند، ركبت القطار غربًا إلى سمرقند. ورحلات القطار يومية بين المدينتين، كما تربطهما بباقي مدن أوزباكستان شبكة قطارات. أسعار تذاكر القطار مثل باقي أسعار وسائل المواصلات في أوزباكستان؛



فواكه الصيف من كلّ ما لذّ وطاب، ريّانةٌ بماء الأنهار. والخبز دائريّ الشكل مزخرف، فكأنه تحفة فنّية بديعة.

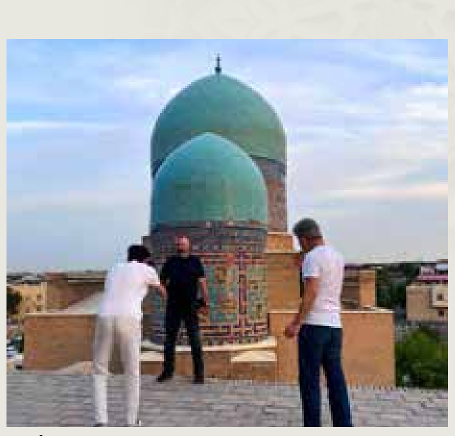


رخيصة جدًا. أمضينا ما يقارب ثلاث ساعات ونصف في القطار، الذي عبر الأراضي الصحراوية لأوزباكستان مخترقًا مزارعها على سكة حديدية بُنيت منذ الحقبة السوفيتية؛ لنصل إلى محطة القطار ذات التصميم المميّز في سمرقند.

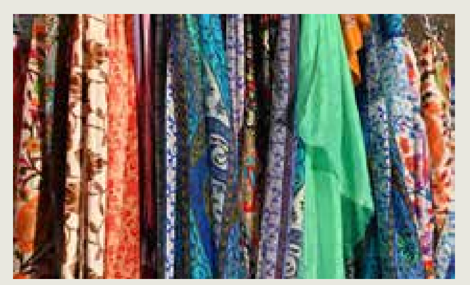
لسمرقند سحرها الخاص؛ إنها مدينة تحتضن تاريخًا يعود إلى عشرات القرون من الزمن. هنا، تستذكر تاريخ المدينة وروعتها، وما كتبه عنها ابن بطوطة الذي أوجز وصفها بقوله: "سافرتُ إلى مدينة سمرقند، وهي من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالًا، مبنية على شاطئ وادٍ يُعرف بوادي القصارين، عليه النواعير تسقي البساتين. وعنده يجتمع أهل البلدة، ولهم عليه مساطب ومجالس يقعدون عليها، ودكاكين تُباع بها الفاكهة وسائر المأكولات. وكانت على شاطئه قصور عظيمة وعمارة تنبئ عن علو هِمم أهلها".

عشتُ خلال يومين قضيتهما هناك عظمة سمرقند، وسبرتُ تاريخ مؤسسها تيمورلنك ورحلات طريق الحرير من الصين إلى البندقية، وتمعّنتُ في روعة العمارة والفنون الإسلامية. تتميَّز سمرقند عن طشقند بكثرة الأضرحة، التي تحفل بعمارة إسلامية فريدة. وأبرزها ضريح لتيمورلنك، يضم قبره وقبر عدد من أفراد أسرته، يقصده الأوزبك بأعداد كبيرة فيمضون أوقاتهم هناك.

وبعد ذلك، يأتي قبر يُنسب إلى قُثم بن العباس، ابن عم النبي (صلى الله عليه وسلم)، الذي شهد فتح سمرقند واستُشهد ودُفن بها. يقع القبر على تلة مرتفعة يمكن للزائر أن يختلس منها نظرة على معالم سمرقند، وأبرزها وأروعها ساحة راجستان. تضم تلك الساحة ثلاث مدارس، وتعجّ بالسياح من الصباح الى أوقات متأخرة من



سياح يلتقطون صورًا تذكارية أمام قبتي قبر يُنسب إلى قُثم بن العباس، رضي الله عنه، في سمرقند، إذ يُقال إنه شهد فتحها واستُشهد فيها.





تشتهر أوزباكستان بفنون الفخار والخزف والنسيج وتركيب الجص وصناعة الحرير وغيرها من الفنون الحرفية. ويعود ذلك إلى عدة قرون، حين جلب تيمورلنك العديد من الحرفيين من البلدان التي احتلتها جيوشه، بالإضافة إلى هجرة بعضهم من بلدان مختلفة إلى الإمبراطورية التيمورية في عز مجدها.



مقطع من رسمة تجسد جحا، المعروف هناك باسم "نصر الدين خوجة"، وهو شخصية يُحتفى بها في التراث الأوزبكي وله تماثيل في بعض مدنها.

الليل. إنها مكان لاستذكار أوج المملكة التيمورية وبهاء فن العمارة الإسلامية، وتاريخ طريق الحرير والتجارة بين الشرق والغرب.

والثقافة الأوزبكية غنيّة بالرسومات والزخرفة والمنمنمات. وتُعتبر صناعة الحرير والرسم على الأقمشة من أبرز ما يميزها، بالإضافة إلى فنون الفخار والخزف والنسيج وتركيب الجص.

لا يتسع المقام لسرد كل تلك الدهشة والجمال اللذين عشتهما في أوزباكستان، بالرغم من أن الوقت لم يسعفني لزيارة بقية مدنها. ولكن رحلتي إليها كانت تجربة لا تُنسى، وقد تركَت بصمة عميقة في روحي، وحفرَت في قلبي محبة وإجلالًا لأهلها وتاريخها وجمالها. وهي الدولة التي كنت في لحظة مغادرتها، أخطط لزيارتي إليها المرة المقبلة.

مكتبة المستقبل: كُتب ستقرؤها بعد 100 عام!



كاتي باترسون، صاحبة الفكرة.

على الرغم من وجود العديد من التساؤلات حول مستقبل الكتب المادية، فقد أطلقت الفنانة الإسكتلندية المفاهيمية "كاتي باترسون" في عام 2014م فكرة إنشاء "مكتبة المستقبل" كمشروع فني تطلعي يجمع بين كونه كبسولة زمنية أدبية ومشروعًا بيئيًا.

كرّست "باترسون" جلّ اهتمامها بما ستتركه البشرية للأجيال القادمة؛ لذلك ابتكرت فكرة إنشاء هذه المكتبة في مدينة أوسلو النرويجية. ومن المقرر أن تحتوي هذه المكتبة على مائة كتاب على ألا يُقرأ أي منها قبل 2114م. ولتحقيق هذا الهدف زُرعت غابة من ألف شجرة من التنوب الشوحي في الحزام الأخضر لمدينة أوسلو، على أن تُقطع بعد حوالي قرن من الزمن لاستخدام الخشب في صناعة الورق الذي ستُطبع عليه ألف نسخة من كل كتاب في المجموعة المكتبية.

ومنذ 2014م، بدأ تكليف كاتب واحد في كل عام من مختلف أنحاء العالم بتأليف كتاب كمساهمة في المكتبة على ألا يُنشر حتى عام 2114م. وإلى ذلك الحين، سيُحتفظ بجميع المؤلفات في الطابق العلوي من مكتبة ديشمان في أوسلو، في مساحة تُسمى "الغرفة الصامتة"، التي صُمّمت بطريقة فريدة وبُنيت بشكل دائري من مائة طبقة من الخشب، مثل حلقات الشجرة المتكشفة، وفي كل طبقة منها دُرج مصنوع من الزجاج المصبوب يدويًا حُفر عليه اسم الكاتب وتاريخ المؤلَّف. وقد وُضعت المؤلفات في داخلها لتكون مرئية فقط من الخارج، ولا يُشار إليها إلا من خلال الأضواء المتوهجة. ومع ذلك، لن يكون من الممكن قراءة هذه المؤلفات، ما يعني أن فرصة الوصول إليها ستكون محظورة على معظم الناس.

ومن ناحية أخرى، صُمّمت المكتبة لتكون آمنة ومستدامة، فصُنعت مفاتيح متخصصة للأدراج الزجاجية، ونظام إضاءة يدوم قرنًا من الزمان. وقد حرص القائمون على المكتبة على حفظ "الغرفة الصامتة" فلا يسمح بالدخول إليها إلا لعدد قليل من الأشخاص في زيارات متقطعة، بحيث يشعر كل داخل إليها بصمت الكلمات القابعة في أدراجها.

يعود أول النصوص الموضوعة في "مكتبة المستقبل" للكاتبة مارغريت آتوود، التي كتبت قصة بعنوان "القمر المخربش"، تلتها أعمال لكتاب من جميع أنحاء العالم، فكان منها أعمال للروائي الإنجليزي ديفيد ميتشل، والشاعر الأيسلندي سجون، والكاتبة التركية إليف شفق، والمؤلف الكوري الجنوبي هان كانغ، والشاعر الفيتنامي الأمريكي أوشن فونج. أما في 2022م، فكان آخر عمل هو رواية قدمتها المؤلفة الزيمبابوية تسيتسي دانغاريمبا وجاءت بعنوان "ناريني وحمارها"، (كلمة "ناريني" مشتقة من كلمة زيمبابوية تعني "اللانهاية").

يبقى القول إن ما تقدمه هذه المكتبة هو هدية للأجيال القادمة في هيئة من مجموعة أنثولوجية مكونة من مائة نص فريد. وهي في جوهرها تحاكي فكرة تروق لنا، فعندما كنا أطفالًا كنا ندفن أشياء هنا وهناك، وقطع حلي وصناديق صغيرة، على أمل أن يجدها شخص ما في وقت لاحق، أو كما نرمي رسالة في زجاجة في عرض البحر لعل أحدًا ما في مكان ما يجدها ويقرأ ما في داخلها.

طرحت الكاتبة مارغريت آتوود عند تسليم مؤلفها "الوديعة" إلى أدراج المكتبة، أسئلة مثل: "هل سيكون هناك من يبقى لاستكشاف تلك المؤلفات المحفوظة بعد مائة عام؟ هل سيكون هناك بلد اسمه "النرويج"؟ هل ستبقى "الغابة"؟ هل ستكون هناك "مكتبة"؟ ولكن، من المؤمل أن نثق بأن كل هذه العناصر ستظل موجودة، على الرغم من تداعيات تغير المناخ، وارتفاع منسوب سطح البحر، وتفشي حشرات الغابات، والأوبئة العالمية، وكل التهديدات الأخرى، الفعلية وغير الفعلية، التي تقلق وجودنا اليوم. وفي النهاية، تبقى مكتبة المستقبل رمزًا للأمل ولالتزامنا المشترك ببناء عالم يدوم لفترة أطول من وجودنا.

القياس

إنه الجواب عن أي سؤال يبدأ بـ"كم؟".
هو كالهواء الحاضر دائمًا من حولنا حتى الالتصاق بنا، ننساه أو نتناساه، أو نتجاهله، رغم أنه وراء تشكيل كل ما أنتجه وسينتجه الإنسان، من الملابس التي على أجسامنا، إلى أبعد الأقمار الاصطناعية عن كوكبنا.
إنه القياس، هذا الفعل الذي لا بدَّ منه، ليس فقط لضمان سلامة إنتاج أي شيء، بل أيضًا لتطوير المعارف والعلوم وإدراكنا لحقيقة العالم بمعظم ما فيه من تفاصيل صغيرة.
ملليمتر أو كيلومتر، كيلوغرام أو طن، ساعة أو عشرة أيام، ميغا أو غيغا... مقاسات مختلفة الدلالات تتردد على ألسنتنا كل يوم، وببساطةٍ تلهينا عن التفكير بمدى أهميتها، رغم أنها هي التي تتحكم في قراراتنا، كل قراراتنا تقريبًا.
ولأن القياس من أعرق الابتكارات الإنسانية، ولا يزال يتطور بتطور المعارف والعلوم، كان لا بدَّ من أن يتجلى، هو وأدواته فيما لا يحصى من مجالات الحياة، تارة بمعناه الحرفي، وتارة بدلالاته الرمزية.
في هذا الملف، يتناول عبود طلعت عطية، وبمشاركة محدودة من الذكاء الاصطناعي، عالم القياس من تاريخه إلى أحدث ما طرأ عليه من تطوُّر، وحضوره الوازن حضاريًا وثقافيًا.

بداية، طلبنا إلى الذكاء الاصطناعي أن يكتب تمهيدًا لهذا الملف يتضمن نبذة عن القياس، فأجاب بالنص الآتي:

"القياس هو مسار التعريف بواسطة الأرقام أو الرموز لكميات فيزيائية أو خصائص أشياء وأحداث، وفق قوانين معيارية. والقياس ضروري لوصف الطبيعة وعالم المجتمعات ومقارنته وفهمه. كما أن المقاييس هي أساسية للبحث العلمي والتطوُّر التكنولوجي والاقتصاد والتنمية.

ومع ذلك، فإن أدوات القياس ليست دائمًا مباشرة ولا بسيطة. فأنظمة القياس المختلفة موجودة لغايات وأطر مختلفة. وعلى سبيل المثال، في حين أن النظام المتري مُعتمَد على نطاق واسع في العلوم والهندسة، فإن النظام الإمبراطوري لا يزال شائعًا في بعض البلدان مثل الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة. وأكثر من ذلك، فإن دقة القياس تختلف باختلاف أدوات القياس. فالمسطرة الصلبة أدق من المسطرة الطرية، ولكن جهاز الليزر أدق من المسطرة الصلبة.

لذا، من المهم أن نعرف مبادئ القياس وأدواته واستخداماته. وسيستكشف هذا الملف تاريخ القياسات وتطورها وتطبيقاتها وأدواتها في بعض المجالات".

أداة قياس تعود إلى مصر القديمة.

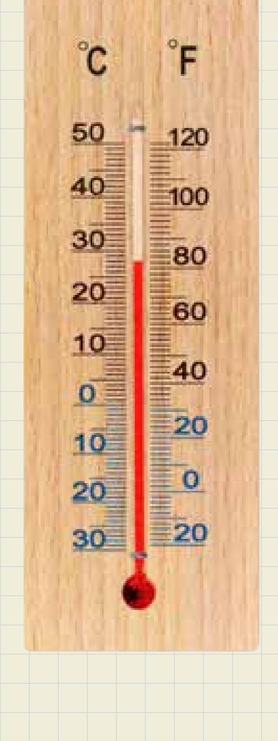
يرجِّح علماء الأنثروبولوجيا أن ظهور القياس وأدواته يعود إلى بداية التجارة، وذلك تحت ضغط الحاجة إلى تقدير قيمة الأشياء بدقة. ولكن بعض العلماء يردُّ القياس إلى بدايات العصر الزراعي في الألف الثامن قبل الميلاد. إذ إن الزراعة تفترض وجود مسافات محددة ما بين البذور أو الشتلات كي تنمو وتصح. ولربما كان ذلك أول أشكال القياس شبه الدقيقة التي اعتمدها الإنسان، ولكن من دون أي نظام دقيق طبعًا، بل كان أقرب إلى القياس الفطري الذي اعتمده الإنسان القديم في الصيد ما بين العصر الحجري القديم والألف العاشر قبل الميلاد، حين كان يجب عليه تقدير المسافات ما بينه وبين الطرائد. ورغم كل التطور الحضاري الذي حصل خلال آلاف السنين، فإن آثار تلك الأشكال البدائية في قياس المسافات لا تزال حية على ألسنتنا. ألسنا نحن مَن يقول: "على مرمى حجر"؟

المؤكد أن قياس الأوزان والمسافات تلقّى دفعًا كبيرًا وتطورًا هائلًا مع نشوء التجارة المحلية والدولية في الحضارات القديمة وما بينها. فظهرت في الألف الرابع والثالث قبل الميلاد أولى أنظمة القياس في بلاد ما بين النهرين ووادي السند ومصر. ومنذ ذلك التاريخ الغابر حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، كان لكل مجتمع نظامه الخاص للقياس ووحداته المختلفة حتى عن أقرب البيئات إليه. ومعظم وحدات القياس القديمة كانت مستمدة من أبعاد جسم الإنسان، مثل: الإصبع والشبر والباع والقامة والذراع والقدم... ولذا كانت هذه المقاييس تختلف ولو بشكل طفيف من بيئة إلى أخرى، وحتى من شخص إلى آخر.

ظهور النظام المتري

في القرن الثامن عشر الميلادي، كانت التجارة الدولية قد بلغت، حجمًا ونشاطًا، مستوًى غير مسبوق في ضخامته. وباتت الحاجة ملحة إلى توحيد المقاييس وأدواتها. وفي باريس، اقترح أحد قادة الثورة وهو "تاليران" على الجمعية الوطنية الفرنسية وضع نظام جديد وموحَّد للمقاييس. فشكلت أكاديمية العلوم عام 1791م لجنة لتولي هذه المهمة. وفي عام 1799م، توصلت اللجنة إلى تحديد طول قياسي أسمته "المتر"، وتمثَّل بقضيب من معدن البلاتين في درجة حرارة مئوية تبلغ صفرًا، وقطعة قياسية من البلاتين لتكون "الكيلوغرام".

وتوسَّع النظام المتري، الذي هو نظام للقياس العشري بالاعتماد على ثوابت فيزيائية مستمدة من الطبيعة، بحيث بات يتضمن سبع وحدات للقياس هي: المتر للطول، والكيلوغرام للكتلة، والثانية للزمن، والأمبير لشدة التيار الكهربائي، والكلفن لدرجة الحرارة، والشمعة لشدة الضوء، والمول لمقدار المادة.



وعلى المنوال نفسه، ضُبِط اللتر كوحدة إضافية لقياس الحجم. وهو من وحدات القياس القديمة، وكان يساوي أقل بقليل مما يساويه حاليًا، فأصبح عبارة عن كيلوغرام من الماء في درجة حرارة تبلغ 4 درجات مئوية، لأن الماء يكون مكثفًا حتى أقصى حد عند هذه الحرارة.

وبتطور العلوم في القرنين التاليين، ظهرت وحدات قياس مركَّبة من اثنتين أو ثلاث من الوحدات الأساسية، مثل: متر/ ثانية للسرعة، أو متر/ثانية مربعة للتسارع، أو كيلوغرام/متر مكعب للكثافة.

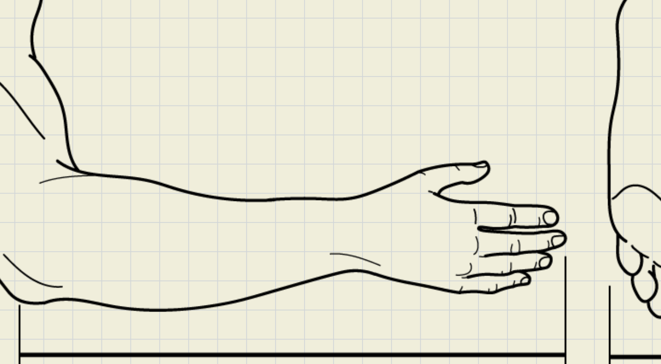
ونظرًا لدقة المقاييس في هذا النظام، وسهولة احتساب مضاعفاتها وكسورها، أصبح لاحقًا النظام المعمول به في معظم دول العالم، ما عدا الولايات المتحدة الأمريكية، وهي الدولة الصناعية الوحيدة في العالم التي لا تزال تعتمد نظام القياس الإنجليزي القديم المعروف باسم "النظام الإمبراطوري"، علمًا أن بريطانيا نفسها تحوّل تدريجيًا إلى النظام المتري، مع استخدام محدود للنظام القديم على المستوى الرسمي والشعبي.



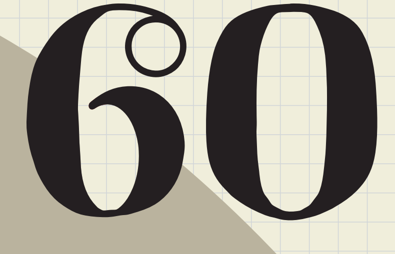
نظام القياس الإمبراطوري

يُعرف هذا النظام أيضًا باسم النظام الإنجليزي للوحدات، الذي ضُبط رسميًا في عام 1824م، وجرى تنقيحه أكثر من مرة لاحقًا. وقد شاع استخدام هذا النظام في المستعمرات البريطانية والبلدان الأنجلوسكسونية حتى أواسط القرن العشرين، عندما راحت كل المستعمرات تتحرر وتتبنى النظام المتري.

يعتمد هذا النظام وحدات بعضها مستمد من مقاييس جسم الإنسان ومضاعفاتها، مثل القدم التي تساوي 12 إنشًا، والذراع (الياردة) التي تساوي 3 أقدام، والسلسلة التي تساوي 22 ياردة، والميل الذي يساوي 80 سلسلة، والليغ الذي يساوي 3 أميال.







أهمية العددين 10 و60 في القياسات العلمية

نسأل الذكاء الاصطناعي عن مدى أهمية العدد 60 من بين كل الأعداد في التطبيقات العلمية، فيجيب:

"العدد 60 هو أساس نظام العد الستين. وضعه السومريون في الألفية الثالثة قبل الميلاد، وأخذه عنهم البابليون في وقت لاحق. ولهذا النظام عدد من الأفضليات على النظام العشري الذي نستخدمه اليوم. إذ يتولد عنه كسور أقل، ويمكن تحليله (قابليته للقسمة) إلى 12 عددًا وهي: 1، 2، 3، 4، 5، 6، 10، 12، 15، 20، 30، 60.

استُخدِم النظام الستيني لقياس الوقت والزوايا والإحداثيات الجغرافية. وعلى سبيل المثال، فإننا لا نزال نقسِّم اليوم إلى 24 ساعة، وكل ساعة إلى 60 دقيقة، وكل دقيقة إلى 60 ثانية. كما نقسم الدائرة إلى 360 درجة، وكل درجة إلى 60 دقيقة، وكل دقيقة إلى 60 ثانية. وهذه التقسيمات هي ملائمة عند إجراء الحسابات لخلوِّها من الكسور.

وكان نظام العد الستيني مفيدًا لعلم الفلك؛ إذ سمح للعلماء القدامى برسم خريطة السماء، ومتابعة مسارات الأجرام السماوية.

واختار البابليون العدد 360 لدرجات الدائرة، وذلك لقربه من عدد أيام السنة، وبالتالي لحركة الشمس الظاهرية في مدارها. وقسموا مسار الشمس إلى 12 برجًا، يغطي كل واحد منها 30 درجة. وقد ساعدهم نظام العد هذا



المبنى السابق لمكتب الأوزان والمقاييس في مدينة لندن.



الأونصة والقيراط خارج النظامين

ومن بين وحدات القياس المستقلة عن النظامين المتري والإمبراطوري، نذكر الأونصة التي هي من أقدم وحدات القياس التي لا تزال تحمل الاسم نفسه اليوم. ومن المعروف أن هناك نوعين أساسين من الأونصات: الأونصة المعتمدة في النظام الإمبراطوري المسماة "أونصة الأوزان الدولية" وتعادل 28.3495231 غرام، والأونصة المعتمدة في وزن الذهب والمسماة "أونصة تروي" وتعادل 31.1034768 غرام. ولكن ما لا يعرفه كثيرون أن الأونصة الهولندية تعادل 100 غرام، والإسبانية 28.75 غرام والصينية 50 غرامًا.

أمَّا القيراط، الذي يعود اسمه إلى بذرة الخَرُّوب التي كانت قديمًا مستخدمة كوحدة قياس، فقد ثُبِّت بما يعادل 0.2 غرام. وقد أُخضع القيراط الذي يُستخدم في قياس الأشياء الثمينة جدًا مثل الألماس والأحجار الكريمة، للتجزئة وفق النظام المتري إلى مائة جزء، ولكن هذه الأجزاء لا تزال حتى اليوم من دون أسماء محددة، أي إنه لا يوجد ملليقيراط، ولا سنتيقيراط.

10

في إجراء حسابات رياضية مكَّنتهم من توقع كسوف الشمس، وتحديد مواقع الكواكب وبعض الظواهر الفلكية الأخرى.

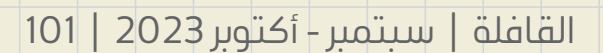
وقد كان للنظام الستيني أثره الواضح على العلوم والثقافات عبر التاريخ. فقد استخدمه الإغريق والرومان والعرب والصينيون والهنود والأوروبيون في حقول مختلفة مثل: الرياضيات وعلم الفلك والتنجيم والإبحار والموسيقى ووضع التقاويم. ولا يزال مستخدمًا اليوم في مجالات متخصصة مثل قياس الوقت ووضع الإحداثيات الجغرافية".

وماذا عن أهمية العدد 10 من بين كل الأعداد؟ يُجيب الذكاء الاصطناعي:

"إن أهمية العدد عشرة والنظام العشري مرتبطة بتاريخ الرياضيات والعلوم والتكنولوجيا وتطورها. فالعدد عشرة الذي هو عدد أصابع اليدين عندنا، هو أيضًا أساس النظام العشري. وهذا ما يسهل علينا العدَّ وإجراء العمليات الحسابية بشكل طبيعي. ويستخدم النظام العشري 10 رموز (0، 1، 2، ... 9) لتمثيل أي عدد، وتتضاعف قيمة كل رقم ضمن العدد عشر مرات وفق موقعه من الرقم السابق له.

ويُستخدم النظام العشري على نطاق واسع للقياسات في العلوم والتكنولوجيا والنقد والكمبيوتر والاتصالات. ويسمح لنا بالتعبير عن حقيقة أي كمية بدقة، من خلال استخدام الكسر أو الأعشار. فعل سبيل المثال يمكننا أن نقيس طول شيء بالأمتار، أو السنتيمترات أو المليمترات، أو أن نعبِّر عنه من خلال "المتر فاصلة كذا" فقط. كما يمكننا أن نحوِّل المقاييس بسهولة من خلال ضربها بعشرة. فللتحويل من الكيلومتر إلى المتر يكفي أن نضرب بعشرة ثلاث مرات.

ويمتاز النظام العشري عن النظام الستيني، بأنه يتوافق مع النظام الثنائي (وقاعدته 2)، والنظام الستة عشري (وقاعدته 16)، المستخدَمَين في الكمبيوتر والبرمجة. فالنظام الثنائي يستخدم الرقمين 0 و1 فقط لتمثيل أي رقم، والنظام الستة عشري يستخدم الأرقام من 0 إلى 9 والأحرف الستة الأولى من الأبجدية لتمثيل أي رقم".





المليار لم يعد كثيرًا ولا النانو صغيرًا

عند وضع النظام المتري في عام 1795م، لم يجد العلماء معطيات تدفعهم إلى التفكير بمضاعفات "الواحد" التي تتجاوز ثلاثة أصفار تكبيرًا وتصغيرًا (تُسمى سوابق). وهكذا تبنوا ستة فقط: الواحد، والعشرة (الديكا)، والمائة (الهكتو)، والألف (الكيلو)؛ ومن الأجزاء: العُشر (الديسي)، والجزء من المائة (السنتي)، والجزء من الألف (المللي).

الذين هم اليوم في الستينيات والسبعينيات من أعمارهم، يذكرون جيدًا، أن أكبر المقاسات التي سمعوا بها في طفولتهم هو المليون، ومن سمع بالمليار تعامل معه وكأنه شيء ينتمي إلى عالم الشِعر والخيال. أمَّا المللي فقد كان أصغر مقياس في العالم! ثم أطلَّ التريليون عبر وسائل الإعلام، وغالبًا ما كان ذلك من خلال الحديث عن اقتصادات الدول الغنية. وبعد

تيلسكوب جيمس ويب، الذي قدم صورًا عالية الدقة للفضاء.

في زمن تطور أدوات القياس بشكل غير مسبوق، تستمر الأخطاء في احتساب المقاييس على أعلى المستويات العلمية، والنتائج دومًا كوارث اقتصادية وخسائر فادحة حتى في الأرواح.

التريليون أطلَّ قبل نحو عقدين من الزمن "النانو" الذي استفزَّ الخيال بصغره البالغ واحدًا على مليار من المتر، أي واحد على مليون من الميللي.

فتطوُّر العلوم والاكتشافات والنمو المطَّرد لكافة أوجه الحياة (بما فيها الاقتصادات)، راح يزجُّ في لغة العامة بأرقام ومقاسات غير معهودة سابقًا. فالفيزياء النووية راحت تغور في عالم في منتهى الصغر، وتضع مقاسات هي أقرب إلى أن تكون نظرية غير قابلة للضبط بواسطة أي أداة. والفيزياء الفلكية ذهبت في الاتجاه المعاكس لتضخِّم المقاسات المتبناة رسميًا من قبل "المؤتمر العام للأوزان والمقاييس".

ففي عام 1960م، عندما تبنّى هذا المؤتمر "الميكرو" و"النانو"، تبنى في الوقت نفسه "البيكو" الذي هو جزء من تريليون. وبعد أربع سنوات عاد ليتبنى وحدتين أصغر هما "الفيمتو" (جزء من كدريليون)، و"الأتو" (جزء من كوينتيليون).

وفي عام 1991م، تبنى المؤتمر وحدتي قياس أصغر من ذلك (بما لا يقاس!) هما "الزيبتو" (جزء من سكستيليون)، و"اليوكتو" (جزء من سبتيليون). وفي الاتجاه المعاكس، أي تضخم المقاييس ووحداتها، استمر المؤتمر في تبني وحدات أكبر وأكبر حتى عام 1991م، عندما أقر تسمية "يوتا" كسابقة للسبتيليون الذي يُكتب على شكل واحد و24 صفرًا. أي أن اليوتامتر يساوي مليون مليار مليار متر، أو ألف مليار مليار كيلومتر. (تكرار كلمة مليار ليس خطأ).

عندما يتضارب نظامان للقياس النتيجة تكون كارثة

في شهر مايو من عام 2014م، دَوَّت في فرنسا فضيحة صناعية شهيرة، وخلاصتها أن الشركة الوطنية للسكك الحديدية اكتشفت أن 2000 قطار جديد أوصت عليها واكتمل تصنيعها، هي أعرض من أن تتمكن من المرور بين منصات إنزال الركَّاب في بعض المحطات. وبعد جدل وأخذ ورد، تقرر توسيع المجال في هذه المحطات بكلفة بلغت أكثر من 40 مليون يورو.

والتلسكوب الفضائي "هابل"، الذي يُرسل اليوم صورًا رائعة للفضاء الخارجي، كاد يتحول برمته إلى خسارة فادحة، إذ إن الصور الأولى التي أرسلها إلى الأرض كانت غير واضحة ومشوشة إلى حدٍّ كبير، لأن مرآته كانت مفلطحة أكثر من اللازم. وتبين أن ذلك يعود إلى طبقة رقيقة جدًا من الطلاء كانت على إحدى أدوات قياس المرآة، فنتج عن ذلك خطأ في تصنيعها بمقدار 2.2 ميكرون، أي واحد على خمسين من قطر شعرة إنسان. ولحسن الحظ، تمكن العلماء في عام 1993م من تصحيح ذلك بواسطة تعديل جهاز استقبال الصور على الأرض بشكل يمكنه من التعامل مع المرآة على التلسكوب على أنها هي الصحيحة.

الأخطاء في أخذ القياسات محتملة وفي كل المجالات، ولكل منها ثمنه. ولكن أخطرها على الإطلاق هي تلك التي تنجم عن الخلط بين أنظمة القياس المختلفة. ونجد على شبكة الإنترنت عدة أمثلة على ذلك.

ففي عام 1999م، تحطمت طائرة شحن تابعة للخطوط الجوية الكورية الجنوبية كانت في رحلة من شنغهاي إلى سيول، بسبب سوء تفاهم ما بين برج المراقبة والطيَّار حول مقدار ارتفاع الطائرة. فالبرج استخدم الأمتار، في حين أن الطيَّار تعامل مع الرقم نفسه على أنه بالأقدام؛ ما أدى إلى مقتل ثمانية أشخاص، وإصابة عشرات بجروح على الأرض.

وفي العام نفسه تحطمت عربة فضائية كانت وكالة الفضاء الأمريكية "ناسا" قد أرسلتها إلى المريخ، وهي تدخل الغلاف الجوي للكوكب. وتبين لاحقًا أن السبب في خسارة هذه العربة التي كلّفت 125 مليون دولار، هو خلل في التصنيع يعود إلى أن أحد الفريقين اللذين توليا تصنيعها اعتمد النظام المتري في إجراء الحسابات، في حين اعتمد الآخر النظام الإمبراطوري في جانب ما من جوانب هذه العربة.

وفي عام 1983م، نفد الوقود على متن طائرة تابعة للخطوط الجوية الكندية في منتصف رحلتها الجوية. وكانت تلك الرحلة هي الأولى لطائرة كندية بعد التحوُّل من النظام الإمبراطوري إلى النظام المتري. فعند تعبئة الطائرة بالوقود، دلَّت أجهزة القياس إلى رقم محدد بالباوند، واعتقد الطيَّار أن الرقم هو باللتر، أي أنه انطلق في رحلته وهو مزوَّد بنصف كمية الوقود اللازمة. ولكنه تمكن من الهبوط بالطائرة بسلام بسبب مهارته في الطيران الشراعي.

وعندما عثر علماء الآثار على هيكل السفينة الحربية "فازا" التي غرقت عند أول إبحار لها في القرن السابع عشر الميلادي، تبين أن هناك اختلافات كبيرة ما بين جانبيها الأيمن والأيسر. وفي التدقيق، تبين لهم أن فريقًا من صانعيها استخدم نظام المقاييس الهولندي، والفريق الآخر استخدم المسطرة السويدية.

أمّا أشهر الأمثلة على الأخطاء التاريخية الناجمة عن الخلط بين نظامين للقياس، فنجده عند كريستوف كولومبوس الذي اعتقد أن الميل العربي هو نفسه الميل الروماني الأصغر بكثير. وعندما استخدم هذا الأخير لإجراء حساباته حول محيط الأرض، كانت النتيجة أن بلغ قطر الأرض عنده 25% فقط من القطر الحقيقي. ولهذا تململ بحّارته من الطول غير المتوقع للرحلة وفكّروا في أن يقتلوه، ولهذا أيضًا وصل إلى الباهاماس بدلًا من الهند.



والإشكالات لا تزال قائمة

بعد أكثر من قرنين من الجهود لتوحيد وحدات القياس، يبقى لألسنة العامة أنظمتها الخاصة بالقياس التي لا تعترف لا بالمتري ولا بالإمبراطوري. فكما كان الجغرافيون والمؤرخون القدامى مثل ياقوت الحموي والطبري يقيسون المسافات الجغرافية بين المدن بعدد الليالي التي يمضيها المسافر ما بينها، كثيرون منا ما زالوا يعبِّرون اليوم عن المسافة بوحدات الوقت بدل الكيلومترات، مثل القول إن الدمّام تبعد عن الرياض 4 ساعات بالسيارة، أو تبعد عن نيودلهي ثلاث ساعات ونصف ساعة بالطائرة.

وإضافة إلى ذلك، لا تزال وحدات قياس قديمة حية حتى اليوم، ولكل منها قيمته الخاصة في كل بيئة على حدة. فالرطل، الذي يشير في القاموس إلى وحدة الوزن الإمبراطورية "الباوند" التي تعادل 453 غرامًا، لا يزال مستخدمًا في الأرياف الشامية حيث يعادل 2500 غرام، أما في مصر فيعادل 449.28 غرام. والقنطار الذي جرى تثبيت معناه في عام 1800م، بأنه 100 من أية وحدة أساسية مثل الرطل أو الكيلوغرام، فهو في مصر يساوي 99.05 كيلوغرام. وفي النظام الإمبراطوري يوجد قنطاران: القنطار القصير الذي يبلغ 100 باوند (ويُستخدم في الولايات المتحدة وكندا)، والقنطار الطويل الذي يساوي 112 باوندًا (ويُستخدم في المملكة المتحدة).

ونكتفي بهذا القدر من الغوص في تفاصيل أنظمة القياس؛ لأنها موجودة بكل تفاصيلها على شبكة الإنترنت حيث يمكن للراغب الاطلاع على كل ما يمكن أن يخطر بباله بشأنها.



صورة متخيلة لياقوت الحموي، الذي كان يقدر المسافات في أسفاره بعدد الليالي.

أدوات القياس
المسطرة، الساعة.. الانزياح الأحمر
الميزان وحده ابتُكر لدواعٍ أخلاقية

من أداة القياس الأولى التي ابتكرها الإنسان القديم، والتي نتخيلها وعاءً من الخشب متفقًا على حجم محتواه بين سكان أهل القرية لكيل الحبوب، إلى أجهزة قياس المسافات بواسطة الليزر، لم تتوقف أدوات القياس عن التطور، مستفيدة من تطور المعارف العلمية، ولتغذي بدورها هذه المعارف.

فلو أخذنا الميزان مثلًا، لوجدنا على صفحات "ويكيبيديا" طرزًا عديدة من الموازين بدءًا بالميزان ذي الكفتين الذي كان مستخدمًا في مصر في أواسط الألف الثالث قبل الميلاد، ووصولًا إلى الموازين الإلكترونية التي راجت تجاريًا منذ أواسط القرن الماضي. وما بين ذاك وهذا، هناك الميزان القباني الذي ابتكره الرومان، ومجموعة الموازين الميكانيكية التي ظهرت وتطورت في القرن الثامن عشر الميلادي وتشمل الميزان ذا الذراع، والميزان الزنبركي (النابض)، والميزان ذا المؤشر.

وينطبق الأمر نفسه على أدوات قياس الزمن: الساعات، التي تطورت من المزولة الشمسية إلى الساعة الرملية، فالساعة الميكانيكية، فساعة الكوارتز العاملة بالطاقة الكهربائية، وصولًا إلى الساعات الرقمية الرائجة اليوم، خاصةً في صفوف الشباب. وشهد جيلنا نفسه تطور أدوات قياس حرارة الجسم، من أنبوب زجاجي يعمل بواسطة الزئبق، إلى أنبوب يقيس مقدار الحرارة رقميًا، وصولًا إلى ما شهدناه في زمن الكورونا من أجهزة متطورة تستشعر حرارة الجسم عن بُعد.

أدوات القياس تطوَّرت مع تطوُّر العلم، كما أسهمت بدورها في تطوُّره. وقد صار كثيرٌ منها اليوم يعتمد على التقنية الرقمية.



لكل علم قياسه

إضافة إلى معناه المستهدف في هذا الملف، والمقصود بذلك القياس الفيزيائي، تحمل مفردة القياس معاني مختلفة في علوم أخرى. نورد بعضها هنا مما وجدناه في معجم اللغة العربية المعاصرة:

قِياس

مفرد، وبالجمع: قياسات (لغير المصدر) وأقْيسة (لغير المصدر):

• مصدر قاسَ وقايسَ.

• ما يُقاس به "قياس الحرارة/ سُرعة"، بالقياس إلى كذا/ قياسًا على كذا: بالمقارنة به.

في الفقه: حَمْلُ فرْعٍ على أصل لعِلَّة مشتركة بينهما كالحُكم بتحريم شراب مُسْكر حَمْلًا على الخَمْر لاشتراكهما في عِلَّة التَّحريم وهو الإسكار.

في اللغة: ردُّ الشَّيء إلى نظيره وذلك بصياغة كلمات على أنماط كلمات أخرى موجودة "اعتمد النحاة على القياس في تقعيد قواعد النحو".

• في علم النفس: عمل عقليٌّ يترتَّب عليه انتقال الذِّهن من الكليِّ إلى الجزئيِّ المندرج تحته، كما إذا انتقل الذِّهن من مفهوم أن زوايا كلِّ مثلث تساوي زاويتين قائمتين إلى أن زوايا هذا المثلث المرسوم أمامي الآن تساوي زاويتين قائمتين.

• قيَّاس صيغة مبالغة من قاسَ.

قياسيٌّ

اسم منسوب إلى قِياس.

• أعلى درجة من الشيء "سجَّل اللاعبُ رَقْمًا قياسيًّا في الأهداف - وصلت المبيعات أرقامًا قياسيَّة". غير قياسيٍّ: غير متوافق مع المبادئ، في وقتٍ قياسيٍّ: في مدَّة قصيرة أقلَّ مما يُتوقَّع.

• ما هو مُطابق لنموذج مُعيَّن من الأشياء المتماثلة "قِطعٌ قياسيَّةٌ - مصدرٌ قياسيٌّ"، مواصفات قياسيَّة: معايير مُثْلى مُعتمَدة عالميًّا. الرَّقمُ القياسيُّ: هو في الرياضة الرَّقم الذي يتفوَّق به المتباري على من سبقه، وهو يُسجَّل باسمه إلى أن يتفوَّق غيره عليه.

قياسيَّةٌ

• اسم مؤنَّث منسوب إلى قِياس: "مواصفاتٌ قياسيَّةٌ".

• مصدر صناعيٌّ من قِياس: معياريَّة، إمكانيَّة دخول الشيء تحت القاعدة العامَّة المطَّردة "عناصر قابلة لقياسيَّة ما - قام بدراسة بعض الألفاظ من حيث صحَّتها ومدى قياسيَّتها".

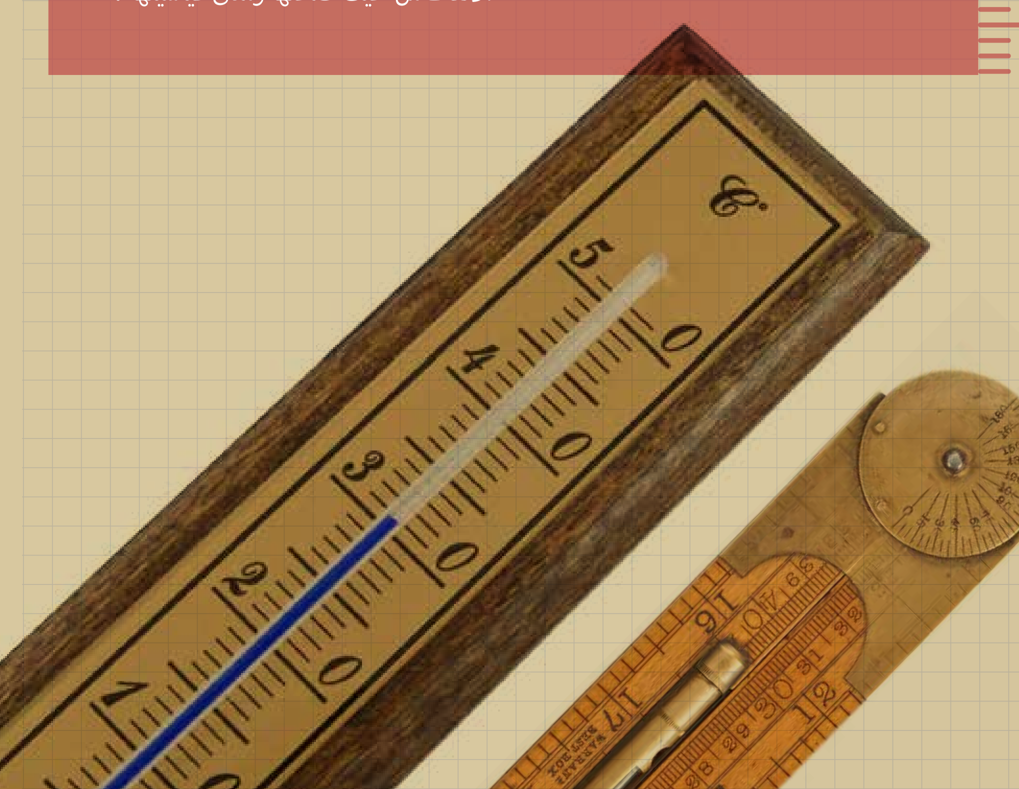


وقد أدى تطور العلوم إلى استنباط أدوات قياس بعضها على تماسٍ ما مع الحياة اليومية للنــاس، وبعضها يبقى أسير المختبرات العلمية حيث يردّ الجميل إلى العلم الذي ابتكره، بتغذيته وتوسعة آفاقه.

البارومتر لقياس الضغط الجوي، والمغناطومتر لقياس القوة المغناطيسية، واللكسومتر لقياس قوة الإضاءة، والهيغرومتر لقياس الرطوبة... وصولًا إلى الانزياح الأحمر، الذي أصبح مقياسًا لتحديد أبعاد النجوم والمجرّات عنا، من خلال انزياح طيف الضوء الصادر عن كل منها من الأصفر إلى الأحمر إذا كان يبتعد عنا، أو إلى البنفسجي إذا كان يقترب من الأرض، وبقياسه يستطيع العلماء احتساب المسافات الكونية وحركة الأجرام السماوية.

وإن كانت كل أدوات القياس هذه تؤدي وظائف لا غنى عنها لمن يحتاجها، وبالتالي لا مجال لمقارنة أهمية الواحدة بالأخرى، فثمة ملاحظة تؤكد أن بعضها تغلغل في الحياة اليومية للناس أكثر من غيره، واكتسب دلالات ثقافية وحضارية أكثر. ولكن أيها؟

أهي الساعة التي تقيس الوقت ولا تفارق معصمنا، ونتطلع إليها عشرات المرَّات يوميًا لنقرر ما سنفعله لاحقًا، أم هي المسطرة التي قاست الأطوال المناسبة لكل ما هو حولنا من الملابس التي نرتديها إلى البيوت التي نسكنها، فكانت بذلك الصائغة الخفية للشكل الصحيح والمناسب في كل ما ينتجه الإنسان (باستثناء الزراعة)، أم هو الميزان؟



الميزان وأثر نشأته لدوافع أخلاقية

من بين كل أدوات القياس تغلغل الميزان في ثقافات الشعوب أكثر بمراحل من غيره. ويعود ذلك إلى أنه أداة القياس الوحيدة التي ابتكرها الإنسان لدوافعٍ أخلاقية. فقد وِلد من رحم التجارة، هذا المِيدان الذي يتأرجح فيه النشاط بين النزاهة والخداع. فلكي تستقيم التجارة، على الميزان أولًا أن يكون هو نفسه سليمًا، ومن ثَمَّ يكون استخدامه كذلك. وبتساوي ارتفاع كفَّتيه في الميزان التقليدي يتحقق التوازن، الذي صار مرادفًا لقيمتي العدل والإنصاف والحياد. ولذا، لا غرو في أن يدخل اسم الميزان عالم اللغة للدلالة على مجموعة كبيرة من القيم المعنوية والأخلاقية، وأن يحضر في الفنون والآداب كأداة تقييم لكثير من الأمور، من دون استخدام وحداته القياسية المستخدمة في الفيزياء.

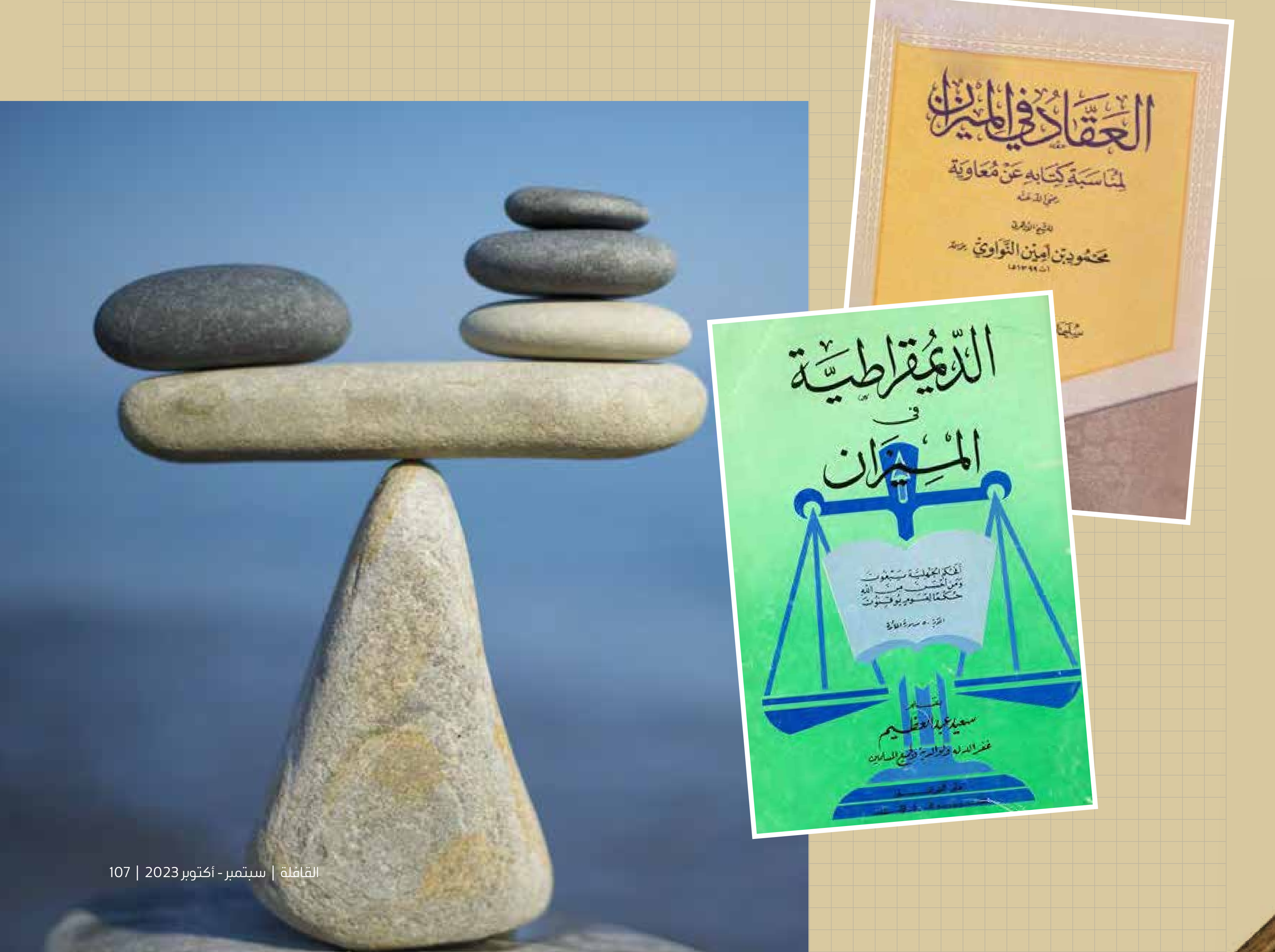
ففي عالم الكتاب، هناك من وضع "العقَّاد في الميزان" على غلاف كتابه، وآخر وضع "الديمقراطية في الميزان"... ومثل هذه المؤلفات غالبًا ما تكون من باب النقد والتقييم.

وفي عالم الأمثال الشعبية، يصرُّ الجميع على أن "درهم وقاية خيرٌ من قنطار علاج"، علمًا أن لا أحد يعرف المقدار الدقيق لوزن الدرهم ولا القنطار، بل يكفي أن الأول "قليل" والثاني "كثير".

وفي عالم الشعر، وزَن الفرزدق رزانة أحلامه بالجبال: "أحلامنا تزن الجبال رزانةً...". فضلًا عن أن كل الشعر العربي الكلاسيكي منظوم على البحور الشعرية وهي ذات أوزان محددة.

وفي اللغة، فإن المصادر المشتقة من الأفعال الرباعية والخماسية والسداسية تُصاغ على أوزان معلومة.

الميزان هو أداة القياس الوحيدة التي ابتكرها الإنسان لدواعٍ أخلاقية، ولذا اكتسب دلالاتٍ رمزية وتغلغل في الثقافات أكثر من غيره.



لوحة "استمرارية الوقت"، للفنان الإسباني سلفادور دالي.

في الفن
الغلبة للميزان ومن ثَمَّ للساعات

يمكن للحديث عن حضور أدوات القياس في الفن أن يبدأ من الآخر، من إحدى أشهر اللوحات المعاصرة ألا وهي لوحة الفنان السوريالي الإسباني سلفادور دالي "استمرارية الوقت"، التي رسمها في عام 1931م، والتي تُعتبر أقوى تمثيل لرؤية خاصة لقياس الوقت. رسم دالي لوحته هذه للسخرية من قياس الوقت بشكل "كرونومتري". فعلى مقربة من أحد شواطئ كاتالونيا التي تظهر في لوحات عديدة أخرى لهذا الفنان، نرى في هذه اللوحة عددًا من الساعات التي تشبه قطع الجبنة الذائبة، ما يجعلها غير صالحة لقياس الوقت كما يراه الفنان وفق مفهومه الخاص لماهية الوقت والزمن. كما أن الضوء الذي يغمر اللوحة يبدو كضوء الفجر والغسق في الوقت نفسه. ولـ"دالي" نفسه مجسمات معدنية تظهر فيها الساعات بهذا الشكل المائع.

بالعودة إلى الماضي، يمكننا الجزم أن الساعات كانت من أكثر أدوات القياس حضورًا في تاريخ الفن منذ عصر النهضة حتى اليوم. واتخذ هذا الحضور بشكل عام طابعين: فإمَّا هو جزء من المشهد البصري ليس أكثر، مثل الساعات التي نراها على الجدران وساعات الجيب التي يُمسك بها الشخص المرسوم، وإمَّا ساعات رملية غالبًا ما تكون مضافة إلى المشهد للتحذير من عواقب الزمن، وللإشارة إلى الحياة الفانية.




لوحة تصوِّر عالم الفلك نيكولاس كراتزر.

ولكن منذ القرن السادس عشر الميلادي، عندما راحت تتشكل شريحة اجتماعية جديدة من العلماء الناجحين اجتماعيًا والمتمكنين ماليًا ليطلبوا إلى الفنانين أن يرسموا صورهم الشخصية، عمد هؤلاء الفنانون إلى رسم الأدوات العلمية ومعظمها من أدوات القياس التي يستخدمها هؤلاء، من باب توقير مهنتهم وللدلالة عليها. ومن الأمثلة على ذلك صورة عالم الفلك "نيكولاس كراتزر"، التي رسمها صديقه الفنان الهولندي "هانز هولباين الابن"، وهي لوحة تعج بأدوات القياس أكثر من أي لوحة أخرى. إذ نرى في هذه اللوحة الرجل يمسك بيده مزولة شمسية من الخشب متعددة الوُجيهات لم ينتهِ من صناعتها، وخلفه نرى قوسًا نجميًا كان يُستخدم لقياس الزوايا حتى 90 درجة، وأداة أخرى كانت تُسمى "مزولة الراعي" لقياس ارتفاع الشمس، وعلى الجدار أيضًا مجموعة كبيرة من المساطر المختلفة.

وبين عامي 1668م و1669م، رسم الفنان الهولندي "فيرمير" لوحتين: إحداهما تمثل "الجغرافي"، والثانية "الفلكي". وللدلالة على مهنة كل منهما، وضع أمام الفلكي مجسمًا للكرة السماوية، في حين وضع في يد الجغرافي بيكارًا لقياس المسافات. وفي البحث عن هوية الشخص المرسوم لهاتين الوظيفتين، رجَّح الباحثون أن يكون الجغرافي أنتوني فان ليوينهوك الذي يظهر ممسكًا بالبيكار نفسه في لوحة رسمها يان فيركولجي بعد عشرين سنة من لوحتي فيرمير.

شغف العالم بالقياسات
موسوعة غينيس للأرقام القياسية

من جدل دار في عام 1951م بين رجلين خلال رحلة صيد حول أسرع طير يُستخدم للرماية، ظهرت فكرة إطلاق كتاب تحوَّل إلى أكثر الكتب مبيعًا في التاريخ المعاصر. فأحد هذين الرجلين هو رجل الأعمال البريطاني السير "هيو بيفر" الذي خطر له إعداد كتاب يتضمن الأرقام القياسية لأشياء مختلفة، لحسم النقاشات التي كانت كثيرًا ما تدور في الحانات والمقاهي والمدارس. وبالفعل، فقد كلَّف اثنين من العاملين لديه بإعداد هذا الكتاب، وتوثيق الأرقام المؤكدة. وفي عام 1955م، تجسَّدت الفكرة وظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب الذي أصبح الأكثر مبيعًا خلال أربعة أشهر فقط.

يتضمن هذا الكتاب مقاسات وأرقامًا هي الأكبر في مجالات مختلفة ومن هم أصحابها، مثل: الحيوانات والفن والرياضة والتربية والهندسة وجسم الإنسان والألعاب والطعام والمشروبات والنقل... وغيرها. ولكي يدخل بندٌ ما إلى هذه الموسوعة، يجب أن تكون الصفة أو الإنجاز قابلًا للقياس بدقة.

وبفعل شغف الإنسان بالقياس واليقين الناجم عن دقة القياس، خاصة إذا كانت حصيلة هذا القياس كبيرة أو غير مألوفة، حقق هذا الكتاب، ولا يزال، نجاحًا عالميًا منقطع النظير. فصار يصدر سنويًا بأكثر من 40 لغة، ويُطبع في 100 دولة، ويُباع منه سنويًا ما معدَّله 3.5 مليون نسخة.

ويقول الذكاء الاصطناعي عن هذا الكتاب: "إن كتاب غينيس للأرقام القياسية ليس مجرد مصدر معلومات وترفيه، بل هو أيضًا منصة كي يتحدى الناس أنفسهم ويُظهروا قدراتهم. إنه بيان بما يمكن أن تصل إليه قدرات الإنسان، وبتنوع أوجه الحياة على الأرض".

ميزان المواد وميزان العدالة

والواقع أن هناك عوامل كثيرة ساعدت على تفشي حضور أدوات القياس في الفن، منها تكاثر الرحلات البحرية الاستكشافية، وتحرر العلماء من قبضة القيود التي كانت تفرضها الكنيسة، وازدهار التجارة العالمية. وكان لهذا العامل الأخير الدور الأكبر في الزج بالميزان في تاريخ الفن. فظهر في فن الرسم نوعان منه: ميزان المواد وميزان الأفعال.

ميزان المواد

في عام 1663م، رسم الفنان الهولندي فيرمير إحدى أشهر لوحاته: "امرأة تمسك بميزان". ونرى في هذه اللوحة الموجودة اليوم في المعرض الوطني للفنون في واشنطن، امرأة تمسك بميزان صغير وقد رفعته عن الطاولة لتستكشف وزن لؤلؤة. ورغم صغر حجم هذا الميزان، فإن اسمه حاضر في عنوان اللوحة؛ لأنه محور الحدث والموضوع.

وهنا قد يبرز السؤال: لماذا كل هذه الأمثلة هي من هولندا؟ والجواب هو ذو شقَّين: أولًا بسبب انتصار الفلسفة البروتستانتية في أوروبا الشمالية، التي وقَّرت العمل في العلوم خلافًا للفلسفة القديمة. وثانيًا التطوُّر الاقتصادي والاجتماعي. ففي عام 1602م أسست هولندا شركة "الهند الشرقية الهولندية" التي أدت إلى ازدهار تجارتها مع الشرق، وعرفت رخاءً اقتصاديًا غير مسبوق. فلمع نجم الميزان كأداة قياس وصار حاضرًا في الحياة اليومية كما في الأعمال التجارية. فبات من الطبيعي أن يظهر في بعض اللوحات التي تمثل مشاهد من هذه اليومية، كما هو الحال في ميزان فيرمير المشار إليه آنفًا، والذي هو مجرد ميزان لا وظيفة أخرى له ولا ينطوي حضوره على أي معنى مبطن.



"امرأة تمسك بميزان"، لوحة الفنان الهولندي فيرمير.



"المصرفي وزوجته"، لوحة للهولندي كوانتان ماتسيس.

يعود أقدم تمثيل للميزان بوصفه رمزًا للعدالة إلى مصر القديمة، حيث يظهر بكفتين في إحداهما قلب الميت وفي الأخرى ريشة الحقيقة.

ميزان العدالة والحساب

ولكن قبل فيرمير بنحو قرنٍ ونصفٍ، وتحديدًا في عام 1514م، رسم الهولندي كوانتان ماتسيس لوحته الشهيرة "المصرفي وزوجته"، التي تُسمى أيضًا "المرابي وزوجته" والموجودة حاليًا في متحف اللوفر، ونرى فيها رجلًا يمسك بميزان لوزن قطع عملة ذهبية، وبقربه زوجته. وهذه اللوحة هي أكثر من تمثيل لمشهد عادي من الحياة اليومية، إذ تتضمن موعظة أخلاقية. فعلى المرآة المستديرة الموجودة في مقدمة اللوحة نرى وجه رجل عجوز متجهم جاء ليستدين بعض المال (لا يمكنه أن يظهر في صورة مصغَّرة هنا). ولكن خلف المرابي نرى ميزانًا أكبر، رمزًا لحساب أكبر سيأتي لاحقًا. وفي هذا تحذير من الجشع وعاقبته في الآخرة.

ويعود أقدم تمثيل للميزان بوصفه رمزًا للعدالة والإنصاف إلى مصر القديمة. ففي كتاب الموتى الذي يصف الطقوس الجنائزية التي كانت يُعمَل بها منذ بداية المملكة الحديثة حتى سنة 50 تقريبًا قبل الميلاد، ثمة رسم يُظهر ميزانًا ذا كفَّتين، وُضع على إحداهما قلب الميت، وعلى الكفة الأخرى ريشة الحقيقة.

في القرآن الكريم والمجتمعات الإسلامية موازين معنوية وأخرى مادية

ورد الوزن وأداته الميزان في ثلاثة وعشرين موضعًا في القرآن الكريم، وغالبًا للترغيب بالعدل والاستقامة أو الترهيب من عواقب غلبة السيئات على الحسنات.
﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [الأعراف: 8].

﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: 105].

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47].

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون: 102].

كما وردت مفردتا الكيل والمكيال في أربعة عشر موضعًا للأمر والنهي والترغيب والترهيب من العبث بالمكيال. فقال تعالى:

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [هود: 85].

﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف: 65].

﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ [هود: 84].

ومن وحدات القياس التي وردت في القرآن الكريم، هناك القنطار:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: 14].

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء: 20].

وقد أولت كتب الفقه والسنة اهتمامًا كبيرًا بالأوزان والمكاييل، وتمكن الباحثون من جمع أسماء المكاييل التي كانت سائدة في البلدان الإسلامية حتى القرن التاسع عشر الميلادي، قبل التحول إلى النظام العشري. وبلغ عدد المكاييل القديمة نحو 30 مكيالًا، ووحدات الأوزان نحو 14 وحدة. وطبعًا لم تكن كل هذه الوحدات معتمدة في البيئة الواحدة.

فمن المكاييل القديمة، هناك: مُدُّ النبي (الذي يبلغ محتوى قبضة اليد غير المنقبضة ولا المنبسطة تمامًا) والصاع (ويبلغ أربعة أمداد بمُد النبي) والقسط والكَيْلجَة والختوم والصواع والسقاية والجام والمكوك والحجاجي والفرق والويبة والهشامي والقفيز والعرق والمكتل والمدي والإردب والجريب والوسق والكُرّ والقنقل والحلاب والعس والنصيف والسندرة والفالج والفلج والرطل والملحم...

ومن الأوزان التي كانت معتمدة في المجتمعات الإسلامية: القيراط والدانق والدرهم والدينار والنواة والنش والأوقية والرطل والمن والقنطار والبهار والمثقال. ونعرف أن بعض هذه الوحدات القياسية لا يزال مستخدمًا حتى اليوم، ولكن من المرجح أنه صار يدلُّ على غير ما كان يدلُّ عليه في مجتمعات أخرى، مثل القنطار الذي لا يزال مستخدمًا في مصر لوزن محاصيل القطن.

حتى في قياس وحدات الطول، كانت المفردة الواحدة تعني مقاييس مختلفة، وفق الاجتهادات العلمية والفقهية المختلفة. فالميل هو عند الحنفية 4000 ذراع، أي ما يساوي 1855 مترًا، وهو عند المالكية 3500 ذراع، أي أقل بـ500 ذراع. أمَّا عند الحنابلة والشافعية فهو 6000 ذراع، أي 3710 أمتار.

سيدة العدالة

أمَّا أشهر تمثيل للميزان في هذا المجال فهو فيما يُعرف في فنَّي الرسم والنحت باسم "سيدة العدالة"، الذي يصور العدالة على هيئة امرأة تمسك بيدها اليمنى سيفًا، وباليسرى ميزانًا لقياس الأفعال والعواقب وتحقيق التوازن بينهما. وأحيانًا تكون هذه المرأة معصوبة العينين؛ لأن الميزان يغني عن العينين ولا يتأثر بما قد تتأثران به.

وفي التفاصيل، أن "سيدة العدالة"، تعود في جذورها إلى "آلهة" العدالة جوستيسيا، التي أدخلها أغسطس قيصر إلى مجموعة الآلهة الوثنية الرومانية، وكان أول من بنى لها معبدًا. وبقيت "سيدة العدالة" لقرون من الزمن وهي تظهر على النقود وتُنحت لها التماثيل وهي تمسك بالسيف والميزان، أو بالميزان فقط. وفي القرن السادس عشر، ظهرت تماثيل سيدة العدالة ورسومها وهي معصوبة العينين. وكانت بداية الأمر من باب السخرية من العدالة التي لا ترى ما يجري من مظالم أمامها. ولكن قراءة عصب العينين تطورت لاحقًا وصار يرمز إلى الحيادية.

ومنذ القرن السادس عشر، راحت تماثيل "سيدة العدالة" تتكاثر، وتُرفع في الساحات العامة وأمام الأبنية الحكومية، وخاصة قصور العدل والمحاكم، وظهرت رسومها على بعض الأوراق النقدية الأمريكية في القرن التاسع عشر. كما أصبحت بسيفها وميزانها شعارًا لعدد من الأقاليم الأوروبية، مثل إلشوفن في بادن وورتنبرغ، ومدينة لاندسكرونا السويدية.



نحلم ونحقق
اليوم الوطني السعودي 93



امسح رمز الاستجابة
السريع لمشاهدة فيديو
"شواهد العز"



مجلة ثقافية منوعة تصدر كل شهرين - العدد 700 | سبتمبر - أكتوبر 2023





Qafilah website



Aramco LIFE

P. O. Box 1389 Dhahran 31311
Kingdom of Saudi Arabia

September | October 2023
Volume 72

Al-Qafilah a bi-monthly cultural magazine
A Saudi Aramco publication